عمر عويس

الطبعة 2

رواية

ترانيم أوستن

AUSTIN'S HYMNS

مستوحاة من أحداث حقيقية

ال... والتوزيع



«نحن لا نؤمن بأي قوة خارقة للطبيعة، لا نؤمن بالآلهة بل ولا نؤمن بالشيطان نفسه.. الشيطان هو رمز للشهوة الإنسانية، الشيطان ليس كينونة أصلًا لتُعبَد»

بيتر جيلمور (الرئيس السابق لكنيسة الشيطان)



إهداء

إلى رفقة الأسوار..

التفضيل الإلهي هو ما يطلق عليه العامة اسم الكاريزما، ذلك الحضور الطاغي الذي يتمتع به بعض الأشخاص، وبقاء الأثر حتى بعد الرحيل.. في نوفمبر ٢٠٠٢ اجتمع ما يقرب من ١٢٥٠ شابًا من أصحاب الكاريزما في مكان واحد؛ كلية الشرطة، ليخرج لمجتمعنا الصاخب بعد أربع سنوات ضباطًا، شكّلت علامة فارقة بوزارة الداخلية؛ دُفعتي.. دفعة ٢٠٠٦.

شكر خاص للرفيق الذي رفض ذكر اسمه (ط .ر)، والرفيق محمود البنا.

إلى أصدقاء العمر..

مثلما تجعلنا الابتسامة أصغر والصلوات تمدنا بالقوة، منحني دعمكم معنى السعادة الحقيقية، تلك السعادة التي قال عنها أبو حيان التوحيدي إن النفس تعود معها إلى ميعادها بريئة من كل دنس، خالصة من كل عارض.

شكر خاص للصديقين، أحمد أبو اليسر، آية طنطاوي على ما بذلاه من مجهود لخروج هذا العمل للنور.



الترنيمة الأولى

لا تؤمن بالخرافات؛ فهي التي تقف في وجه سعادتك



المشهد الأول

السبت ١٩ ديسمبر ٢٠٠٩

أوستن، عاصمة ولاية تكساس الأمريكية

الخامسة صباحًا

الهروب.. الهروب هو الحل الوحيد المتبقي لي، لقد اتخذت قراري منذ أيامٍ قليلة رغم تفكيري في الهروب بشكلٍ مستمر منذ تغيُّر سلوك طارق، زوجي الذي ينام بجواري الآن لم يعد شخصًا صالحًا كما رأيته أول مرة.. صار مهووسًا بالمال، محبًّا لِذاته لدرجة بشعة، هناك أزمات كثيرة قد تحدث بين المرء وزوجه قد تؤدي إلى الانفصال الجسدي أو حتى الطلاق، لكن نادرًا ما ستجد أزمات تنتهي بالهروب دون مواجهة، وبسبب غريب مثل الأنانية، سأهرب ولن أعود إلى هذا البيت أبدًا.

قمت متسللة من أسفل الغطاء محاوِلة عدم إصدار أي صوتٍ كي لا يشعر زوجي، أمسكت هاتفه المحمول وفتحته لأبحث عن رقم العميد صالح عيسي، هذا الرجل هو الوحيد الذي يستطيع السيطرة على جنون زوجي، وجدته ونقلته على هاتفي، يومين كاملين أحاول التقاط (باسوورد) الهاتف حتى نجحت أمس.. حتى اللحظة الأخيرة أفكر في معجزة سماوية لهدايتك وإرجاعك عمّا أنت فيه..وقفت في نهاية الغرفة بالقرب من الباب لألقي النظرة الأخيرة عليه، رأيت الكثير من أحداث



الماضي على وجهه الوسيم..لم يعد هناك ما يقال يا طارق، هذا البيت لايحتمل بقاؤنا معًا تحت سقفه، كل هذا بسببك وليس بسببي، كنت تعرف سر شريكك المحتال، وانتظرت لأقرر أنا الهروب بكامل إرادتي، أنت محتالٌ مثله تمامًا يا طارق فلا أستبعد أن تكون واعيًا لهروبي الآن رغم المنوم الذي وضعتُه لك، بل وسعيدًا بخروجي النهائي من حياتك.

اتجهت إلى غرفة العزيزة «لارا»، ابنتي ذات الخمسة أعوام، أيقظتها من نومها في رفقٍ، ليس من العدل أبدًا هروب هذا الوجه الحالم ذي البشرة الوردية والشعر الذهبي في الشوارع فجرًا، هاتان العينان البنيتان لا تحتملان كل هذه المشاهد العنيفة التي رأتها منذ ميلادها.

قامت من نومها في انزعاج وقالت في ضيق من عدم أخذ كفايتها من النوم، قائلة: ماذا هناك يا مامي؟ لماذا توقظينني من النوم؟ وضعتُ سبابتي على منتصف فمي إشارة لها بالصمت، وسحبتها من على السرير في هدوء، طلبت منها ارتداء ملابس ثقيلة وحذاء «الكاوتشوك» الخاص بها في سرعة، أثناء ارتداء سروالي الجينز وبلوزة، اطمأننت على وجود مال كافٍ في جيبي ووجود (الماستر كارد) وبعض المجوهرات والحلي الخفيفة التي قد أحتاج لبيعها، حياتي الجديدة يلزمها المال بالتأكيد.. تحركنا في خفة سويًا ونحن ننزل درجات السلم، حملت حقيبة السفر الخاصة بي كي لاتحدث صوتًا عاليًا إذا ما تم جرُّها على الأرض، اقتربنا من باب الفيلا الضخم وفتحته بحرصٍ شديد..

«إلى أين أنتِ ذاهبة يا إيفيت»

جاء الصوت مهيبًا من فوق، شعرت أن له صدى بداخلي من قوته، التفتُّ للوراء لأجد طارق.. زوجي الذي أحببته ومازلت أحبه،



كان واقفًا على السلم وفي يده اليمنى سلاحه الشخصي دون أن يصوّبه نحونا.. المواجهة صارت حتمية، لابد من هذه المواجهة الأخيرة..

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا إيفيت، الزوجة لا تضع المنوم لزوجها في العصير وتهرب من بيتها، إلا إذا أجبرها زوجها على ارتكاب إثم ما أو عاملها بعنف، أنا لم اجبرك على شيء، لم أخنك، لم أضربك، أُقسم بربي إني لم أكن أعرف موض...

قاطعته قائلة: لا تقسم بربك بأنك لم تخُن يا طارق، أنت لم تخنّي بالفعل يا رمّاح، الخيانة في نظرك هي أن تتركني وحيدة وتهرب أما ما فعلته أنت هو أنك تركتني للاختيار ووقفت ساكتًا..أنا لا أجبرك على الرحيل يا إيفيت لكنه أفضل الحلول والاختيارات صدقيني..هذا أبشع أنواع الخيانة فأرجوك لا تقسم كي لا يزداد نفوري وكرهي لك.. القسم يا رمّاح مقرون دائمًا بالرّب والرّبُ يقف عاليًا فوق الجبل بينما ستبقى أنت دائمًا كالشيطان، جالسًا بين قوسي الاختيار

- فلتبقِ معي أنتِ ولارا اليوم حتى نقرر ما سنفعله.. أرجوكِ.

- لن أهرب يا طارق، سأرحل وأرسل لك عنواني الجديد كي تأتي لتري ابنتك كل فترة، رغم تأكّدي من عدم اكتراثك من الأساس، أُقسم لك بربي إنك لن تأتي.

أمسكتُ مقبض الباب وخرجت للعالم الفسيح أمامي دون النظر للوراء، لن يأتي خلفنا، أحفظ ردود أفعاله مثل كف يدي، ظننت بادئ الأمر أن الأسباب مختلفة كثيرًا عن سابقة هروبي الأولى، لكنني اكتشفت أن الظرفين متطابقان، المتاهة واحدة والمصمم واحد والضحية لم تختلف في المرتين، دعوت الله أن تكون روحي قد اقتربت من الحقيقة



وألا أتعرض للفتنة مرة أخرى.

❊ ❊ ❊

المشهد الثاني

مبنى وزارة الداخلية المصرية

قبل عام من هروب إيفيت..

إحدى ليالي ديسمبر ٢٠٠٨

لا أحد يعلم ما النظام الذي تدور بواسطته أروقة وزارة الداخلية، كل قسم شرطة وإدارة ومصلحة، كل جهاز رقابي وغير رقابي، كل ضابط وفرد وعسكري شرطة، دائمًا هناك صراعات، الكثير من الصراعات لو أردنا الدقة، الكثير من الإحساس بالذات، القوة المتبوعة بسحق الضعيف، هناك آمال كثيرة تتحطم على صخرة (الشللية) و (التربيطات)، أنت تجتهد وتعمل بكفاءة منقطعة النظير ثم تكتشف أن هناك دائمًا من لا يريد ذلك، الجميع متوتر وينتظر الخطأ الذي يزيحك عن كرسيك، فلا تصطدم بقائد ولا تلفت الانتباه لما بين يديك،كي يبقى بين يديك..

من القلة التي تعمل بجهاز الشرطة -ديوان الوزارة تحديدًا- في هدوء محسوب بالعقل وتركيز رهيب هو العميد صالح عيسى، واحدٌ من أكفأ ضباط قطاع التفتيش والرقابة، هذا القطاع - لمن لا يعرف - بمثابة (البُعبع) بالنسبة لضباط الشرطة، القطاع الموكَّل بمتابعة سير العمل، وكتابة التقارير عن درجة كفاءته وكشف المخالفات بأقسام الشرطة..



سواء كنت ضابط شرطة مجتهدًا وتعمل بجد أو سلبيًا بشكلٍ مبالغ فيه، سيرتجف قلبك هلعًا - دون مبالغة - في الحالتين عند سماع جُمل مثل: (مفتش الداخلية يمر على الخدمات)، (مفتش الداخلية يطلبك للتحقيق في المديرية).. صالح عيسى واحد من المسئولين بهذا القطاع داخل الوزارة، ومن قبلها عمل بقطاع امن الدولة لما يقرب من العشرين عامًا.

العميد صالح مطلوب لمقابلة اللواء عاصم مدير مباحث العاصمة لسؤاله عن واقعة غريبة بعض الشيء تمّت في الآونة الأخيرة، استجواب بشكل غير رسمي نظرًا لحساسية وضعه؛ الرجل المسئول عن استجواب ضباط الشرطة هو نفسه مطلوب للسؤال الآن.

جلس صالح على كرسي ضخم أمام مكتب عاصم في انتظار خروج زميله من دورة المياه الملحقة بحجرة المكتب..

هذه حرب أعصاب لا داعي لها يا عاصم، قالها صالح لنفسه..

«لامؤاخذة يا سيادة العميد، الزنقة وحشة» قالها عاصم وهو يفتح باب الحمّام في سرعة كأنه يعرف مسبقًا بوجود الرجل في مكتبه.

- خير يا عاصم بك؟ قالولي إن السيد الوزير نفسه موكلك تدردش معايا ولازم اعدي عليك.. خير؟

- خير يا صالح طبعًا، هو لو مش خير هتبقى دردشة برضو؟

- أنا تحت أمرك وأمره بس أعدي عليك وتتكلم دي حسستني إن فيه حاجة غلط، كأنه استجواب مثلًا..

- إهدا وماتقلقش، حتى لو كان استجواب، إحنا هنا في وزارة الداخلية يا صالح، يعني جهة تنفيذية للقانون والقانون أول ما هيتنفذ



هيكون عليَّ وعليك قبل أي حد، إحنا كبار يا صالح وحقك القانوني مش هيضيع، ماتخافش.. قالها بشكلٍ صارمٍ نوعًا ما ثم سكت..

فكَّر صالح قليلًا.. هو يعلم أن هذا الاستجواب بخصوص اللواء سليم الفرماوي مدير مباحث القليوبية الأسبق، بعد أن تم القبض عليه وفي حوزته ملايين الدولارات (السليمة) قادمة من الخارج، العميد صالح هو من أعطى كافة المعلومات الخاصة بالدولارات ومكان إخفائها وعنوان فيلا سليم نفسه، بالإضافة لتسجيل صوتي لسليم مع أحد الأشخاص بشأن بيع آثار مقابل تلك الدولارات.. هذا جميل جدًا فيما عدا نقطتين؛ الأولى: أن هذا العمل ليس من اختصاص العميد صالح الحالي في قطاع التفتيش، بالأحرى هو في صميم عمل جهازيّ الأمن العام وأمن الدولة، ويقترب بشكلٍ أو بآخر من عمل اللواء عاصم، أجهزة رقابية هامة داخل الدولة قد قام صالح (بالتعليم) عليها-إن جاز التعبير، صحيح أن صالح كان من الأعمدة المتينة لأمن الدولة في السابق، لكن هذه قضية تحتاج لشخصٍ مازال داخل الجهاز ويده واصلة لتلك التجاوزات.. النقطة الثانية هي رفض اللواء سليم للحديث بأي شكلٍ، ورفضه كذلك لكافة الاتهامات المنسوبة إليه، حساسية منصبه القديم تُعقد الأمور قليلًا، لو كان رجلًا عاديًا لتَم استجوابه واعترافه في ٢٤ ساعة على الأكثر.

اللواء عاصم لديه الكثير من التساؤلات، والعميد صالح هو الوحيد الذي يعرف أجوبتها.

- بتفكر في إيه؟ انت عارف يا صالح معزّتك عندي ولّا لأ؟ انت اخويا الصغير وعمري ما هعمل حركةبايخة معاك، بس أعرف مين اللي قالك



وسلّمك كل المعلومات دي، حد من جوة الجهاز؟ عادي إيه المشكلة بس نعرف، حد مثلًا حاول معاك وانت رف...

قاطعه صالح قائلًا في حزم: طارق رمّاح..

- طارق مين؟

- رمّاح، طارق رمّاح.

- ويطلع مين طارق رمّاح ده؟ ظابط؟

- آه ظابط، لو بعتّ لشئون الظباط هيقولولك على جزء من حكايته، كنت ناقشته زمان وبعتّلهم الملف بتاعه من الأول للآخر، ظابط نضيف ومحترم.

- وشئون الظباط ليه، بتقول إنك انت اللي استجوبته، أنا سامعك أهو، بس ثواني كده الأول، إزاي محترم وعرِف كل ده إلا لو كان هو نفسه اتعامل مع سليم الفرماوي، حصل بينهم مشكلة، صح؟

- نُص الكلام بس هو اللي صح، رمّاح كان بيتعامل مع سليم فعلًا بس غصب عنه.. بُص يا عاصم الموضوع ملخبط شوية وطويل شويتين.

- احكي يا صالح، أنا معاك للصبح، أنا هبلغ سيادة الوزير بنتيجة المقابلة دي، الموضوع مش هزار، احكيلي كل حاجة عن طارق ده وعلى الله يطلع موقفه كويس عشان أي حد ليه علاقة بالقضية دي الوزير هيطلّع دينه.

ضحك صالح بعصبية كبيرة وبعض التشفي غير الملحوظ وقال: لأ ماهو حتى بعد ما احكيلك مش هتعرف توصله، طارق دلوقتي بعيد



أوي عننا، في أمريكا، ما اعرفش تحديدًا فين في أمريكا بالظبط ولا حتى أبوه وأمه يعرفوا.

ضغط اللواء عاصم الجرس المثبت أعلى درج مكتبه، فدلف إليه العسكري المعين لخدمته قائلًا في سرعة: أؤمر يا فندم..

- ٢ قهوة مظبوط يا ابني وبعديهم ٢ نسكافيه.. ثم نظر إلى صالح قائلًا: أصل الباشا واحشني من زمان ومش هيمشي دلوقتي.

- أوامرك يا فندم وتحت أمر الباشا..

ظلّ عاصم مثبتًا عينيه على صالح الذي لم يهتز وأكمل حديثه قائلًا: ها، احكيلي بقى يا سيدي قصة اللي اسمه طارق رمّاح ده

* * *

المشهد الثالث

أوستن، عاصمة ولاية تكساس الأمريكية

إحدى ليالي ديسمبر ٢٠٠٨

بافوميت، أيها العزيز، هل تعرفني؟ هل تشعر بالحيرة التي تعصف بي هذه الأيام؟ إذا كنت تعرف فقل لي ما هي توقعاتك للنهاية؟ أعرف أنك تتوقع اختياراتي من الطفولة، كل القرارات كانت تهمس بأنه ليس لي حيلة في الطريق، مسيّرًا ولست مُخيّرًا، كنت أسمعك ولا أدري أنني أسمعك، هل أنت النجاح يا بافوميت أم كنت صانعه؟

الوقوف أمامك يمنحني قوة غريبة عليّ، قوة الصفاء،



كأنني أنظر لنفسي عاريًا في المرآة، نشوة عجيبة تشابه نشوة الوصول للحقيقة، نحن متشابهان إلى حدٍّ كبيرٍ يا بافوميت وستمي ما أقول بعد أن أقرأ عليك مذكراتي، أم تراك تعرف ما بها؟ لا يهم.. سأقرأها عليك بلغتك المفضلة، لغة أرضك التي جئتَ منها؛العربية، فلتنصت إذا لتكون رؤيتي أوضح بعد القراءة ويكون القرار.. قرارك.

يبدأ كل شيء من الميلاد.. وميلادي كان بعام ١٩٧٦ بالقاهرة.. قاهرة السبعينيات، الفساتين القصيرة والشارلستون، التليفزيون الملون، معاهدة السلام، انتفاضة يناير، خلي بالك من زوزو، و.. الانفتاح، لنقف قليلًا عند الانفتاح الذي جعل والدي خائفًا من كل شيء، حالة من الإفلاس في كل شيء بالنسبة لأسرته الصغيرة جعلته في صراع مستمر مع الظروف، والدي - الاستاذ حسين رمّاح - المهندس الزراعي الهادئ، هو في الأساس من قرية صغيرة تسمى جريس، إحدى قرى مركز أشمون بمحافظة المنوفية، قرية صغيرة لا يميّزها شيء باستثناء بعض الوِرَش لصناعة الأواني الفخارية..

رفض والده - جدي - الاستمرار كواحد من ضمن كثير لا تشغلهم أية اهتمامات سوى الأرض والفلاحة؛لهذا قرّر بعد زواجه - في سن صغيرة - الرحيل لقاهرة المعز ليكون واحدًا من ضمن كثيرٍ أيضًا في أحد مصانع الغزل الشهيرة في الخمسينيات والستينيات، الفَرق الوحيد الذي جعله يستمر في الحياة دون يأسٍ يردّه إلى القرية سريعًا كان عيناه، عيناه كانتا جائعتين للمدينة والحضارة بشكلٍ لا يُصدَّق، مهما خرج منهكًا من العمل وضجيج المصنع، لا ينام قبل أن يُشبع عينيه بالمرور أمام برج القاهرة أو أحد نوادي الليدو أو حتى رؤية سيارات الكاديلاك الشهيرة..



عاش جدي أعواما قليلة في القاهرة مات بعدها وهو في بداية العقد الخامس تقريبًا، مات صغيرًا دون أن يجني خير الأرض التي تركها أو يلهو كثيرًا في شوارع المدينة التي أحبّها، مات وترك ثلاثة أشقاء محبين للتعلم - تخرجوا جميعًا في كلية الزراعة جامعة القاهرة - يشقون طريق الحياة المخيف من بعده، اختار الأول والأوسط العودة للجذور بصحبة والدتهما - جدتي - أما والدي - أصغرهم - فرفض الاستسلام واختار البقاء بشقة والده الصغيرة بمساكن الساحل في شبرا لاستكمال الطريق.

بعد مشاركته مباشرة في حرب ٧٣، فكّر والدي في الزواج من قاهرية، كان العلاج الوحيد من شراسة ذكرى الحرب هو التآنس بأنثى تخفف عنك، عرضَ الفكرة على شقيقيه فاجتمعا به وقالا شرطهما الوحيد للموافقة على زواجه..

«أنت تسكن بالقاهرة لتأكل وتشرب من خيرها فقط، لتبقى بنات المحروسة في الألوان الصارخة والميكروجيب والأوبيرج، أما أنت فستتزوج من الحصن الذي تنتمي إليه، حصن القرية،لن تستطيع تحمل نساء القاهرة السافرات اللاتي يقفن في وجه أزواجهن ليل نهار، هذا شرط لا مناص منه»

هكذا انتهى النقاش من قبل أن يبدأ، ووجد والدي نفسه متزوجًا من حبه الأول والأخير.. سعاد..

أمي، الشابة البيضاء النحيفة ذات العينين الصادقتين، ثم المرأة التي تشع همة وحيوية مستمرين، حصلت سعاد -كما نناديها أنا ووالدي- على شهادة (دبلوم التجارة) من مدرسة التجارة بنات بأشمون، واكتفى والداها بهذه الشهادة، مثلها مثل باقي فتيات القرية بل المركز بأكمله،



بعدها تزوجت من والدي، الشاب الذي قاتل اليهود وغزا العالم الخارجي بالنسبة لها - عالم المدينة - ورضيَتْ كل الرضا بحياتها إلى الآن، والدتي في حركة مستمرة من الفجر إلى العشاء من أجل راحة أسرتها، غير طامحة في شيء آخر، حتى بعدما أصيبت بورم حميد اضطرها لإزالة الرحم والاكتفاء بطفلها الوحيد، ظلت تردد لعشرة أعوام بعدها جملة ثابتة لا تتغير:

«الحمد لله، هو أنا هكفر ولّا إيه، بعد ما رزقني بحسين زينة رجال آشمون، والولد، هعترض على أمره، ده حتى يبقى عيب».

كان الإيمان والفطرة سلاحها في وجه خُبث الدنيا، لا مكر، لا يوجد داخل نفسها أي ضغائن للبشر، أو كراهية لطبقات المجتمع الأرقى، كأنني نَزعت من أحشائها كل ما سبق وخرجت للوجود به دون سبب.. أحب أمي وأشتاق إلى تدليلها يا بافوميت، هل تتخيل هذا؟ كانت تدللني كثيرًا طول الوقت حتى بعدما صرت شابًا يافعًا، تقريبًا هي الشخص الوحيد الذي حزنت بعد ابتعادي عنه ومازلت أذكره من حينٍ لآخر.

بعد تعيين والدي حسين رمّاح في إدارة تموين القاهرة - مكتب الخليفة - صارت حياته مستقرة، من البيت للعمل والعكس، أحيانًا كنا نخرج يوم الإجازة لأحد المتنزهات أو جنينة الحيوان، لكن البقاء في المنزل مع وجبة السمك المشوي، كان الاختيار الغالب عادة، والدي رجل له باع طويل في الوطنية الحديثة كما يجب هو ترديد ذلك، كل مواطن مصري شارك في الحرب يحمل تلك الشخصية بنفس المعايير التي يحملها هو، بداية من شرف العسكرية حتى الإصابة بأمراض القلب عند هزيمة منتخب مصر للكرة، مرورًا بالصمت أغلب الوقت، شرف المهنة حتى



لو كانت مفراداتها الزيت والصابون، التفتيش بقسوة على المخابز كي لا تنهار صحة المواطن، عدم التفريط في أرضه بالقرية والاكتفاء بنصيبه من محصولها السنوي، الانفعال الزائد مع الأحداث السياسية.. إلخ.

هذه ٩٥٪ من حياة والدي أما الـ٥٪ الباقية فهي علاقته بولده طارق.. أنا..

الأبوة في نظر المهندس حسين رمّاح هي مرحلة لا تصل للقرب، وكذلك لاتصل للجفاء، علاقتي بوالدي لم تصل لدرجة الصداقة حتى يومنا هذا، طول الوقت كانت علاقة رسمية، علاقة جافة ينقصها الحنان لكن في نفس الوقت بعيدة عن مفهوم القسوة، لا أذكر ضربه لي يومًا ما مثلًا..

في طفولتي كانت سعاد تدللني كما قلت لك وأبي يعاتبها بسبب هذا الدلع، يحاول إثناءها عما تفعله في صرامة لكنه لا يتخذ ردود أفعال مجحفة، أحيانًا كنت أشعر أنه يريد تدليلي أكثر من أمي لكنه لم يفعلها يومًا، لم يبخل علينا في شيء قدر استطاعته، الطعام والشراب الطبيعي يزينان الطاولة يوميًا، ملابس سنويًا من المدينة الساحرة - وقتها - بورسعيد، الصيف نسافر للإسكندرية، حياتنا مستقرة، لكنها لا تحتمل أية مواجهات أو أعباء إضافية أكبر من طاقة أبي، لا يوجد رصيد في البنك، لا هدايا ثمينة نظير التفوق الدراسي، المواصلات العامة هي الراعي لتحركاتنا، اما في حالة المرض، فالمستشفى الأميري كانت الحل دائمًا.. بحثت عن التميُّز في حياة والدي لسنين طويلة فلم أجده، لهذا صار التميُّز هو هدفي الدائم -بأي شكل- وخاصة بعد دخولي كلية الشرطة.

كنت متفوقًا في دراستي، لم أكن عبقريًا لكنني كنت من زمرة المتفوقين،



في الثانوية العامة جاءني التنسيق بكلية الطب البيطري، تلك الكلية العجيبة التي يسخر الجامعيون من طرق مزاولتها أغلب الوقت، لكنك في نفس الوقت تتخرج منها حاملًا لقب دكتور وتعمل بمقابل مادي مُرضي في إحدى شركات الأدوية أو معامل التحاليل، وقتها أصرّ والدي على تقديم أوراقي للكليات العسكرية، لازال ضباط الجيش مستمرين في احتلال جزء كبير من قلبه حتى بعد انتهاء الحرب.. اكتشفت كذلك أن أغلب شباب منطقتنا- شبرا - وزملاء الدراسة لديهم نفس الرغبة، في البداية قدمت أوراقي للكلية الحربية والشرطة ونسقت بين اختباراتهما معًا.. السُّلطة والعظمة، في مواجهة التضحية، والعمل في الصحراء، تلقائيًا شعرت بميلٍ كبيرٍ ناحية الشرطة وتعلقت بها أكثر، رفضت استكمال باقي اختبارات الكلية الحربية.. بعد شهرين من الاختبارات رسبت في الاختبار الأخير، كشف الهيئة، لم أيأس، دخلت كلية الطب البيطري ثم أعدت تقديم أوراقي لكلية الشرطة العام التالي، في المرة الثانية تم قبولي، كانت فرحة والدي - تحديدًا - لاتوصف، تخلى عن وقاره وقام بتوزيع الحلوى والمياة الغازية على الجيران، وحضر أعمامي بأسرهم كاملة من القرية لمباركة هذا الحدث، كنت بطلًا في نظر الجميع.. ومازلت.

كلية الشرطة.. كلية الشرطة هي تجربة مختلفة لن تتكرر في حياتي بالطبع، المبنى نفسه له هيبة شديدة كأنه كائن حي أمامك يمتلك شخصية جبارة، عالم غامض بمنطقة العباسية بالقاهرة (تم نقلها بعد ذلك للقاهرة الجديدة) يسبِّب لك الوجوم منذ الوهلة الأولى، لن تتخيله أبدًا ما لم تعش بداخله، في أحد الأيام أحضر أمين شرطة طفلًا في الثانية عشر من عمره، مُتهم بالتعدي على أستاذه في الفصل، بغض النظر عما فعله هذا الطفل،



لكني لن أنسى أبدًا نظرته وهو واقف أمام سجن الأحداث، هذه النظرة هي نفس نظرتي في نوفمبر ١٩٩٤ وقت دخولي الكلية.

شاهدت ذات مرة برنامجًا تليفزيونيًّا شهيرًا، يقيم فيه عدد من المراهقين والمراهقات ذوي الموهبة، إقامة كاملة في شقة لمدة شهر واحد فقط، لتنشأ علاقات عاطفية بينهم طول الوقت ويخرجون بعد انتهاء البرنامج أصدقاء للأبد، لك أن تتخيل الآن حجم الترابط النفسي بين طلبة الكلية بعد إقامة كاملة لمدة أربع سنوات.. رغم تشابه الكليات العسكرية مع المدن الجامعية في مدة الإقامة إلا أن شتان الفارق بين الإقامتين، السبب في ذلك يعود لطول ما تلاقيه داخل جدران كل عنبر في الكلية، النظام الصارم الذي يجعلك تستيقظ كل يوم على صوت البروجي في السادسة صباحًا - أيًا كانت حالة الطقس - ثم التدريبات القاسية، والنفوس التي تحكم بعضها البعض في غلظة، وأخيرًا النوم في الحادية عشر مساء، وأنت تحمد الله على بقائك متزنًا نفسيًّا حتى تلك اللحظة.. أهم ميزة في كلية الشرطة هي عدم التفرقة بين الطلبة، الجميع سواسية، الجميع خاضع لنظام واحد رغم حياتهم المليئة بالقوة خارج أسوار الكلية، عند رجوعي للكلية ليلة السبت من كل أسبوع كانت معاناتي الوحيدة في الكلية ضعف مغامراتي، أو لنقل انعدامها، الحديث في الهاتف مع الفتيات ليست المغامرة التي تفخر بها أمام هؤلاء، الكل يحكي ليلة السبت عمّا فعله يوم الخميس بعد الخروج، كيف قضى سهرته، كيف تتمنى الفتيات ممارسة الجنس معه، الكل مميز جدًا في المنطقة التي يسكن بها سواء بالمال أو النفوذ، أما أنا فكنت أكتفي بابتسامة واثقة وخفة ظل تحميني باقي الأسبوع.



تخرجت مع دفعتي في(يوليو ١٩٩٨)، بعد الحفل التي حضرها رئيس الجمهورية كالعادة، صمَّم والديّ أن نتوجه مباشرة لأشمون كي يفرح أجدادي برؤيتي في زِي التخرج المبهِج هناك، خرجت يومها لأجد سيارة (بيجو) في انتظارنا وبداخلها سائق من منطقتنا تبرَّع لنقلنا للمنوفية، لم تكن شهامة منه بالطبع، هذا (التبرع) كلفني الكثير من الخدمات في المقابل بعد ذلك، لم أنسَ أبدًا هذه اللحظات المخجلة وأنا أكتم غيظي أمام زملائي، لكن، بعد رؤية أسطول السيارات الفارهة لآباء وأمهات الدفعة انفجرت غاضبًا في والدتي:

«بلاش قرف بقى»

لم ترد، فهم أبي يومها أن تخرجي بمثابة طبول حرب التمرد على الوضع.. لم أشعر بفرحة التخرج التي كنت أحلم بها بسبب هذا المشهد السخيف، الأكثر سخافة هو تلك الغضاضة التي تنمو في صدري كلما تذكرته.

بعد إجازة قصيرة تم توزيع الخريجين الجُدد برتبة ملازم على كافة مراكز وأقسام الجمهورية وقطاع الأمن المركزي، تم توزيعي لمديرية أمن القاهرة لابدأ حياتي العملية بقسم شرطة الزيتون، ملازمَيْن آخريْن قابلتهما بهذا القِسم لنصبح ثلاثة، هناك حكمة شهيرة يقولها ضباط الشرطة الأقدم للملازمين الجدد وهي: «استمتع قدر المستطاع بهذه الرتبة يا بُني لأن الميري مثل الزواج، أفضل سنواته هي الأولى» بالفعل لا توجد ضغوط ضخمة وأنت تحمل رتبة الملازم، الأفارول الأبيض، وال(سبلايت) ذو النجمة الواحدة، ومتابعة ما يتم أمامك بعين مدققة كي تفهم سير العمل ليتم حلبك في السنين التالية، هذا هو كل شيء..



في نهاية التسعينيات، كان لحادث الاقصر تأثير سلبي على مصر في مجال السياحة لكنه في نفس الوقت صحَّح الأخطاء الكارثية لجهاز الشرطة، فظهر نظام أقوى على يد وزير الداخلية الجديد - وقتها - حبيب العادلي، النظام تم تعميمه على الوزارة بالكامل، لكن ظل العمل بمديرية أمن القاهرة يختلف كثيرًا عن باقي المحافظات، أنت في المفرمة دون مبالغة، خلية نحل تبدأ من صباح اليوم ولا تخمد قبل إزهاق روحك، خدمات، تأمين، تشريفة الرئيس، تشريفة زوجة الرئيس، قضايا جنائية.. إلخ. أي نعم يوجد الكثير من السلبيات لكنها بعيدة تمامًا عن أي تقصيرٍ من رجال الشرطة، على العكس، أكاد أجزم أنه لو توافرت إمكانيات لهم لتحول جهاز الشرطة المصرية لسكوتلانديارد..

في قسم الزيتون رأيت الكثير وتعلمت الكثير والكثير، في السنة الأولى، فهمت طبيعة العمل وحفظتها عن ظهر قلب، بعدها بدأت علاقتي الحقيقية بالقسم واستلام نوبتجيته، أفرغت ما تعلمته بشكلٍ سليمٍ ١٠٠٪ ولاحظ الجميع ذلك فبدأت أسمع بأذنِي ما يطرب له القلب، «طارق رمّاح مجتهد في العمل بشكل لا يُصدَّق، لا توجد منافسة بين طارق والملازمين الآخرين، تستطيع الاعتماد على طارق في المأموريات الكبيرة»، هذا ما اتفقت عليه جميع القيادات التي عملت تحت رئاستها في قسم الزيتون طيلة خمس سنوات، لم يكن لدي ما يشغلني عن الاجتهاد في العمل، كنت قد استبعدت فكرة الزواج، ولا وقت للسفر في رحلات ولا مال للتفكير في هذه الرفاهية من الأساس، أول مرتب قبضته كان ٥٨٠ جنيهًا، فاكتفيت بالحديث المرح - وأحيانًا الجنسي - على الهاتف من آنٍ لآخر.

الملازمان الآخران هما: أمين الجزار وهيثم العدوي..



الجزار من نفس منطقتي، شبرا، أكثر ثراء مني نوعًا ما، سيارة فيات صغيرة موديل ٨٤ وأحدث هاتف خلوي موجود، ومرتب ينفقه على رغباته الذكورية جدًّا، يلقبني بفيلسوف الدفعة لكثرة انشغالي بالقراءة ويعتبرها مصدر تميُّزي، شخصيته من النوع الذي يتحسس نقاط ضعف الآخرين لسد الناقص بداخلها، أتعجب جدًّا من الصديق الذي ينظر إليك وعيناه تلمعان كأنه اكتشف أمرًا يخصك فجأة قائلًا: «انت ماجبتش عربية ليه لحد دلوقتي؟»

هذه ليست نصيحة بل هي تمزيق لروحك بمزاج رائق، الجزار له ملامح تشبه ملامح الأوغاد وبمجرد مقابلته ستتيقن أن الملامح تدل على شخصية صاحبها.. زير نساء ولا يفكر في الزواج على حد فهمي لشخصيته، بسبب ملامح الأوغاد التي يحملها وعيناه الزرقاوان، تنسى أغلب النساء امامه حاجتهن من قسم الشرطة وتتحججن للحديث معه، بمجرد مقابلته ستتيقن أن الملامح تدل على شخصية صاحبها، وأن النساء يملْن للأوغاد بدون سببٍ مفهوم.. الجزار رغم جيرتنا يتعمد عن الاحتكاك بي، أو عرض خدماته كإيصالي للمنزل، يعرف أنني الأقوى هنا في القسم ويتعمد أن يكون كل منّا في طريقه الخاص، أعرف أنه ينتظر خطئي في أي لحظة ليتشفى، شخصية لن ترتاح في التعامل معها، يزنك دائمًا بميزان القوة، قوة المال، قوة النفوذ، قوة العلاقات النسائية.. إلخ، لم يجد ثقلًا عند زنته لشخصي، لكنه يعرف مدى حب قيادات القسم لي فمنعه ذلك من اللعب بنفسيتي لحدٍّ كبيرٍ. بمجرد مقابلة أمين الجزار ستتيقن أن الملامح تدل على شخصية صاحبها، وان النساء يملن للأوغاد بدون سبب مفهوم، وأن... لا شيء»، فلتبق بعيدًا قدر المستطاع عن أمين الجزار، ولا تستمر بتحليل شخصيته.



هيثم العدوي.. النقيض تمامًا من شخصية أمين الجزار، هيثم من أسرة فاحشة الثراء، الثراء المتأصل للجذور وليس الثراء الحديث، نتاج زواج والده الصعيدي من امرأة ثانية، والده تزوج من ابنة عمه صغيرًا ثم قرر تحسين نسله بالزواج من قاهرية حسناء، عائلته لها باع ضخم في مجال السياحة الداخلية، ومسيطرة على ٣٠٪ تقريبًا من القرى والشركات السياحية، والفنادق العائمة، في الأقصر وأسوان، أقرب لإمبراطورية في عالم السياحة، الوجه الأبيض المشرَّب بالحمرة والجسم الممتلئ قليلًا، الشعر البني، لم يبخل يومًا بإيصالي بسيارته الـBMW رغم أنه يسكن مع والدته بإحدى فيلات المعادي، يتعامل مع العالم كله ب(جنتلة) مستمرة، فيبدأ كلامه عادة مع أي شخص بـــ(حضرتك)، هو يعلم أن المال يعضده لكنه لا يحاول إثبات ذلك طول الوقت، هيثم العدوي - كما يقال - ابن ناس، والوحيد الذي عامله هيثم ب(تناكة) كان الجزار، لهذا نشأت صداقة طويلة بيني وبين الشاعر، كان أساسها هو كراهية أمين الجزار..

بعد السنة الأولى من العمل وانتهاء (الدلع)، بدأت مرحلة جديدة، رُتبة الملازم أول، قضيت معها ثلاث سنوات، كان الحدث الأهم في تلك السنوات هو دخول وحدة البحث الجنائي.. سأحاول تبسيط تلك الأمور الشرطية لك بأن نجيب سويًا على سؤالٍ واحدٍ: ما الفرق بين مدرس الأنشطة الرياضية ومدرس الرياضيات؟ الإجابة: لا يوجد فرق، الاثنان مدرسان ويقبضان نفس المرتب في نهاية كل شهر، والاثنان مطالبان بالتواجد كل صباح في طابور المدرسة، هذا صحيح ظاهريًا، لكن فعليًا ستجد أن مدرس الأنشطة الرياضية لو غاب شهرًا كاملًا عن المدرسة، لن تشعر التلاميذ بهذا الغياب، بل من الممكن أن يحلّ (رائد الفصل) محله،



بينما مستحيل تطبيق ذلك على الرياضيات.. الآن تستطيع فهم الفارق بين ضابط النظام وضابط البحث الجنائي، ضابط الشرطة الحقيقي هو من يحقق في جرائم النفس والعرض، ضابط الشرطة الحقيقيّ هو من يودعك وليس أول من يستقبلك في القسم، ضابط الشرطة الحقيقي هو المكلف بجلب حقك من الخصم أو جلب عشماوي لكي يسلّم عليك، ضابط الشرطة الحقيقي هو ضابط البحث الجنائي وليس ضابط النظام لأن الأخير أقرب للكاتب المصري منه لضابط الشرطة.

في السنة الثالثة من بداية عملي بقسم الزيتون، تم نقلي للعمل بوحدة البحث الجنائي بنفس القسم، هذه ميزة رهيبة أن يعلو نجمك في نفس المكان الذي شهد بدايتك، وتحفظ كل كبيرة وصغيرة بنوبتجيته، لا يوجد عسكري أو حتى مدني لا يعرفك، كنت سعيدًا للغاية بسبب ثقة القيادات بي..

هيثم العدوي رفض السعي لدخول وحدة البحث الجنائي بشكل قاطع،، هيثم لن يقضي أغلب وقته في ملاحقة المسجلين والبلطجية وبذل مجهود ذهني وبدني مضاعف في العمل، هو يملك الصيت في لقبه الأخير؛ لهذا فإن المسؤلية لن تفيده في شيء، أما الجزار فشبّت الغيرة في قلبه بشكلٍ ظهر جليًا على وجهه لشهور طويلة، لم يهدأ إلا بعد عام رابع، حينما التحق بوحدة البحث الجنائي بقسم عابدين وتركنا مرتاحين بهذا الخبر..

بعد خمس سنوات قضيتها في قسم الزيتون، جاءت مرحلة الصعيد، عرفت أن أمين الجزار كتب مديرية أمن المنيا كرغبة أولى، أما أنا فاخترت الأقصر مع هيثم، الحياة ستكون أسهل كثيرًا لنا وسط إمبراطورية والده،



هناك شقة تخص أسرته أعطاني نسخة من مفتاحها، تحتوي على كل وسائل الترفيه، خادم، سيارة خاصة، هذه مميزات مدهشة عندما تعمل في صعيد مصر، كل هذا ومعك صديق لذيذ يلعب دور المرشد السياحي ولا يتصيّد أخطاءك في وقت فراغه، كان قراري محسومًا بمجرد ظهور صورة استراحات الضباط التي توفرها المديرية في خيالي.. تم توزيعي بوحدة البحث الجنائي بقسم شرطة الأقصر أما العدوي فعمل بشرطة السياحة..

الشرطة في الصعيد لها وضع خاص، رغم أن العمل بسيط في مجمله إلا أنك تحتاج للتحلي بالصبر وسياسة النفس الطويل مع أهل البلد، أما إذا توصلت لطرق مغازلة النفس الصعيدية والتوقيت السليم للضغط عليها ستنجح نجاحًا ساحقًا.. كانت إقامتي في الصعيد هي أكثر فترات حياتي صفاء وسعادة، لم يعكّر تلك المرحلة سوى الرجل الذي بدأ معه كل شيء في ٢٠٠٥ ولم تنتهِ إلى الآن.. اللواء سليم الفرماوي.

العميد سليم الفرماوي – وقتها – كان مدير مباحث مديرية أمن الأقصر، هناك المقدم علي العصار رئيس مباحث القسم ورئيسي المباشر، أما العميد سليم هو المدير لجميع ضباط مباحث المديرية، سليم الفرماوي رجل طويل القامة، ضخم الجثة، أسمر البشرة، ذو شعر مجعد قليلًا ويرتدي نظارة شمسية كبيرة معظم الوقت، عندما تراه في الزي المعتاد لمديرين المباحث – الحلة الكاملة – تشعر أنه حارس خاص لملهى ليلي بسبب ضخامته، ملامحه تحمل طيبة كبيرة أقرب للبراءة طالما بقي صامتًا، لكنه حين يتكلم ترتعد فرائصك من شراسة حديثة، السباب والتعنيف المستمر، الصوت العالي رغم سنواته الثلاث والخمسين، يتعمد في حديثه وحركته أن يخيفك،الفرماوي يعرف من أنت ويعرف أسرار عملك



التي تحاول إخفاءها عنه، يحكم قبضته على (توكة) حزام مرؤسيه، إذا حلّ غضبه على أحدهم، تركهاليرى الباقي سوءته، له هيبة مصطنعة، إذا دققت سترى خلفها هلع كبير من فقدان المنصب.

شاهدت اللواء سليم للمرة الأولى في حياتي بعد وصولي الأقصر بشهر تقريبًا، أثناء اجتماعه برؤساء ومعاوني مباحث المديرية قال بصوت مجلجل:

«نسمع عنك كل خير يا طارق، مش انت بتاع الزيتون»

يومها وصل الأدرينالين بداخلي لأعلى مستوياته وشعرت بالغبطة، المدح السابق كفيل باختصار نصف مشوار أي ضابط مباحث يسعى لإثبات كفاءته.

كنت بالفعل على المستوى المرجو مني، عمل بشكل مستمر ليلًا ونهارًا، حل قضايا قتل، قضايا نصب، لكنه لم يشكرني بشكل مباشر أبدًا، يكفيك أنه لم يثُر في وجهك، مرة واحدة فقط فعلها بعد حل قضية اغتصاب لإحدى فتيات عائلة كبيرة، داخل هذا المجتمع المغلق فهذه معجزة حرفيًا، تلك المعجزة كانت كفيلة بحفر اسمي داخل عقل العميد سليم الفرماوي..

رغم كُرهي الشديد لأسلوبه في ترهيب مرؤسيه، إلا أنني كنت أرى فيه قدوة نظرًا لذكائه الملحوظ، لا يسمح لأحد من القيادات الأخرى بتعنيفك، عندما يعجز أحد ضباطه أمام قضية ما، يأتي سليم الفرماوي من مكتبه ساعة واحدة ليقدم له الحل، هذا الرجل من القلائل الذين وصلو هذا المنصب بعد كدح سنوات طويلة دون كلل.. صدقني يا بافوميت، مهما بلغ ذكاء شاب في التاسعة والعشرين من عمره -وقتها-



لن يفهم تلابيب عقل هذا الداهية، وإليك الشاهد على صِدق كلامي..

* * *

المشهد الرابع

أطراف مدينة الأقصر

نقطة تفتيش العشي الأمنية

الثالثة بعد منتصف الليل

مايو، نهاية فصل الربيع ونسمات الهواء اللطيفة، جعلت كلّ من بنقطة التفتيش غير متضرر من الوقوف على الطريق، كنت واقفًا في مواجهة السيارات القليلة القادمة، هناك أمين شرطة جالس في غرفة الكشف عن الأحكام وباقي القوة معي في الخارج، فرد سري (مخبر) يدعى فراج، وفرد من إدارة المرور وأمين شرطة من قوة القسم وثلاثة مجندين، لا أعلم لماذا يطلق المصريون على نقطة التفتيش الأمنية لفظ «كمين»، لكنه الاختصار على ما يبدو، الكمين يكون مؤقتًا لضبط شخص ما مثلًا، بينما ما تراه أنت على الطرق السريعة وحدود المحافظات هو نقطة تفتيش.. بعد نصف ساعة بدأ الملل يتسلل إليّ، عدد السيارات وبالتالي الأشخاص قليل للغاية في تلك الساعة المتأخرة، نصف ساعة أخرى لم تمر بها سيارة واحدة، هذا يكفي، هممت بالعودة لغرفة الكشف كي أغمض عيني بعض الوقت حتى الصباح، هذا ليس قانونيًا بالطبع لكن بعد يوم من العمل الشاق يصبح كل شيء قانونيًا.. كنت على وشك الدخول ثم لمحت سيارة قادمة من بعيد، تسير بسرعات متباينة رغم خلو الطريق،



تبطئ حينًا ثم تسرع حينًا آخر كأن قائدها سكران أو خائف من المرور، كشافات السيارة جعلتني لا أستطيع تمييز نوعها، كانت مثيرة للريبة فاتخذت قراري وعدت للوقوف على الطريق مرة أخرى، لتكن هذه السيارة ختام اليوم..

اقتربت أكثر فوجدتها سيارة مجهزة لنقل الموتى، سيارة بيجو ستيشن تم نزع الكنبة الخلفية منها لتسهيل وضع التابوت، غريبة، سيارات نقل الموتى تسير دائمًا دون قلق، ثم إن سحب رخصة سيارة لنقل الموتى، تعني غالبًا انك بلا رحمة أو بلا وعي..

- رُخصَك..

ثلاثة رجال يرتدون الزّي الصعيدي، رجلان منهما في الكابينة الأمامية، والثالث جالسٌ بجوار التابوت، فاردًا قدميه وظهره لها..

- اتفضل.. مساءك زي العسل يا باشا.. قالها السائق وهو يناولني رخصتيّ التسيير والقيادة دون النظر إليّ، الاثنتان ساريتان مما ضاعف الشك بداخلي.

- فين تصريح الدفن يا رجالة؟

- يا بيه معاني متوفي، وده ليه حرمته..

- أيوة ماهو عشان ليه حُرمته هتفتح التابوت ده بالذوق، بدل ما الميت يتحاسب معاكوا جوة، بطّل العربية.. ثم صحت بصوت عالٍ: شد المانع يا ابني (سلك حديدي مرن به خوازيق صغيرة لثقب كاوتش السيارات التي تحاول اختراق نقطة التفتيش أو الهروب منها)

أوقف السائق محرك السيارة ونزل منها بسرعة، وقف أمامي وهو



ينظر في ذعر قائلًا بلهجته الصعيدية: أوامرك يا باشا بس قبل ما افتح ليّا عندك طلب، ثم اقترب أكثر وهمس: مليون جنيه وبرضو اللي سعادتك تؤمر بيه.

مليون جنيه!! لم يكن الموضوع بحاجة للكثير من الذكاء لاستنتاج ما بالتابوت، هناك جثة بالفعل، لكنها ليست لإنسان، جثة مرَّ على وفاتها آلاف السنين غالبًا.

- اسمعني يا باشا، كده كده حتى لو القضية اتعملت هتخلص في النيابة، إحنا موصلاتيه بس، فماتفتكرش إن فلوس البهوات اللي بياكّلونا عيش متوقفة على الكمين والعساكر دول، دول عالم حياتهم زي سلاسل الجبل، مفيش حاجة على الأرض تزحزحها واصل.

مليون جنيه!! المبلغ مغرٍ بالفعل، لم أقلق لحظة من حديث هذا الرجل، هذه الأساطير عن مهرّبي الآثار أسمع عنها يوميًا منذ مجيئي للصعيد، كل ما شغل بالي هو ما الذي يستطيع المرء شراءه بهذا المبلغ الضخم - وقتها - الزواج، الشقة التمليك، السيارة الفخمة، الراحة التي يبحث عنها الإنسان بشكل ما....

قطع أفكاري عرض الرجل: اتنين مليون جنيه..

هل تعرضت للرشوة من قبل؟ يوجد اختبار مَلء الفراغات الشهير بامتحانات الصبا، بمجرد أن يعرضها عليك الراشي تجد أن الرشوة قد ملأت كل الفراغات الناقصة في حياتك، تنظر لحياتك من بعيد بعدها لتجدها قد صارت لوحة جميلة في سرعة جبارة، وتسأل نفسك ما البديل الذي يمكنه ملء فراغات حياتك غير الرشوة؟



«انت عارف يا بيه إن كلامي صح، والنبي ارضينا كلنا، وارضي نفسك قبل منينا»

هناك حديث للرسول درسناه في الصغر يلعن فيه الله الراشي قبل المرتشي، الرجل أمامي يشبه الشياطين وهو يوسوس لي لكنني أشعر بالانجذاب ناحية كلامه، الزمن كأنه توقف، لا صوت في المكان كله سوى صوت عقلي، هناك عيون كثيرة تترقب حركتي على أمل السقوط ومشاركتي هذا السقوط، القوة بالكامل تتمنى أن تقف موقفي هذا، لكن مهلًا.. فراج ليس من هذا النوع، لن يمد يده في نفس الطبق الذي يطمع الكل به، لم أضبطه يومًا يسرق متعلقات محكوم عليه أو يبتز أحدًا لعمل محضر، أم تراه ينتظر (هبرة) كبيرة ليلقي بمبادئه بعيدًا..

الوقت يمضي وأنا ثابت في مكاني لا أتحرك أو أتخذ موقفًا..

«عربية جاية يا طارق بيه، إحنا موقفين الطريق»

كان هذا صوت فراج، قالها في حزم كأنها رسالة محذرة، هنا صحت في صوت عالٍ: افتح الشنطة يا راجل انت، والباقي ينزل من العربية، يلا رجالة الكمين فين أنا هشتغل لوحدي ولّا ايه، هنا فاق جميع أفراد نقطة التفتيش، كأنهم كانوا تحت تأثير مخدر لدقائق، قبضت على يد السائق في قوة، ومشيت به ناحية السيارة من الخلف، نظر لي بشكلٍ يجمع بين اللوم والوعيد وتلكأ قليلًا أمام حقيبة السيارة..

- افتح الشنطة يا راجل يا (.....) لكزته في جانبه بعد سبّه ففتحها وجذب التابوت للخارج قليلًا.. يا الله

تمثال يبلغ ارتفاعه حوالي ٥٧ سم أو أكثر قليلًا على شكل رجلٍ



جالس على قاعدة من الحجر الجيري الملوَّن وممسك ببردية بكلتا يديه وناظر للأمام، على رأسه نحتٌ باللون الأسود كأنه شعر مضفر، يبدو أنه الكاتب المصري أو كاهن أو شيء من هذا القبيل، وجدت أيضًا حقيبة سوداء ضخمة ممتلئة عن آخرها بالمال، هذه قضية العمر..

«يا باشا الفلوس دي كلها اعتبروها بتاعتكم» قالها السائق في حماس مزيف موجهًا حديثه لكل من حوله، للأسف لا تخصنا ولم يعد في استطاعة أحد من القوة لمسها، كل ما بالتابوت سيذهب للدولة، المال والآثار.

بعد دقيقة واحدة تم إنزال الرجلين من السيارة، ووضع الثلاثة داخل حجز نقطة التفتيش، أمسكت الهاتف وتنحيت جانبا بجانب إحدى الدُشم واتصلت برئيس المباحث، وعرضت عليه الأمر، كان نائمًا لكن وصل حماسه لأقصى حد بعد أول عشر ثوانٍ من المكالمة، طلب منّي سرعة التوجه بكامل عناصر القضية لمقابلته هناك (السيارة والتمثال والنقود والثلاثة رجال بالطبع).

السائق كان يصرخ من داخل الحجز بشكل مستمر قائلًا:

«ياباشا، يا باشا، نجيبولك حتة تانية مكان دي حالًا بمكالمة تليفون والقضية تتعمل، يا باشا الله يرضى عليك بعد إذنك، اسمعني يا باشا زي بعضه اعمل تليفون».. بالطبع لم أرد

بعد نصف ساعة تقريبًا جاءني ضابط آخر لرئاسة الكمين بدلًا مني، تأسفت له على إزعاجه في هذا التوقيت فردّ في فتور: «ولا يهمك يا باشا، دا انت فخر المديرية كلها دلوقتي».. لم يكن الوقت متاحًا للرد على هذه الأحقاد..



ركب الثلاث رجال سيارة الشرطة (البوكس)، بعد أن تم توثيقهم بالقيود الحديدية، في حراسة المجندين من الخلف وفراج بجوار السائق في الأمام، قدت أنا السيارة البيجو وخلفي سيارة الشرطة، توقعت أن يتم الهجوم علينا، فحمدت الله أن المسافة ليست كبيرة للقسم.

* * *

المشهد الخامس

قسم شرطة الأقصر

الخامسة فجرًا

وصلت القسم في سلام، خرج رئيس المباحث من مكتبه لاستقبالي استقبال الفاتحين قائلًا:

- كلمت المدير؟

- ازاي بس، لما تيجي منك انت أحسن.

- أكلمه دلوقتي ولّا الصبح احسن؟

- انت متلخبط ليه يا ريّس، الموضوع مايستناش للصبح.

أمسك الهاتف واتصل بالعميد سليم، بدأ الكلام بسرعة مما يدل على أن سليم كان مستيقظًا..

- آسف يا باشا على إزعاج معاليك بس كان فيه كده في كمين المشي عربية...

علت الدهشة ملامح وجهه ثم أنهى المكالمة قائلًا: تمام سعادتك، في



انتظارك يا باشا، أنهى المكالمة وصاح في ارتباك:

– المدير داخل علينا، صحصح الناس اللي نايمة برة دي وكلم المأمور، بس بسرعة يا طارق والنبي.

خرجت من المكتب وأنا أفكر في كيفية وصول الخبر لمدير المباحث بهذه السرعة، المخبر فراج بالتأكيد هو من أبلغه، سمعت صوتًا عاليًا قادمًا من ناحية البوابة:

« انتبااااااه »

وصل المدير، كأنه كان في المبنى المجاور للقسم، بعد ثوانٍ كنت واقفًا بجانب علي العصار أمام سيارة سليم الفرماوي..

فتح زجاج السيارة الخلفي إلى المنتصف ونظرلي طويلًا في ودّ، قال وقد ازداد صوته غلظة، بسبب استيقاظه لتوه من النوم: عشرة على عشرة يا رماح.

قلت في قوة وأنا أؤدي التحية العسكرية: تلميذ سعادتك يا فندم.

قال العصار: يا فندم، رماح جايب قضية محترمة.

قبل أن أكمل ما حدث يا بافوميت هناك بعض المعلومات التي يجب عليك معرفتها كي لا تتفاجأ مثلي.. هل سمعت من قبل عن قرية القرنة في البر الغربي للأقصر؟ هذه القرية تحتضن واحدة من أقدم الصناعات التقليدية في الجنوب المصري، صناعة «الألباستر» التي تحاكي في دقة صناعتها وطبيعة خاماتها، آلافًا من القطع الأثرية، هناك عشرات من العائلات التي تتوارث هذه الصناعة أبًا عن جد، يستخدمون الأدوات البدائية مثل الأزميل والمبرد والمنشار،



ينهمك الكل في عمله لتخرج في النهاية من الحجر تماثيل تنطق بالروعة والجمال، القطعة الواحدة قد تستغرق أسبوعًا في هذه الصناعة لكنها تخرج صورة طِبق الأصل من من القطعة الأصلية في أي معبد أو متحف أو حتى مرسومة على الجدران، أحيانًا يستخدمون الحجر الجيري أو المرمر بدلًا من «الألباستر» على حسب الطلب.. هناك نوعان من محترفي هذه الصناعة، أو لنقُل من أي صناعة، أناس يعملون من أجل كسب الرزق الحلال، وأشهرهم على الإطلاق هو سيد المطعني، أشهر صانع تماثيل فرعونية مقلَّدة في الأقصر، وصلت درجة شهرته إلى صداقة الرؤساء والملوك، التعامل مع الشخصيات العامة الدولية ونحت تماثيل وإهداؤها لهم، مثل مبارك وشيراك والملكة صوفيا.. إلخ، رجل أمين رفض كافة المغريات لتقليد آثار وعرضها على أنها حقيقية في المتاحف وحتى الفنادق.

النوع الثاني على العكس تمامًا من سيد المطعني وأغلب أهالي القرنة، وهو من يحترف هذه المهنة من أجل تجارة الآثار والكسب السريع من الغش، يبيع نسخة مقلدة بالملايين ثم يكتشف المشتري - وأحيانًا لا يكتشف- أنها مزورة، صحيح أنه غش للخارجين على القانون، لكنهم في النهاية مستفيدون وشركاء أصليون في تلك الجرائم.. في الجرائم بيع الآثار القطعة تخرج من إحدى الوِرَش قطعة طبق الأصل من القطعة الأصلية في نفس التوقيت، في حالة القبض على الأصلية يتم الاتفاق مع منعدمي الضمير من الشرطة أو النيابة لتبديلها بالمقلدة.

نعود لحكايتي مع سليم الذي باغتني قائلًا: يا طارق، أنت متأكد إن الحتة دي أصلية؟ هتتبعت النيابة وهتتفحص خلي بالك، ساعتها هنبقى عملنا دوشة على الفاضي وتطلع في الآخر بـ ١٥٠ جنيه في أي بازار.



قلت في جدية وحزم: طبعًا يافندم، العيال دي عرضت عليَّ كل الفلوس الموجودة مع التمثال، ٢ مليون جنيه، ده غير كمان التابوت وحركة العربية، الشغل ده كله عشان تمثال مضروب، مستحيل يا باشا.

– تمام، هات التمثال من جوه يا رمّاح اشوفه.

ذهبت لأحضره وبقي العصار مع سليم الفرماوي، دقائق وعدت إليهما ومعي فراج حاملًا التمثال في علبة صغيرة من الورق المقوى، فتحت العلبة وأعطيت التمثال لسليم الذي أخذ يفحصه ويقلبه، وضع العصار يده على كتفي الأيمن وأشار لفراج بالانصراف ثم بدأ معي حديث جانبي:

– اطلع على الشقة يا رمّاح ومن بكرة انت فري يا عم، لك ٥ أيام من المدير في القاهرة، لسه قايلي حالًا وانت جوة، عيييش.

– بتتكلم جد يا باشا؟

– آه والله..سقط هاتفه المحمول من يده بجواري وهو يتكلم، فهمَّ بإحضاره لكني ثنيت ركبتيّ بسرعة لألتقطه من على الأرض، فقال في سخرية يشوبها القلق:

– إيه؟ باظ ولا إيه؟

– زي الفل أهو الحمد لله جت سليمة، اتفضل يا كبير.

هنا قال سليم بصوته الغليظ: واد يا طارق، العصار قالك؟

– يا باشا ده كتير والله عليَّ.

– ولسه لو الحتة سليمة هجيبلك مكافأة حلوة من الوزير.

في هذه اللحظات كنت أعيش النجاح في أفضل صوره، النجاح الحقيقي، بعدها عرفت أن التزوير لا يتم في ورش الأقصر فقط، التزوير يتم في أقسام شرطتها كذلك..

عرفت ما حدث في النيابة، لقد تم فحص القطعة وتبين أنها مقلدة، القطعة لم تكن حقيقية يا بافوميت، تخيل!! خمسة أيام في القاهرة والشك ينهش عقلي، شك في النيابة، شك في العصار، شك في سليم الفرماوي، شك في النيابة، شك حتى في نفسي، كل يوم أسأل نفسي ماذا حدث يومها؟ لماذا عرض السائق كل هذه النقود؟ بالتأكيد ليس من أجل قطعة مقلدة، من أين جاءت إذا القطعة المقلَّدة؟ من الذي بدّل الحقيقية بالمقلَّدة؟ من الذي يجرؤ على فعل هذا؟ عدت من الإجازة في قمة الذهول والغضب، العجيب أن العصار لم يتكلم معي في شيء، كأن القضية لا تشغل باله، سألته في توتر:

– هو سليم الفرماوي اتضايق إن الحتة ماطلعتش حقيقة؟ أنا هتجنن يا باشا، هتجنن.

أجابني في بساطة: سليم ماسألنيش مرة تانية عن القضية، إحمد ربنا إنه نسي.

– ازاي يا باشا، بعد كل ده نسي!!

– آهو اللي حصل يا رمّاح، شِد حيلك أنت بس بعد كده.

كيف هذا؟ هذا الكلام لا يدخل العقل السليم بأي شكل، هناك شيء غامض في هذه الأحداث، التلاعب تم في القسم، لو تم في النيابة لوجدت الجميع يتحدث عن ذلك..



بعدها كنت أتعمد الوقوف بهذا الكمين يوميًا، فتشت كل سنتيمتر من كل سيارة تمر من أمامي، كنت كالثور الهائج أبحث عن الآثار بشكلٍ جنونيّ، بعد شهر وجدت قطعة ثانية أخيرًا، سيارة محملة بكراتين من الكيك له علامة تجارية شهيرة، فتحت كل علبة بنفسي حتى وجدتها، هذه المرة رافقت القطعة طول الوقت حتى جاء الخبير لفحصها وأقرّ أنها سليمة في محضر..

في اليوم التالي فهمت ما حدث لقطعة الآثار الأولى، مكالمة من العصار أخبرني فيها استبعادي من رئاسة نقاط التفتيش الأمنية، القرار صادر بمعرفة سليم الفرماوي شخصيًا.. رسمَتْ أفكاري الصورة كاملة.

- ليه عملت كده يا باشا؟

- مش أنا يا طارق، سليم الفرماوي مش عايزك تقف على كمي...

- مش قصدي على الكمين، ليه وقّعت تليفونك جنبي ليلتها لحد ما سليم بدّل الحتة بواحدة تانية مضروبة في عربيته؟

-...................

- أنا عارف انك نضيف ويمكن ماخدتش حاجة منه، بس انت ماقدرتش تقوله لأ، ماقدرتش على الكبير فاستهبلت على الصغير، صح؟

- طارق، والله العظيم كان غصن...

قاطعته دون إعتذار قائلًا:

- على أدّ زعلي منك يا علي بك على قدّ ما أنا خايف من الأيام الجاية، جيل فاسد وجيل سِكِت على الفساد وجيل مفروض يتعلم من الاتنين اللي قبله.



بعد ذلك وحتى انتهاء مدة خدمتي بالصعيد، تم تثبيتي في خدمات هادئة تمامًا مثل تأمين المعابد والبواخر السياحية، تلك الخدمات التي شهدت بداية حكايتي مع فتاة أمريكا الوسطى الحالمة: إيفيت كوزمان ديلابينا.



الترنيمة الثانية

كُن عطوفًا ولكن لا تقع في الحب، فالحب للضعفاء فقط



المشهد الأول

فجر الإثنين ٢٩ / ٣/ ١٩٩٣

ولاية تاماوليباس أقصى شمال المكسيك

بلدة نويفو لاريدو الحدودية

الهروب، الهروب هو الحل الوحيد المتبقي لي، لقد اتخذت قراري منذ أيامٍ قليلة، رغم تفكيري في الهروب بشكلٍ دائم ومستمر منذ تغيُّر سلوك زوجي، خرجت بالسيارة من قصر المسيح وبجواري ابنتي، حملت كل المجوهرات والحُلي التي أمتلكها وخرجت أخيرًا، سألني قائد حرس البوابة الشرقية عن سبب خروجي في لُطفٍ، فأجبته في لطف أشدّ: الملل يقتلني اليوم يا «كارلوس»، قد يترك المسيح يومًا ما سطح القصر دون عودة بسبب الملل، ضحك وفتح البوابة فانطلقت لشوارع البلده.. أنا قادمة إليك يا حبيب القلب، سنعيش في تكساس بعيدًا عن أعين زوجي المنتشرة بالمكسيك كلها، كان الاتفاق بيني وبين «ميشيل» على التواجد على أطراف البلدة من الناحية الأخرى، والتوجه بسيارة واحدة ناحية خليج المكسيك، زوجي سيكنس أرض المكسيك كلها بينما نحن في الطريق للولايات من البحر..

انطلقت السيارة تشق الطريق حتى اقتربت من الطريق الأسفلتي الذي يربط البلدة بعاصمة الولاية فكتوريا، اللقاء سيتم بعد أربعين كيلو



من بداية الطريق، قمت بتشغيل الكاسيت لتشدو أغنية تتكلم عما يحدث للأحبة بعد الفراق، يا للنحس، قلت للصغيرة لإضاعة الوقت:

– لماذا أنتِ صامتة هكذا يا عزيزتي؟

– لا شيء يا مامي، لكنني لا أعرف لماذا أيقظتِني من النوم، هل السبب حقًا هو ما قلتِه لكارلوس؟

– لا.. ستعرفين السبب بعد قليل، أنتِ مع والدتك الآن فلِمَ القلق؟

– هذا الظلام من حولنا يشعرني فقط ببعض الضيق، كأن السماء ستبتلعنا.

–.......................

أرجوكِ يا صغيرتي، لا أريد من يزيد خوفي، يكفي ما بداخلي، بعد نصف ساعة وصلنا للمكان المتفق عليه، هذا الموتيل هو المكان الذي قضى به ميشيل ليلته، كنت أنظر في مرآة السيارة كل فترة كي أتأكد أنه لا أحد يتبعني، حمدًا لله..

ميشيل قال إنه سينتظر وصول سيارتي من خلف شباك غرفته.. فكرت أن أذهب أنا إليه لكن فضلت الانتظار عشر دقائق، خطتي البديلة إذا لم يأتِ ميشيل هي ان اعود للقصر، وأرتمي في حضن زوجي باكية، فكرت في الهروب بسبب إهمالك لي، أرجوك لا تضطرني للتخلي عنك مرة أخرى.. طالما لم يعرف زوجي بنيّة الهروب مع ميشيل فهناك دائمًا محاولة ثانية، أما الصغيرة فستعرف عندما نقترب من ساحل الولايات، هذه الطفلة تملك ذكاءً ضعف سنها..

«لماذا توقفنا هنا يا أمي؟!»



أين أنت يا ميشيل، فلتخرج من هذا الموتيل أيها الغبي وإلا عدنا لنقطة الصفر مجددًا؟

«أفكر في حل للعذاب الذي أعيشه مع والدك يا صغيرتي»

أخيرًا ظهر.. الإضاءة آتية من خلفه تُظهره كأبطال الأساطير.. أحبك يا ميشيل.

- أبي عرف أنك تقابلين ميشيل يا أمي، غضب قليلًا لكنه أقسم لي إنه لن يؤذيكِ.

- ماذا؟ !! هل....

فجأة سمعت صراخ ميشيل مرة واحدة كالملسوع: اهربي يا أنجليكا، اهربي بسرعة إنه فخ.

هنا ظهر ثلاثة رجال من جانب الموتيل، كأنهم جاءوا من العدم وبدأ إطلاق النار.

راتاااااااه راتاااااااه، صرخت ابنتي كالمجنونة، أما أنا فارتبكت من الصدمة وحاولت تشغيل محرك السيارة، لا يعمل، اللعنة، حاولت مرة ثانية وثالثة، أخيرًا هدر المحرك العجوز، انطلقت السيارة أمتارًا قليلة لم يحاول فيها الرجال إيقافها، ثم عرفت السبب، إطارات السيارة من اليسار تم ثقبها بالرصاص، نظرت في المرآة فوجدت اثنين منهم يضربان ميشيل فوق رأسه بكعب السلاح، سقط على وجهه كالحجر، سيقتلوه بالتأكيد، الأوغاد، لماذا لا يقتلونه بسرعة دون تعذيب..

الثالث قادم ناحيتنا، لا مفر، حاولت إغلاق السيارة فهشم الزجاج بضربة واحدة، ثم صوب سلاحه ناحيتي، آخر ما سمعته كان دوي



خروج الطلق الناري و...وأظلمت الدنيا تمامًا.

* * *

المشهد الثاني

محطة قطارات أوستن

السادسة صباحًا

أقف أمام رصيف القطار المتجه إلى مدينة دينتون، ممسكة بيد لارا في قوة، كأنها ستهرب مني، تحاصرني الأسئلة والذكريات بلارحمة.. كيف يجتمع رجل من الشرق مع امرأة من الغرب لتتغير حياة كلٍّ منهما بهذا الشكل؟ الحياة قسوتها تأتي من الفتنة التي تغريك بها، الصلب فقط هو من يقف امامها، أما الكثير من الضعفاء فتبتلعهم.. صحيح أن الحياة لا تقسو إلا على ضعيف الإرادة، لكن ضعيف الإرادة بالنسبة لمن؟ كل إنسان سواء من الشرق أو الغرب له زاوية تفكير معينة، تعتمد تلك الزاوية على البيئة والتربية والجينات والدين والأهم مما سبق، الفِتَن، فقيرًا أو غنيًا، من دولة عظمى أو عالم ثالث، عالمٍ أو أميّ سيأتيك الاختبار، فإما إصلاح ذاتك وإما تمام الفساد..

وبهذا يكون العالَم بأسره من الشرق للغرب، منقسمًا إلى نوعين غير متساويين من البشر، الطيب والخبيث..

قابلت طارق رماح للمرة الأولى في الأقصر.. مدينة الشمس، كنت ضمن بعثة قادمة من جامعة أوستن، لترميم الآثار بمنطقة الشرق الأوسط، درست الآثار في الجامعة بسبب الحضارة التي وُلِدت فيها،



حضارة الإزتك والمايا، وأحببت أن أدرس آثار العالم كله، ثم جاءت الفرصة لتطبيق ما درسته عمليًا من خلال تلك البعثة، البروفوسير جيمس، الرئيس، وعدد من مساعديه كمشرفين، هؤلاء كانوا قوام البعثة، أما أنا ومعي ثلاثة من الشباب (ثلاث شابات وشاب واحد) فكانت تلك البعثة بمثابة تدريبٍ قوي لما ينتظرنا.. توطدت العلاقة بيننا بشكلٍ كبيرٍ بعد رحلة عمل طويلة بأربع دول، تركيا، الأردن، اليمن وأخيرًا مصر، عروس البحر المتوسط.. بعد الانتهاء من ترميم بعض المسلات والتماثيل الصغيرة بمعبديّ الأقصر وهابو، كانت رحلة ترفيهية تنتظرنا في الأقصر وأسوان قبل العودة لتكساس، جولة صباحية في معبد الكرنك ثم رحلة النايل كروز الشهيرة في اليوم التالي تستمر لأربعة أيام..

كنت أسير في طريق الكباش الشهير ومعي إحدى زميلاتي وأقربهم لقلبي؛ سارة، شمس الشتاء الجميلة فوقنا والكثير من أبي الهول الصغير -كما يطلقون عليه- حولنا، كنت مبهورة بفكرة أن هناك حضارة نشأت وحكمت وماتت هنا، هذه الأرض عاش عليها آلاف البشر، هناك من أَحَبَّ ومن كرِه ومن انتقم ومن أفسد.. إلخ، الهواء نفسه لازال يحمل عبقهم.

أثناء شرودي وجدت أمامي صبيًا لا يتعدى الثالثة عشر،أسمر البشرة يعرض عليّ شراء بعض الجعارين وأوراق البردي، كنت منشغلة بالتصوير فشكرته وأكملت طريقي، لمحته يعرض بضاعته على سارة فاشترت، وقف بعيدًا يقسّم الأموال التي جمعها على جيبي جلبابه، مرت دقيقتان وشعرت بيد تسحب هاتفي المحمول من جيب سروالي الخلفي، لص بالتأكيد، لكنه لص غير محترف، لا يوجد لص محترف في الثالثة عشرة من عمره حتى لو كان «روبن هود»، صرخت فصرخت



سارة بدورها، لم يكن المشهد محتاجًا لشرح، ركض رجل مصري خلفه لكنه لم يلحق الصبي، دقائق ثم جاء رجلٌ ثانٍ بالصبي، كان يرتدي زِيّ رجال الشرطة ويحمل سلاحًا في جانبه، أعطاني الهاتف وقال في هدوءِ كمن اعتاد هذه المواقف:- «وييت مدام، ذا بولس اوفسر اذ كامنج»، تغاضيت عن لغته المرتبكه ونحته لي بالمدام وانتظرت كما طلب.. من بعيد لمحته قادمًا؛ضابط شرطة شاب، أبيض البشرة، حسن الملامح، أجمل ما فيها هي عيناه السوداوان، ذقنه مدببة قليلًا، ممشوق القدّ، تشعر بالنشاط والهمة في حركته، اقترب ثم ابتسم فظهرت غمازتا وجهه المليح، وقال بإنجليزية جيدة: - آسف لهذا الموقف السخيف يا.. ما اسمك؟

- إيفيت.

- هل ترغبين في اتخاذ إجراء قانوني يا آنسة إيفيت؟

اقتحم الحديث فجأة رجل صعيدي كبير السن، قال شيئًا لم أفهمه، يبدو أنه يعرف الصبي الذي لم يتوقف عن البكاء بعد ضبطه، لم أستبعد أن يكون رب عمله ويرغب في تخليصه من هذه الورطة، أمره طارق بالتوقف عن الكلام فسكت، نظر لي طارق متسائلًا، فأشرت له أنني أريد الانصراف فقط، لا أريد أذى لأحد بسببي حتى لو كان لصًا.. انتهى الموقف وانصرف الجميع، لحقت بي سارة وهي تقول: ضابط الشرطة هذا له هيبة كبيرة رغم صغر سنه، أليس كذلك؟

ابتسمت دون رد.

في المساء رأيت طارق للمرة الثانية.. ذهبت أنا وسارة لوداع شوارع الأقصر، وشرب القهوة العربية مع حَجَر النارجيلة المميز بأحد الكافيهات المطلة على النيل، وجدته هناك بصحبة شاب آخر ممتلئ الجسم



قليلًا يضحكان، توقف عن الضحك ماإن رآني وأشار لصديقه نحوي بشكل خفي، يبدو أنه حكى له ما حدث في الصباح، كان يرغب في الحديث معي لكنه لم يبادر بذلك، ترددت قليلًا ثم شجعتني سارة للسلام.

- كيف حالك؟

- اسمي رمّاح، طارق رمّاح.

- أردت أن اشكرك على تفهمك لموقفي.

- لا تشكريني، اشكري قلبك الطيب يا إيفيت، هل أنتِ برازيلية؟

- هههههه لا، أنا مكسيكية ومقيمة بالولايات المتحدة.

قال صديقه -عرفت أن اسمه هيثم- في مرح: تفضلا، هل لديكما الوقت لتناول قدح من القهوة؟

- للأسف ليس لدينا وقتٌ طويلٌ، سنسافر في الصباح.. قالتها سارة في ودٍّ.

- نصف ساعة لن تضر احدا بالتأكيد.

كان طارق يرمقني في صمتٍ، ثم يحمر وجهه خجلًا إذا نظرت إليه، له طلّة محببة للقلب هذا الشاب، خطر لي أنه حفيد فرعون مصري عاش هنا منذ قرون بعيدة، ربما تواصل هذا الفرعون مع جدقي اللاتينية بطريقة ما.. ضحكنا كثيرًا على بعض العادات المصرية والمكسيكية الغريبة، عرفت أنه يعمل في الأقصر منذ عام ونصف تقريبًا،وأنه مقيم في القاهرة، صديقه هيثم ضابط شرطة أيضًا لكنهما لا يعملان بنفس القسم، حتى



الآن لا توجد إثارة في قصة التعارف هذه، دهشتي الحقيقية كانت في المرة الثالثة.

❋ ❋ ❋

المشهد الثالث

باخرة نايل كروز، الأقصر

أعاني من «الكلستروفوبيا»، لا تنزعج من ضخامة الاسم، فهذا المرض مصاب به ٧٪ من سكان الأرض، الكلستروفوبيا هو الخوف المرضي من الأماكن المغلقة أو المزدحمة، مريض الكلستروفوبيا يحب التواجد دائمًا في الأماكن المفتوحة، ويكره بشدة الدخول في الزحام، المكان الأكثر رعبًا بالنسبة له هو الأسانسير، في حالة إذا ما تعطل - الأسانسير وليس المريض بالطبع - فلا تقف في وجهه وقتها أبدًا، سيثور ويثور ويثور وفي النهاية سيفقد الوعي.. في صباح اليوم التالي لمشهديّ مع طارق، بدأت رحلتنا الأخيرة في مصر، كل أفراد البعثة على الباخرة النيلية (شمس)، تقوم من الأقصر لتصل إلى أسوان، ثم العودة مرة أخرى، تنتهي هذه الرحلة بعد أربع ليالٍ بالضبط، هذه من أعظم الرحلات التي قد تقوم بها في حياتك، فندق عائم وسط النيل، على الضفتين أراضي خضراء، واحيانا ترى آثار، بالنسبة لي كانت الباخرة هي الجنة، كنت أفكر فيما حدث بالليلة السابقة لكن ليس لدرجة نسيان ما حولي، رتبت متعلقاتي مع سارة في نفس الغرفة وتحدثنا عن البعثة وطاقمها والبلاد التي عملنا بها، كنا محظوظتين برحلة العمل هذه وخاصة في سن صغيرة، ثم.. طارق، الأمريكية الماكرة تشعر بانجذابي ناحيته، ضحكنا وذهبت أنا في النوم.



في المساء، تناولنا الطعام، وبدأت أولى فقرات الرحلة، أعلنت الإذاعة الداخلية للباخرة عن حفل غنائي لمطربة إيطالية شابة، الفقرات هنا تقدَّم للجنسية صاحبة نسبة الحضور الأعلى، الطليان او الروس غالبا، ليست مطربة شهيرة بالطبع لكنها ليست نشاذًا.. ارتديت فستانًا فيروزيّ اللون لقضاء السهرة به، ثم تقابلنا أنا وسارة مع البروفيسور جيمس وباقي أفراد البعثة على سطح الباخرة وتوجهنا للحفل في الأسفل، مع الاقتراب من قاعة الحفل بدأت الأعداد في الزيادة، وجدت عشرات الطلاينة والروس متوجهين للحفل، كانت سارة قد سبقتني قليلًا للحديث مع شاب من المتدربين، بعد فترة لم أعد أراها، القاعة تظهر ضخمة من الداخل لكن باب الدخول كان صغيرا ذو درفة واحدة متحركة من الخشب، درجة حرارة جسدي تنخفض، والعرق يغمر جبيني، صوت نفسي يعلو لدرجة أنني لا أسمع صوت الموسيقى القادم من الداخل، لا أحد ينظر للآخر في هذا الزحام، الكل يبحث عن طريقة للوصول بشكل أسرع، ما بكم أيها القوم؟ هل هو حفل لانريكي جلاسيوس؟ لماذا كل هذه العجلة؟ دقات قلبي تتسارع هناك من ينادي باسمي من الخلف لكنني أشعر أن الصوت قادمٌ من بئر سحيقة ثم.. ثم فقدت الوعي، اللعنة على الكلستروفوبيا.

أفقت على وجهه، كان هو، المصري ذو الغمازتين..

كنت جالسة على أحد المقاعد المخصصة للبيسين على سطح الباخرة، يبدو أنني فقدت الوعي بالفعل، لم أستوعب في البداية وجوده أمامي، منذ ساعتين كنت أتكلم عنه والآن أجده امامي يبتسم في بساطة، يا للمصادفة.. قلت في دهشة: ماذا حدث؟

قال بإنجليزيته البطيئة التي تزيده صوته الرخيم سحرًا:



- لقد لمحتك من بعيد، يبدو عليك التعب وتلتفتين يمينًا ويسارًا ثم سقطتِ مرة واحدة.

قلت في خجل: إنها الكلستروفوبيا، الخوف من الازدحام الشديد.. آسفة.

- لا عليك، لمِ الكلستروفوبيا؟ هذا الخوف المرضي مرتبط بأسباب في الطفولة دائمًا.

- ممم بصراحة، حبسني والدي في إحدى الغرف وأنا صغيرة، لم يكن شريرًا لكنه عصبي بشكلٍ كبيرٍ.

- لا عليك، أنا أخاف من أشياء بسيطة للغاية، صوت القطارات مثلًا.

- هههههه، بالعكس أنا أحبه، كأنه صوت بداية رحلة، بلاد جديدة.

ضحك قائلًا: القطارات هنا في مصر لها مدلول آخر، وأنا في السابعة تحرك القطار بي، بعدما نزل والدي منه ونحن ذاهبان لبلدتنا في دلتا مصر، طلب مني القفز لكنني خفت.

- يا إلهي، وماذا حدث لك؟

- استلمني والدي بعدها من المحطة التالية.

- أحب مصر كثيرًا وأحب أهلها، لديهم ذكاء فطري، هناك الكثير من السلوكيات السيئة لكنها بلد جميل جدًّا.

- اللاتينيون هم أقرب الناس شكلًا لنا في العالم، نحن أكثر عشاقهم هوسًا في كرة القدم.



كان جالسًا أمامي كأبطال الأساطير تحت ضوء القمر، لم يكن هناك سوى عامل للنظافة في قاعة الطعام فزادت الخصوصية من روعة اللقاء..

- لقد أنقذتني مرتين، كيف لي أن أرد جميلك؟

- لاشيء، هذا عملي، سأكتفي فقط بقدحٍ من القهوة معك.

طوق إبطي الأيسر بذراعه الأيمن في رقة، ومشينا ناحية البار، طلبنا القهوة وظللنا نتحدث طويلًا، عرفت أنه من حي شعبي في القاهرة وأن منطقته تتميز ب (الجدعنة) -حفظتها منه بالعامية-، قلت له إن علاقتي بالولايات أقوى من علاقتي بالمكسيك بقليل، قال في تعجب:

- لماذا؟ أين يعيش والداك؟

- والدي يشغل منصب وزير التجارة والصناعة في المكسيك، أما والدتي فتوفيت وأنا في عمر الثالثة عشر.

- أنا آسف يا إيفيت، لم أقصد تذكيرك بها.

- لَم ولن أنساها يومًا، كانت تشبه لوسيا منديز، هل تعرفها؟

- لا..

- ممثلة مكسيكية شهيرة في الثمانينيات، عيناها جميلتان لكنهما حزينتان، مثل حياة أمي..

- لماذا؟ هل كان والدك يضايقها؟

أطرقت برأسي وسكتّ قليلًا ثم قلت في شرود:

- احيانا..



انتهى الحفل الغنائي بالأسفل، ووجدت سارة تناديني، ابتسمت وتركته على وعدٍ بلقاء آخر في الصباح.. البدايات الجميلة لا تعني بالضرورة حسن الختام، لكن تلك البدايات التي تسعى خلفك دون عمد لابد أن تشغل تفكيرك، الأولى والثانية هناك احتمال، بينما الثالثة ثابتة كما يقولون، توقعت يومها أن نصير أصدقاء للأبد، لكن القدر كتب لنا علاقة من نوع آخر..

ليالي (الكروز) هي التي حركت كل مشاعري ناحية طارق، كنا نتقابل من الصباح الباكر حتى وقت النوم، ننظر لبعضنا البعض ثم لا نعرف، هل النشوة بداخلنا هي فرحة لقاء الحاضر أم حنين للقاء سابق، تكلمنا في كل شيء، وعن كل شيء، كأننا نكتشف أنفسنا من جديد، تكلم عن حياته وقريته وعمله وطموحه، حتى علاقاته الغرامية البسيطة تكلم عنها، أما أنا فلم أحكِ الكثير، فضّلت الاستماع إليه، حكيت له فقط عن انشغال والدي الدائم بالعمل السياسي وحزن أمي بسبب ابتعاده عنها، وكذا عن انجذابي لأرض الأحلام والدراسة هناك.. كان وحيدًا مثلي، يحب القراءة مثلي، شغوفًا بالسهر مثلي، كنا متشابهين في امور كثيرة..

الليلة الأخيرة على الباخرة لم ننم بها، يا إلهي،كم كنت نقيًا تلك الليلة يا طارق، أوصلني ليلتها لغرفتي بالأسفل ثم طلب مني البقاء معه، وهو بجواري قال في حب:

- لا تسافري تكساس معهم يا إيفيت، ابقي معي أسبوعًا آخر، في القاهرة هذه المرة.

قلت في تردد: لكن بداية البعثة الجديدة بعد شهر من الآن، هناك أيضًا الكثير من التقارير عمّا تعلمته في الشهور الماضي...



وضع سبابته على فمي مقاطعًا:

- أرجوكِ يا إيفيت، اشعر أن روحي ستذهب وراءك للولايات وأبقى هنا شبه ميت، أسبوع واحد لن يضر أحدًا.. هززت رأسي بالموافقة ونظرت له في هيام..

طاقة رهيبة كانت تتملكني بصحبة هذا الشاب، رأيت حياة مُطَمْئِنَة داخل عينيه، فكرت أن يكون اختلاف الثقافات، أو الرغبة في اكتشاف الآخر، هو ما ولّد تلك المشاعر بداخلي، لكن منذ متى كانت مشاعر الإعجاب تُفسّر بهذه المصطلحات الضخمة، المشاعر تحتاج قلبًا يُحيها وليس عقلًا يفسرها، كنا متشابهين في أمور كثيرة - كما قلت لك - لكن أهمها أن الحب كان مسيطرًا على روحه.. مثلي.

سافرت إلى القاهرة مع طارق، إجازته الشهرية كانت ستبدأ بعد سفرنا بليلة فانتظرت في الفندق للسفر معه، أبلغت البروفيسور جيمس بعدم مرافقة البعثة في طريق العودة، لم يسألني عن السبب فهذا ليس من شأنه لكنه قال محذرًا «ابتعدي عن المشاكل يا إيفيت، الوضع هنا في مصر ليست كالولايات، سننتظرك بعد أسبوع»

- لا تقلق سيد جيمس، سأعود في الوقت المحدد.. بالطبع لم أعُد.

زرنا أماكن سياحية كثيرة بالقاهرة، برج القاهرة، خان الخليلي، المتحف المصري ومسجد عمرو بن العاص، كانت إقامتي في تلك الفترة بفندق مناسب بوسط البلد، كنت أستيقظ لمقابلة طارق ثم النوم لمقابلته مرة أخرى، أعيش معه حياة كاملة، ثم جاء اليوم الذي قالها لي داخل الهرم الأكبر، مررنا بنفق الهرم حتى وقفنا داخل حجرة الملك وحيدين..



«هل تقبلين الزواج مني يا إيفيت؟»

وافقت دون تردد، وافقت لأنني أحببته بصدق، ولأن المشاعر وافقت قبل مني، وافقت لأنه الوحيد الذي لم أشعر بالخوف معه في هذا المكان الضيق، الكلستروفوبيا لم تقوَ على مهاجمتي وأنا بين أحضانه في تلك اللحظة.

فهمت منه أن والديه وافقا على زواجه منّي بعد ضغط كبير منه، واشترطا تغيير ديانتي فأشهرت إسلامي..

يومها استيقظت قبل الشروق، لم أستطع النوم سوى ساعتين، فرحة تسبب خفقانًا مستمرًا للقلب، جسدي كان مضطربًا مثل عقلي، ليس بسبب خطوة تغيير الدِّين لكن لأنها أهم خطوات زواجي من طارق، كما قلت من قبل.. لم يكن الدين يمثل جانبًا روحيًا كبيرًا من حياتي، أو حتى تشغلني فكرة خلاص روحي من الشر، فالشرّ لم يكن بعيدًا عن حياتي، الشر كان أبي، والمجتمع هناك، الشر هو أذى الغير، وهو ما كنت أشاهده منذ نعومة أظفاري في المكسيك، أما أمريكا -مع الأسف- شُمعة المسلمين بها سيئة، يخافون منهم بعض الشيء، «الإسلاموفوبيا» كما يرددون، كان لي أصدقاء مسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية، وعملت شهورًا كثيرة في بلاد عربية، اكتشفت في النهاية أن الإسلام مثله مثل أي ديانة، يدين بها الصالح والطالح..

كانت ديانتي هي العقبة الأخيرة أمام اكتمال سعادتي بالزواج من طارق، ليكن ما يكون إذًا، ثم إن تغيير الدين ليس نهاية العالم، قد أبتعد عن الدين مرة أخرى مثل سابق، أو أعود للمسيحية كأيام الطفولة، أو حتى اليهودية، لم يشغلني الأمر كثيرًا.. كان طارق في انتظاري في بهو الفندق،



تلك المرة كان سعيدًا، والفرحة تطل من وجهه، أوقفنا تاكسي ثم توجهنا للأزهر الشريف..

الأمر استغرق عدة دقائق، هناك شيخ موكّل لاختبارك عن الإسلام، سألني عدة أسئلة عن سبب إسلامي، وعن بعض المعلومات السهلة عن الصلاة والحج، ثم لقّنني الشهادتين، قلتها بالعربية «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله»..

لا شيء، لم أشعر بأي شيء مطلقًا، منحني الشيخ شهادة تسمى شهادة الإشهار، لم أكن أعلم أن الأمر بهذه البساطة، أخبرت طارق بهذا، ضحك قائلًا: هذه تجربتي الأولى مثلك تمامًا في الأزهر، أنا لا أساعد صديقًا أو زوجة لإشهار إسلامه كل يوم..

ذهبنا لشقة والده لنحتفل، وجدت تورتة كبيرة الحجم وزينة في انتظاري، والدة طارق احتضنتني في أمومة حقيقية، اتصلت كذلك بأقاربهم في بلد أخرى لا أذكر اسمها، وأعطتني الهاتف لأتكلم، تكلمت معهم بطريقة (السلام عليكم، هاللو، هاو ار يو، ازيك) فقط، هذه الكلمات المشتركة بيننا ويردون عليها بكلمات كثيرة لا أدري معناها، الجيران كانوا يمرون للسلام في ود، ثم يذهب الجميع دون حتى أن أعرف اسمه، كان توحيد الدين هو بوابة المرور لقلب أسرة طارق، بل عائلته الكبيرة كذلك، هؤلاء اقتنعوا بأن ورقة إشهار إسلامي هي التي ستجعلني منهم، وان الكثير من التغيير السلس في حياتي سيتم، بعد حصولي علي هذه الورقة.

سألني والد طارق لكي يفتح حديثًا معي، عن طريق ولده الذي قام بالترجمة:



- زواجك من طارق سيكون قريبًا جدًا يا ابنتي، كنا نتمنى حضور أهلك، لكنني منذ هذه اللحظة مثل والدك، سكت برهة ثم أكمل في حنان: أتمنى أن يكون إسلامك صحيحًا يا ابنتي، يمنحك الاستقرار وليس إرهاق العقل.

- أتعشم ذلك يا اونكل.

كان الرجل يشعر بكل الحيرة التي بداخلي..

***

المشهد الرابع

لقد تزوجت من إيفيت! لا أحد كان يتصور ذلك، كنت أعتقد أن الزواج بعيد جدًا عني، فكرة بعيدة عن المنطق تمامًا بسبب ظروف الحياة وقلة المادة، فما بالك بالزواج من أجنبية، ليست عربية أو من بلاد إسلامية، كانت من المكسيك، البلاد البعيدة التي لا نعرف عنها شيئًا سوى قبعتهم الشهيرة وكامبوس حارس مرمى منتخبهم في التسعينيات، صحيح أنها مقيمة في أمريكا لكنها لاتينية، الشخصية والملامح والأفكار لاتينية.. لا أعرف ما الذي شدني لإيفيت، لقد وضعها القدر أمامي أكثر من مرة وكنت بطلًا أمامها مرتان، إيفيت ذات بشرة قمحية وأنا أفضل البيضاء، إيفيت طويلة وأنا أميل للفتاة القصيرة، تتكلم الإسبانية التي لا أعرف منها حرفًا، باختصار لم تكن - رغم جمالها - فتاة الأحلام بالنسبة لي، إيفيت كانت قدرًا جميلًا قادمًا من بلاد بعيدة، غيّر كل خططي في الحياة..



لماذا ترمقني بهذه النظرة المتشككة يا بافوميت؟ أنت لا تصدقني، أليس كذلك؟ ربما كانت فرصة لزواج مميز وقليل التكاليف، والدها الوزير، تبًا لك، أنت تعرف كل شيء..

قلت لك إن إيفيت اسلمت، صراحة كان لهذا أهمية كبيرة لديّ، ومفعول السحر مع أسرتي، أول سؤال لأمي بعد أن تكلمت عنها «هي هتسلم يا ابني ولا هتفضل كده» أما والدي فقد سأل في تهكم: «ولما تيجي تخرج معاك، هتمشي جنبك لابسة إيه».. الدِّين يمثل جزءًا كبيرًا من ثقافة هذا المجتمع، ويفرض عليه قيودًا كثيرة، لهذا كان إسلامها حلًّا للجميع..

الزواج لم تكن خطوة يسيرة أبدًا، والدي بالذات لم يباركه، صحيح أنه فرِحَ بإسلام إيفيت لكنه لم يكن متحمسًا لفكرة الزواج، كان يريد تكرار ما حدث معه منذ زمن، زوجة من أشمون تراعي شئوني دون تذمر، حينما عرضت عليه الأمر قال في لامبالاة «والله لو مصمم على الجوازة دي أنت بسم الله ماشاء الله عليك ظابط قدّ الدنيا، وتعرف تجوز نفسك، أنت طبعًا عايزني ابيع أرض البلد ونبغددك، بس يا ابني الأرض تتباع عشان واحدة من الأرض، مش من آخر الدنيا»

لم أعلق، وبدأت في اتخاذ خطوات عملية سريعة، أخذت قرضًا من البنك كي أشتري خاتم الزواج والأثاث، استأجرت شقة في شارع طومانباي بالزيتون، إيجار جديد لكن مدته خمس سنوات، وحجزت قاعة الزفاف بالزيتون أيضًا، كانت هدية من رجل أعمال شهير يمتلك ثلاث قاعات بحي الزيتون، معارف قديمة لكنها حلّت مشاكل هامة قبل الزواج، هذه فائدة أنني ضابط شرطة، في بلد الكل فيها مخالف



للقانون، لن تفلت بالطبع من العقاب، إلا إذا كنت من منفذي القانون، أو على الأقل تحت طوع من ينفذه..

الخطوة الأهم قبل الزفاف كانت موافقة وزارة الداخلية، يرى الاغلبية من ضباط الشرطة أنه تعسُّف من الوزارة وتدخل في أمور شخصية، أنا على العكس منهم أرى أن هذا من أهم حقوق الدولة عليك، لنكون صادقين، ضابط الشرطة، يشترك بسبب طبيعة عمله في تقاطعات مع أجهزة حساسة مثل المخابرات ورئاسة الجمهورية، هناك بعض الأسئلة التي يجب الإجابة عليها بأمن الدولة، قمت بسؤال ضباط أمن الدولة الذين اشتركت معهم في مأموريات سياسية من قبل، كان يجب معرفة ما أنا مقدم عليه، من الضروري أن يكون كلامك مرتبًا خاصة قبل دخولك مبنى مثل جهاز أمن الدولة..

كانت هذه هي المرة الأولى التي قابلت فيها العقيد -وقتها- صالح عيسي، قابلني في بشاشة، تلك البشاشة الصافية وليست البشاشة المفتعلة التي تهاديك بعدها خازوقا من حيث لا تدري، العقيد صالح رجل وقور له ملامح أكبر قليلًا من سنه الحقيقي، أشيب الشعر، يرتدي نظارة طبية، ذقنه حليقة وشاربه ضخم ومشذب بعناية، رجل يحمل ملامح وعاطفة الأبوة ناحية كل زملائه رغم قوة منصبه، إن كان في يده مساعدتك سيفعلها دون شك، دخلت مكتبه الفخم، السجاد السميك، رائحة البخور الهادئة، آية قرآنية من خلفه (ورحمتي وسعت كل شيء) حوض سمك صغير، غريب بعض الشيء بالنسبة لأمن الدولة، هذا الرجل له كاريزما خاصة، بدأت معه الحديث في شكل ودود قائلا: سعادتك أنا النقيب طارق رمّاح، وكنت مقدم طلب للموافقة على جوازي من أجنبية، مكسيكية تحديدًا.



- ودي عرفتها إمتى وازاي يا طارق؟

- بعثة هنا في مصر يا باشا، بعثة رسمية طبعًا تبع جامعتها، جامعة أوستن في تكساس وأسلمت كمان.. يعني حبينا بعض وكده سعادتك.

- ههههههه احكيلي احكيلي.

الأمر يحدث بشكل ودي بالطبع، لن تجبرك الوزارة على الزواج أو الانفصال عن شخص، لكنها اشبه بالتوصية بالقبول او الرفض، فتحت له قلبي وحكيت له تفاصيل الحكاية، في منتصف الحديث حكيت له عن قصة الآثار وموقف سليم الفرماوي لكنه لم يعلق، بالتأكيد سمع عن سليم ويعرف كل شيء، بعد انتهائي قال في رزانة: خلاص بسيطة يا باشا، هتتجوزوا، بس أنا ليّ سؤال واحد نقفل بيه الكلام، انت نفسك مش قلقان منها في حاجة؟ مهما اتكلمنا مع بعض هنا في المكتب مش هوصل لإحساسك انت بيها، إحنا بنحميك يا رمّاح فجاوبني بأمانة.

- وضحلي أكتر يا صالح باشا، قلقان منها بمعنى إيه، هاتها مباشرة من غير كسوف.

- مش قصدي حاجة معينة، ورقها قدامي سليم ١٠٠٪، بس هي كانت بتشتغل ومنصبها مش وحش وواضح انها بسم الله ما شاء جميلة وصغيرة في السن، هتتجوز واحد في آخر الدنيا بالنسبة لها ليه، انت أو غيرك، الحب ممكن يخليها تتنازل عن ده كله؟ انت شايف كده؟

كان يتحدث بشكل طبيعي، لا يلمح لشيء ما أو يضغط بالكلام لأقلق فعلًا، كان خائفا عليّ بالفعل، أجبته في بساطة:

- والله يا فندم أنا سألت نفسي برضو نفس السؤال، بس لقيت انها



إنسانة كانت بتدور على الاستقرار والأسرة، كان عندها مشاكل في البيت مع إنها بنت وزير أو حاجة كبيرة هناك تقريبًا.

– تمام، خلاص اديني اسبوع كده يا طارق وانا هكلمك، وألف مبروك مقدمًا يا سيدي.

– تسلملنا دايمًا يا معالي الباشا، ودايمًا واقف جنبنا على طول.

بعد أسبوع هاتفني ليخبرني بالموافقة، لا تستلم أوراق رسمية بالموافقة، لكن العرف هو موافقة أمن الدولة طالما هناك جنسية أجنبية بالموضوع، وإلا صرت أخفي شيئًا، طالما لا يوجد ما يدعو للخوف من أية جهة، فلمَ الخوف؟

كان زفافًا رائعًا، ليس أسطوريًا لكنه لن يُمحى من ذاكرة من حضره، والديّ متحفظان قليلًا، أما العائلة فكانت تنظر لإيفيت في (الكوشه) على أنها من العجائب، بعض الأطفال كانوا يأتون لمجرد التأكد من أنها حقيقية، أما أصدقاء شبرا فكانت نظرة الحسد واضحة في عيونهم.. هيثم الشاعر كان أكثر زملاء العمل حماسة، نظريًا لم يعد زميل عمل بعد أن ترك العمل بالشرطة ودرس الطيران المدني، كنت أتوقع هذا الأمر إن عاجلًا أو آجلًا، هيثم كان راغبًا في الانطلاق والحرية، وليس التقيد بضوابط وزارة الداخلية، حضر أمين الجزار والعصار بالطبع لكنهما انصرفا سريعًا بعد السلام..

كنت رائعًا يا بافوميت، مزهوًا بما حققته، ورأيت ذلك في عيون الجميع. كنت قد حسمت أمر العذرية مع إيفيت قبل الزواج.. إيفيت لم تكن عذراء، حدث ما حدث مع زميل لها في الجامعة، قالت إنها في تلك الفترة حاولت الانتحار أكثر من مرة بسبب خلافاتها مع والدها،



كانت تعيش في اليوم الواحد آلاف من المشاعر والأحاسيس، علاقة عاطفية مع مراهق لا تذكر حتى اسمه..

«أنا أكره الخيانة ولن أخونك يومًا ما يا طارق مهما حدث، أعلم ما يدور في عقلك، وسأعمل جاهدة على أن تثق بي حتى وفاتي، لا أحد يترك بلده وعمله وأصدقاءه من اجل شخص، إلا إذا كان يحبه حبًا حقيقيًا يا.. يا حبيبي»

المنطق تكلم معي يومها، فصدقته وكانت أجمل ليالي العمر..

* * *

الزواج هو الزواج في كل حالاته، تزوجت من مصرية أو أجنبية سيبقى الزواج زواجًا، بمشكلاته وملله ورسمه البياني المذبذب خاصة في سنواته الأولى، في البداية تعلمت اللغة الإنجليزية في كورسات بالجامعة الأمريكية، كلفني ذلك الكثير من النقود، لكنني كنت راغبًا في تحسين اللغة لأتكلم مع زوجتي بصورة طبيعية، إيفيت لم تكن تستخدم اللغة الإسبانية إلا في لحظات الغضب، غضبها بالطبع كان يختلف تمامًا عن الزوجة المصرية، إيفيت تغضب من سلوك المجتمع غالبًا وليس من أشخاص بعينهم..

بعد الزواج سافرنا إلى شرم الشيخ، أفضل مدينة تقضي بها شهر عسل مميزًا في مصر، رغم عملها بالصعيد وزيارتها القاهرة قبل الزواج، كانت شرم المدينةالتي خبلت لُب إيفيت، قضينا أسبوعًا هناك دون مقابل مادي يُذكَر، بعد ذلك عدت لعملي بالأقصر، التشغيل الشهري في الصعيد هو عشرون يومًا تقضيها إيفيت وحيدة، لهذا كان من الضروري



توطيد علاقة إيفيت مع والديّ أكثر، وساعدتني إيفيت على ذلك، كنا نزورهما في فترة وجودي بالقاهرة حوالي ثلاث أو أربع مرات، أترجم لهما ما تقوله، ساعدت والدتي في المطبخ، وعلّمتها بعض أكلات المطبخ المكسيكي، الذي أصابهابالغثيان -أمي وليس إيفيت بالطبع- أما والدي فكان يتكلم أغلب الوقت عن ظروف الحرب وكفاحه في السنوات الماضية، سألها عن والدها فأخبرته بمنصبه في المكسيك دون اهتمام..

على صعيد العمل، نسيت تمامًا ما حدث من العصار، أما سليم الفرماوي فترقى لرتبة اللواء، وبقي في منصب مدير المباحث لكن بمديرية أمن القليوبية، بعدها بعامين أحيل للتقاعد، عدت لنشاطي القديم في العمل مرة أخرى بعد ترقية الفرماوي وابتعاده عن الأقصر، حل قضايا ضخمة، القبض على كثير من الأشقياء، والصُلح في الخصومات الثأرية.. إلخ، للمرة الثانية كانت الحياة تضحك لي، ثم بانت نواغزها حينما دق جرس شقتنا، كنت جالسًا أشاهد التلفاز وأشرح لإيفيت ما يُعرض، فتحت وجدت عامل دليفري لهايبر شهير، غريبة، لم أطلب شيئًا..

- أستاذ طارق..

- أيوة..

- ٦٥ جنيه حضرتك.

- إيه ده، أنا ماطلبتش حاجة.

- ألف مبروك يا فندم، المدام حامل.. قالها وهو يفتح علبة حمراء من القطيفة بداخلها (دبدوب) صغير، ابتسمت عندما سمعت صوت زوجتي خلف أذني مباشرة تهمس في رقة بعربية مكسرة: «ألف مبروك يا حبيبي»

.



المشهد الخامس

بلدة نويفو لاريدو الحدودية

قصر المسيح

هناك حالة من التوتر تسري في أرجاء القصر، رجال بالملابس الرسمية تسير بخطوات سريعة، الخدم تهمس بشيء عن تحقيقات ستتم قريبًا مع صاحب القصر، لا توجد أنثى تتبختر شبه عارية أمام حمّام السباحة كعادة هذه القصور.. مهلًا، من الواضح أنك لم تسمع من قبل عن قصر المسيح، القصر مِلك السياسي المكسيكي الشهير «كوزمان ديلابينا»، يقع القصر على أطراف بلدة نويفو لاريدو الحدودية مع جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، كوزمان لا يشعر بالراحة في أي مكان إلا بهذا القصر، له بيوت في مكسيكو سيتي وفكتوريا عاصمة الولاية، لكن قصر المسيح هو الأهم بسبب نشأته في هذه البلدة، ساعد الجميع فيها، ويشعر سكانها أنه الأب الروحي لهم، كوزمان من أشهر رجال أعمال المكسيك وأشهر رجل في الولاية تقريبًا، يعمل وزيرًا للتجارة والصناعة إلى الآن لكن يبدو أن الأمور تتعقد..

لكي تعرف سبب تسمية القصر بهذا الاسم، تخيل أنك تراه من أعلى، ستجد أن المساحة الخضراء تشكّل حوالي ٨٠٪ من مساحته، سور بيضاوي الشكل ضخم يحيط بكل القصر، هناك طريقان طويلان ممهدان لسير السيارات، في نهاية طرفي كلا الطريقين، ستجد بوابة إلكترونية عملاقة من الفولاذ يحرسها خمسة رجال أشداء، الطريقان على شكل



صليب ضخم، يتقاطعان عند مبنى القصر.. المبنى نفسه مكوَّن من طابقين، يشبه في تصميمه قلاع العصور الوسطى، رغم بنائه الحديث نسبيًا في منتصف الثمانينات، ليس ضخمًا، أقرب إلى الفيلا لكن أُطلق عليه قصرًا بسبب المساحة الشاسعة من حوله، أما ربط القصر بالمسيح، فراجع لسقف المبنى، السقف عبارة عن تمثال ضخم من النحاس على هيئة المسيح وقت صلبه -حسب معتقدات الديانة المسيحية- مفرودًا يراه فقط من يشاهد القصر من أعلى، الطوق الشوكي الشهير على رأس المسيح مكتوبٌ عليه آيات من الإنجيل..

حجرة نوم كوزمان في الدور الأرضي على عكس المتعارف عليه، أسفل أنف المسيح مباشرة، يقول للمقربين إليه إنه اختارها بنفسه ليبقى يسوع حيًّا دائمًا فيه، سيبقى يسوع حيًّابالفعل لكن ديلابينا هو من اقترب من الموت، تضخم في عضلة القلب بسبب شراهته في التدخين لكنه لا يهتم بهذا كثيرًا، لم يكن حتى يعبأ ببعض الأخبار المسربة عن اتجاه بعض جهات الدولة للتحقيق في مخالفات مالية تخص شركاته..

أشعل كوزمان ديلابينا شمعدانًا بإحدى زوايا حجرة نومه، وجلس أمامه على كرسي ضخم مثبتًا نظره عليه، كان هذا هو الوقت اليومي للاسترخاء وقراءة الإنجيل، لم يكن راغبًا في الحديث مع أحد، لكن المحامي الخاص به استأذن للدخول، قال في صوت ضعيف:

- تفضل..

دلف المحامي بسرعة قائلًا في حماس:

- مساء الخير يا كوزمان، قمت ببيع نصيبنافي مصنع المنسوجات للأرجنتينين وغادروا القصر راضين تمامًا عن الصفقة، في الصباح



سأنتهي من التسوية القانونية مع مصلحة الضرائب.

- لا يهم ذلك الآن، قل لي، هل وصلت لمكان إيفيت؟

- سافرت في بعثة إلى صعيد مصر، لكنها لم تعد إلى الآن.

- لماذا؟ هل حاولت الانتحار مرة أخرى؟

- لا أعتقد، لكن سفارتنا هناك تقول إنها تزوجت من مصري لكن ليس لديهم العنوان، أعتقد يا كوزمان أن حياتها الآن مستقرة.

نظر إليه كوزمان والشرر يخرج من عينيه وصاح في غضب: طلبت منك أن أتواصل معها، أريد التواصل معها أيها الأحمق، لا تأتِ مرة ثانية دون معرفة طريقة لذلك، هل فهمت الآن؟

ارتبك الرجل ثم خرج مسرعًا، تاركًا كوزمان يفكر في ثروته، هل المال يشتري كل شيء، هناك إجابتان لهذا السؤال الأزلي، الإجابة الأولى هي نعم، المال يشتري كل شيء، الإجابة الثانية تأتي دومًا على لسان الأذكياء بالنفي، المال يشتري كل شيء فيما عدا الحب، كي نجيب على السؤال يجب أن نعرف ماهو الحب؟ الحب ليس شيئًا ماديًا نستطيع وزنه، الحب ليس فعلًا ورد فعل، الحب يختبئ داخل الضمير، داخل خلايا القلب، ينبض فتزيد لوعته أكثر، هل تستطيع معرفة قدر لوعة زوجتك عند مرضك مثلًا، أو ضيق حبيبتك عند ابتعادك عنها، رأيي الشخصي أن العامل الرئيسي لتحديد أهمية المال هو العمر، في الصِّغَر يعوّضك المال عن كل شيء، المال مع الشباب يصنعان كل ما تحتاجه، أما كهل مثل كوزمان فيحتاج الآن للحب.. فقط الحب.

نظر أمامه إلى صورة كبيرة تزيّن جدار الغرفة وقال في لوعة: «لكم أشتاق إليكِ يا إيفيت»



المشهد السادس

أنجبت لارا.. الحضارة الفرعونية اندمجت مع حضارة المايا اللاتينية، وقدمتا للبشرية كائنًا ملائكيًا تحب رؤيته، هل تصدق أن لارا تشعر بذاتها منذ الولادة؟ كأنها تعرف أن أصولها هي الأقدم في العالم، الكل كان سعيدا بهذا الضيف،والديّ بالطبع كانا أكثرنا سعادة، لارا تكبر يومًا بعد يوم امامنا والفرحة بها تزيد مع كل يوم، بإستثناء لحظات دعاء والدتي ب"يارب تخاويها بالولد اللي يشيل اسمك يا طارق يابني" لا أعلم هل هذا دعاء أم اعتراض على القدر، لكنه كان يصيبني بغصّة في قلبي، وأسأل نفسي بعده: هل تأثرت به أم أنني كنت راغب في مولود ذكر بالفعل؟ عامة لن أكون هارون الرشيد ليرث أولادي الخلافة من بعدي لأستقتل على الولد.. بعد فترة عرض والدي فكرة غريبة بعض الشيء عن تفكيرة المعتاد، بيع أرض البلد وشراء شقة لي، ودفع مقدم لسيارة، قال لي:"أسرتك هتكبر أكتر وأكتر إن شاء الله والمسؤليات هتزيد، وأرض البلد مفيش حد هيراعيهالك بعد أعمامك"

- ربنا يديلك الصحة وطول العمر أنت وهمّا يا بابا.

قلتها ثم وافقت بالطبع على فكرته، فبدأ عرضها للبيع..

عدت إلى القاهرة وتم توزيعي للعمل بمباحث قسم أول السادس من أكتوبر، المدينه الجديدة التي بدأت فيها أحلام صفوة المجتمع تكبر وتكبر، هناك عالم كامل داخل تلك المدينة، بل لا أبالغ إذا قلت أن كل (كومباوند) هو عالم مستقل بذاته،



المدينة الحديثة التي كانت تشهد في ذلك الوقت بدء بناء المولات الضخمة رحبت بي للعمل في قسمها الأمني.. كل قسم شرطة له بلاغات خاصة به والتي تميّزه عن غيره، مدينة السادس من أكتوبر في تلك الفترة اغلب بلاغاتها كانت سرقة البيوت، خاصة البيوت التي لا يتواجد أصحابها بشكل مستمر وسهل الهجوم عليها بسبب سفر أهلها أو عملهم داخل القاهرة..

الأقدمية جعلتني المعاون الأول للقسم أو أقدم معاوني مباحث القسم، والخبرة التي اكتسبتها من العمل بقسم الزيتون والأقصر جعلت رئيس مباحث القسم مجرد ديكور، ينقل مجهودي اليومي لمدير المباحث ويحصل هو على الثناء، كان قادمًا من مباحث النقل والمواصلات وضعيف الخبرة إلى حد الشفقة، لم أشعر بالضيق مطلقًا بسبب سرقته لمجهودي بسيف الحياء كما يقولون لأنني كنت مستفيدًا من ذلك، وقت الحضور، الانصراف، الإجازات، الصيت الحقيقي في الدائرة وليس في التليفونات، كلها أمور أهم من صورتي في المديرية، الميزة الثانية أنه كان شرِهًا لتكوين علاقات بدائرة القسم خارج نطاق العمل.. أصدقاء الشرطة، هل تعرفهم؟ تلك الفئة اللزجة من البشر التي ترغب في الجلوس معك طول الوقت، أنت تعرف أن المصلحة هي التي تحكم العلاقات بين البشر، خدمات مادية أو حتى معنوية، هذا مفهوم بالطبع، لكنك لن تفهم أبدًا سر سعادة الإنسان الذي يقطع من يومه وقتًا طويلًا ويقطع من كرامته جزءًا ضخمًا لمجرد أن يتباهى أمام الناس بكونه قريبًا من ضابط شرطة.. «أنا جنبي فلان بك، هسهر النهارده مع علان بك» جلسة يومية لزجة لا تغني ولا تسمن من جوع، كنت نجمًا عاليًا في أكتوبر كلها يا باقوميت، ولم أرد لهذا النجم أن يتسخ بأحاديث تافهة أو جلسات لن



تنفعني في شيء، كنت مميزًا بأفكاري وثقافتي عن باقي الضباط، مزهوًا بنفسي، مضيئًا كالشمس، لكن - على عكسها - غير راغب في إرسال نوري لأحد.

* * *

أبريل ٢٠٠٧

حياتي مازالت سعيدة كما هي.. صحيح أنها لم تفرز لي نجاحًا جديدًا، لكن بقاء الوضع في البيت والعمل مستقرًا كان في حد ذاته نجاحًا، إيفيت ولارا بخير، والداي بصحة معقولة، لا إخفاقات في القسم، صحيح أن الوضع المادي تدهور قليلًا بعد الزواج، لكنه لم ينهار بعد.. اضطررت للجوء لأبي، مبلغ مادي بسيط شهريًا لن يضره، حتى تتم بيعة الأرض، نقصت أسرته فردًا بعد زواجي، وزاد فردان على عاتقي..

الحياة مازالت رائعة، لكن تأتي الرياح دائمًا بما لا تشتهي السفن، هذه المرة كانت الرياح قادمة من بلاد بعيدة، رياح لها نكهة مختلفة، نكهة شواطئ الكاريبي، وخبز التاكو، وحضارة الإزتك.. رياح مكسيكية بنكهة كوزمان ديلابينا.. حماي..

عدت في ذلك اليوم إلى شقتي في الزيتون حوالي الواحدة صباحًا، كنت مجهدًا للغاية، مازالت إيفيت مستيقظة في غرفة الليفنج وأمامها اللاب توب، لارا نائمة على أحد الكراسي، هذا غريب، هممت بلومها على ترك الصغيرة نائمة بهذا الوضع، لكني لمحت حزنًا عميقًا على وجهها، يبدو أن والدي زارتنا وقامت (بالواجب) معها أو على الأقل ضايقتها في مكالمة هاتفية سريعة، سألتها وأنا واثق من الإجابة..



- إيفيت، هل أنتِ بخير؟

حركت رأسها يمينًا ويسارًا علامة على النفي، شعرت أنها على وشك البكاء..

- هل ضايقك أحد ما؟ هل تحدثتِ مع والدي اليوم؟

- لا لا، إنه والدي..

- والدي !! غريبة، ما الذي قاله والدي لك وأحزنك بهذا الشكل؟

- ليس (أونكل) حسين، إنه والدي أنا يا طارق، كوزمان ديلابينا

والدها! ظننت أن والدها هذا لن يتصل بنا أبدًا، هل عاتبها على الزواج دون علمه مثلا أم هو مريض، هل أخبرها أحد بوفاته؟ توجست لثوانٍ من الفكرة الأخيرة ثم طمأنت نفسي سريعًا، حتى لو مات ستحزن أيامًا قليلة، وأحاول أن أنسيها هذا الحزن، طالما أنه ليس قريبًا لن تتعقد الأمور مهما حدث.. «ما الذي حدث يا إيفيت، لا داعي لكل هذا الغموض» قلتها في صرامة بعض الشيء فأشارت إلى اللاب توب، كان مفتوحًا وعلى شاشته نافذة الدردشة الخاصة ببرنامج الياهو الشهير، لم يكن الفيس بوك منتشرًا في مصر مثل هذه الأيام، يبدو أن هناك من تواصل معها على البرنامج وتريد مني قراءة المكتوب في الرسالة، جلست بجوارها وحاولت القراءة، الإيميل كان باسم (قصر المسيح) باللغة الإنجليزية بالطبع، لكن الدردشة نفسها كانت بالإسبانية، عرفت هذا من شكل الكتابة، لا أعرف من الإسبانية سوى كلمات بسيطة جدًا تعلمتها من إيفيت في بداية الزواج، لكنها لا ترقى لترجمة الكلمات المكتوبة، كان الفضول قد تملكني بدلًا من الإرهاق، نظرت إليها طالبًا



المساعدة فبدأت القراءة بالإنجليزية بصوت هادئ دون أن تتحرك في جلستها كي لا تزعج لارا..

« الغالية إيفيت..

بحثت عنك يا صغيرتي، أين أنت؟ برامج التواصل الإلكترونية هذه غريبة عليّ، مرت سنوات بعد سفرك الأخير يا جميلتي، ألم يئن الوقت الذي تهتمين فيه بالسؤال عن والدك، صرت رجلًا ينتظر ابنته كل الوقت ويبحث عنها في كل شيء، في القصر، في شمعدان غرفتي، في الطعام الذي تحبينه، كل شيء يا إيفيت، كنت واثقًا أنني سأصل إليك وستقرئي كلامي هذا بلا شك، الجميع هنا يسأل عنك؛أصدقاؤك القدامى ومربيتك ماريان، هل تذكرينها؟ صرت كهلًا يا إيفيت، كوزمان لم يعد يريد الحرب ولا إظهار قسوته للجميع، صرت زاهدًا في كل شيء، أرغب فقط في عودة ابنتي لديارها لتمنحني القبلة الأخيرة، فهل سترفضين طلب والدك، لا أظن، فاسمك بالتركية يعني القبول، مهما تمردتِ على العلاقة بيننا، مهما كانت طيبة الحبيب أو الزوج، أظن أنك تحتاجين قُبلتي وذراعيّ كي تحنوا عليك مثل الماضي.. المسيح يرسل إليك بكلمات من هنا لعلها تهدئ من غضبك، قبل موت المحارب العجوز على سريره تأتي إليه خواطر كثيرة، لم يكن هناك داع لكل هذا فكلنا أبناء آدم وحواء (إيف) يا.. يا إيف، هكذا كنت أدللك في الماضي، في انتظار الرد.

الطامع في رحمتك/ كوزمان ديلابينا

نظرت إلى إيفيت نظرة طويلة، عيناها كانتا تبكيان دون صوت ولا دموع، بكاء صامت يفطر القلوب، قالت لي من قبل في الأقصر أن طبيعة الحياة في المكسيك لم تناسب طموحها فرحلت



للولايات المتحدة الأمريكية للدراسة هناك، لكن خطاب والدها الإلكتروني يشير إلى اكثر من ذلك، هناك خصام بين إيفيت وكوزمان، خصام ضخم بالتأكيد..

- لماذا يسمي نفسه باسم (قصر المسيح).

أجابت كمن أفاق لتوه من غيبوبة: إنه اسم القصر الذي يعيش فيه، قصرنا في المكسيك.

- ولماذا لم تردي عليه؟

- أردت أن تعرف أولًا وأستشيرك في الرد، ما رأيك؟

- هذه علاقتك بوالدك، أعتقد أن عودة الأمور لشكلها الطبيعي بينكما يفرحني، من الواضح أن والدك يرغب في سماع كلمة طيبة منك بأيامه الأخيرة، فلتقوليها إذًا، هو يبعد عنك آلاف الكيلومترات وله حياته، لا داعي أن يموت بهذا الشكل.

- لكنك لا تعرف ما الذي فعله بنا، لقد تسبَّب في وفاة والدتي بسبب..

هنا لم تكمل جملتها وانفجرت في البكاء، طبطبت على ظهرها فقامت من مقعدها وحملت لارا لغرفة النوم مسرعة، فضلت الابتعاد عنها في ذلك الوقت والنوم في الليفنج للغد، نحن العرب لن نفهم هذه الطبيعة المختلفة للأجانب أبدًا، حينما تقوى هي على هدم جدار الماضي داخلها ستتكلم..

جاء الغد ومن بعده غدٌ ثانٍ، يومان وإيفيت مازالت صامتة تمامًا، يبدو أن جدار الماضي واصلٌ إلى عنان السماء، صممت ألّا أسألها إذا لم تحكِ هي بكامل إرادتها، بعد فترة بدأنا نتكلم بشكل خفيف، حتى



جاءت الليلة الخامسة ووجدتها تنقل لارا لغرفة نوم الأطفال وتناديني من غرفة النوم الرئيسية، كانت جالسة على طرف السرير بشكل مثير، ترتدي قميص نوم قصيرًا وتضع أحمر شفاه، شعرها ينسدل على منكبيها في سلاسة، إيفيت جميلة وكانت جميلة يومها بشكل لا يصدق كأنها.. كأنها حواء

المرأة حين تتزين للرجل بعد صراع طويل بداخلها فهي تحتاج أن وقوفه معها وليس مناقشتها، لم أقاوم كثيرًا، اقتربت وجلست بجوارها، فداعبت خدي وقالت في دلالٍ:

– لماذا تركتني الليالي الماضية؟ كنت أشعر بمعاناتها فلم أدخل في نقاش طويل وبدأت الشهوة تغلب هذا الموقف الرومانسي.. نحن العرب لن نفهم الطبيعة المختلفة للأجانب أبدًا، خاصة ونحن فوق الأسرّة معهم..

بعد أن مارسنا الحب بدأت تتكلم:

– أحبك يا طارق ولا أخشى النقاش معك وهذا يجعلني أحبك أكثر، خلافي مع والدي بدأ منذ وعيي للدنيا، فهمت منذ الصغر أنه كان طول الوقت يعمل، مرهق من العمل، مسافر لإتمام عمل، يخطط في وقت فراغه لمشاريع العمل، والدتي لم تحتمل، حاولت الانتحار وتم إنقاذها، أدمنت الخمر وماتت في سن صغيرة، أدخلني والدي مصحة نفسية بعدها ومنها لمدرسة داخلية، كنت أكرهه، خرجت من المدرسة وبداخلي كره شديد بدأ صوتها يتهدج قليلًا وأكملت:

بعد أن أحببتك صرت لا أكره أحدًا، لم أعد أكره والدي لكنني خائفة من القرب منه في نفس الوقت، هل تفهمني؟



- أفهمك يا إيفيت، أفهمك ورأيي لم يتغير، والدك في سن كبيرة جدًّا الآن على ما أظن، ويحتاج إلى كلمة طيبة منك

نظرت لي في امتنان وقالت: اشعر أن أمور حياتي كلها تحسنت منذ لقائك، شكرًا يا حبيبي.

- لا تشكريني يا جميلتي، ودعينا نتفق ألّا تختبري مشاعري تجاهك مرة ثانية، الحب بيننا ليس محلًا للنقاش يا إيفيت، هو واقع نعيشه بالفعل، ولكي نستفيد من هذا الواقع ونشعر بقيمته يجب أن نحل مشاكلنا بشكل أبسط وأسرع، هل تفهمينني؟

ضمتني في حنان إلى صدرها وضحكت..

- سأتحدث إليه غدًا وأحاول التفاهم معه بشأن رؤيته، ما رأيك في تسجيل سي دي مصور له أو حتى شريط فيديو، ما رأيك؟

- افكار رائعة.

في اليوم التالي نفّذت إيفيت ما اتفقنا عليه، تكلمت مع والدها ونقلت لي ما دار بينهما بعد العمل، لقد أصيب بمرض عضال في القلب بسبب تدخينه بشراهة.

- يجب أن نزوره يا طارق، أشعر أنه على وشك الموت ويحتاجني بشدة.

- هل أخبرتِه بزواجنا؟

- بالطبع.

- وماذا كان رد فعله؟



- والدي ليس من حقه اختيار شريك حياتي لكن عامة رحّب بالموضوع، لكنه رحّب بلارا أكثر هههههه، ها، مارأيك في زيارته؟

- ننتظر إجازتي السنوية ووقتها نقرر، الفيزا وموافقة الوزارة على سفري المكسيك لن تكون سهلة، المكسيك ليست من البلاد المعتاد السفر إليها.

قالت في بهجة: أمريكا يا طارق، سنسافر إلى الولايات المتحدة.

- أمريكا؟ قلتِ إن والدك يعيش في المكسيك.

- بعد أن عرف بزواجي صمم على زيارتك لأمريكا، تكساس، هو يعرف حبي لها ومدى ضيقي من القصر، ثم إن تكساس قريبة جدًا لن تكون رحلة شاقة بالنسبة له.

ابتسمت، صراحة لم أكن متحمسًا للسفر إلى المكسيك، بلد فقيرة، هذه فكرتي عنها، كنت راغبًا في السفر لبلاد جديدة، أخذت تلف في الصالة في رشاقة وهي تغني أغنية إسبانية لها لحن مميز لكني لا أعرف اسمها.. إيفيت ليست الشخص الذي يسعى للخلاف مع أحد، ما بالك بوالدها، كأنها كانت تنتظر الفرصة للسؤال عنه ومعرفة أخباره، إيفيت طفلة كبيرة، تبحث عن الاستقرار النفسي طوال الوقت ولم تجده إلا بعد غربة طويلة، تبحث عن الحب وتموت لو فقدته، إيفيت جميلة الروح وليس الشكل فقط...

بعد شهر تقريبًا بدأت في إجراءات السفر، أهمها بالنسبة لضباط الشرطة هو إذن السفر، كارت أصفر كبير مدوّن عليه موافقة الوزارة على سفرك، لا داعي لشرح هذه الأمور مرة أخرى ، كانت هذه هي الزيارة الثانية للعقيد صالح عيسى.



المشهد السابع

مدينة سان أنطونيو، جنوب تكساس

الولايات المتحدة الأمريكية.. أرض الأحلام يا بافوميت، لقد تربى جيلي أن أمريكا هي أرض الأحلام، ذلك الوصف الناقص لهذه الدولة، الوصف الذي يجعلك تسرح في تلك الأحلام، ثم تسأل نفسك بعد أن راحت السكرة، ما هي الأحلام التي تحققها لك أمريكا؟ هل هي الأحلام المادية فقط، هل هي أحلام عاطفية؟ إذا كانت أحلامك هي المال أو الجنس فأنصحك ألا تأتي هنا، تلك أمور سهلة المنال وموجودة بكل ركن في العالم، أما إذا كانت أحلامك هي التسكع مع فتاة رقيقة تحبها، أمام بائع البرجر والتزحلق على الجليد بعدها، في هذه الحالة أنصحك أيضًا ألا تأتي هنا.. هنا عالم قاسٍ يا فتى، على أرضه صراعات فقط، إذا كنت قادرًا ستصل وتحيا وتلمع كذلك، أما إذا كنت ضعيفًا أو عديم الموهبة ستموت غير مأسوف عليك، سوى من العالم الذي جئت منه، إذا كان لنا أن نكمل الوصف فعلينا أن نقول إن أمريكا هي أرض الأحلام التي تنقلب على صاحبها، أمريكا أرضي وأرضك يا بافوميت.

وصلنا إلى مطار سان انطونيو بعد رحلة طويلة ومنه إلى فندق (ريفر ووك بلازا) بنفس المدينة، مدينة سان أنطونيو كانت في جنوب تكساس، اختارها كوزمان بنفسه لقربها الشديد من المكسيك، الجو كان جميلا، كانت إيفيت هي دليل الرحلة بالطبع، هذه المدن عاشت بها لسنوات ليست قليلة، كانت سعيدة تشعر بضحكات الدنيا لها ومعها لارا، الابتسامة لا تفارق شفاها، لارا لا تعي شيئًا سوى أنها ستقابل (جدو) هنا، هناك (جدو) حسين في مصر، و (جدو) هنا سيشتري لها ما تريد



من ألعاب مثل الأول، وجدنا ليموزين تابعة للفندق في انتظارنا أمام بوابة المطار، لقد قام السيد كوزمان - مشكورًا - بالتكفل بكل النفقات، تذاكر السفر، حجز الفندق والإقامة بشكل كامل، جدول الرحلة الذي أعدته ايفيت، كان مسئولًا عن حجز كل شيء به، المزارات السياحية، متحف ويتي، المسرح.. إلخ، ترتيب الرحلة، هذه الرحلة ستجدد خلايا روحي بالكامل حتى أصل رتبة اللواء على الأقل، هكذا اعتقدت.. وصلنا الفندق، تحفة معمارية بالفعل، ناهيك عما بداخله؛ الإمكانيات، الاستقبال، ممشى على نهر صناعي، البهو الفخم الذي يجعلك تفكر في الإقامة به وتنسى حجرتك.. هي أرض الأحلام بالنسبة لي، رفضت إيفيت استقلال المصعد، رغم وجود الغرفة بالطابق الخامس، رغم مرضه، لم ينسَ كوزمان ديلابينا «كلستروفوبيا» ابنته عند الحجز، رقم الغرفة كان ٤٣، لن أنسى هذا الرقم ما حييت..وضعنا الحقائب فحضنتني إيفيت على حين غرة، فهمست لها في حب «أحبك وأحب أيامي معك، هذه رحلة العمر، ستعيش بداخلنا يا عمري، والدك هذا لا يعلم كم أحبه» سمعت ضحكتها وهي داخل حضني ولم أرَ وجهها، هاتف الغرفة يرن، انتبهت وخرجت هي من حضني للرد..

«هاللو، أبي، يا لها من مفاجأة، شكرًا لك أيها العجوز القوي، بالطبع أعجبني أنا وطارق، ههههه «ثم التفتت إلينا وهتفت»: لارا تعالي لتسمعي صوت جدك، قولي له، أنا مشتاقة إليك يا جدو »

كررت الصغيرة ما سمعته بطريقتها الطفولية، بعد إنتهاء المكالمة، وضعت إيفيت السماعة ونظرت لي بابتسامتها المعهودة قائلة: لن يستطيع مقابلتنا اليوم، سيحضر في طائرة الصباح، لنبدأ برنامج الرحلة، ما رأيك، هل تود الخروج اليوم أنا وأنت فقط أم نبقى في الفندق حتى الصباح؟



قلت محاولا أن أبدو منطقيًا: دعينا نصبر حتى الليل، نرتاح قليلًا ثم نرى، استكشاف الفندق ليس بالأمر السيء كذلك.

* * *

المشهد الثامن

بهو فندق ريفر ووك بلازا

الرابعة صباحًا

لا يوجد مكان على سطح الأرض في هذا التوقيت إلا ويصاب بالكسل، البيوت، المحال التجارية الضخمة، وحتى أقسام الشرطة، الفنادق كذلك لم تكن استثناء من هذه القاعدة، على مدار اليوم هناك حركة، كلام مع النزلاء، انفعالات متباينة من فرحة الوصول وحزن المغادرة، ثم يخبو كل هذا تدريجيًا في الساعات الأولى من اليوم الجديد، كل المشاكل لها حلول في الصباح لكن ليس الآن.. فندق ريفر ووك لم يختلف وضعه كثيرًا عن باقي الفنادق، هناك عاملان نظافة يقومان بتنظيف الأرضية بالقرب من قاعة الطعام، موظفة الاستقبال الحسناء تضحك في بلاهة وهي تسمع أغاني الراب من السماعات الداخلية بصوت خفيض، يوجد رجل زنجي مخمور جالسًا في البهو يحاول أن يبدو متماسكًا دون جدوى، وأخيرًا حارس الفندق منتبهٌ في الخارج- تقريبًا الوحيد في الفندق - عيناه على السيارات القليلة التي تمر من أمامه منآنٍلآخر، الليلةكانت هادئة مثل سابقاتها، هادئة لدرجة أن الحارس لم يتوقع ما حدث.. سيارة فان ضخمة زرقاء اللون وقفت أمامه ونزل منها السائق حاملًا مدفع آليصغير الحجم، فتح باب السيارة (الجرار)



في لامبالاة، فخرج منها ستة رجال يحملون نفس نوع السلاح، يرتدون سراويل الجينز، والتيشيرتات الضيقة لإظهار عضلاتهم رغم برودة الطقس، وأحذية من الكاوتشوك.. كانوا ضخام الجثة، صُلع الرؤوس، كل سنتي من أجسادهم به وشم، أسنانهم نخرة - رغم صغر السن - من تأثير الكحول والدخان بمختلف أنواع، على وجوههم الملامح اللاتينية المعروفة، تلك اللاتينية النقية التي تراها في منتخبات شيلي والاكوادور لكرة القدم، باختصار هؤلاء شلّة من البلطجية -على أقل تقدير -إن لم يكونوا قتلة مأجورين.. دلف الستة إلى الفندق تاركين للسائق مهمة التعامل مع الحارس الذي لازال غير مستوعبٍ، من الغباء أصلًا أن يتكلم حارس فندق معهم ناهيك عن قتالهم، هو مجرد حارس اكبر إنجازاته كانت ضرب عاطل حاول سرقة الفندق، لكن ليس هؤلاء..

وقف ثلاثة منهم في بهو الفندق ونظر زعيمهم إلى الجميع في تحدٍّ للحظات، ثبت الزعيم نظره على موظفة الاستقبال وقال بصوت يشبه الجحيم: «هذه ليلة هادئة أيتها الحسناء، إذا صفعك أحدهم الآن على وجهك فلا تعكري هذا الهدوء بالصراخ والعويل، الصمت أفضل لكِ وقتها، أما إذا لم تستطيعي الصمت -وهذا حقك-فسأضطر للتدخل آسفًا»

اقترب منها بشكل كبير حتى صار «كاونتر» الاستقبال هو الفاصل بينهما ورفع يده في حركة مفاجئة وصفعها على وجهها.. ظلت صامتة بالطبع والدموع تملأ عينيها، لم يحرك أحدٌ ساكنا في البهو كله، هنا التفت للجميع وهتف بصوت عالٍ: «كما ترون، إنها ليلة هادئة».

أمّا الثلاثة الباقون فاستقلوا المصعد، بعد سيطرة الزعيم ومساعديه

على الوضع بالأسفل، ضغط أحدهم على رقم ٥، هناك غرفة يستهدفونها في هذا الطابق، الأمر ليس عشوائيًا بالتأكيد، نظر في الطابق ثم أشار إليهم ناحية الغرفة رقم ٤٣، صرت الآن تعرف وجهة هؤلاء دون شك، هناك أسرة صغيرة قادمة من الشرق الأوسط تقبع بهذه الغرفة، وتنتظر في الصباح برنامجًا سياحيًا مثيرًا لمدة أسبوع.. مع الأسف، لقد بدأ البرنامج قبل أوانه ببضع ساعات.

بضربة واحدة فتح أضخمهم الباب، كانت إيفيت أول من استيقظ، صرخت بالإسبانية

في رعب « ماذا تريدون؟ طاااارق» تحرك الثلاثة بإحترافية في وقت واحد، فعاجلها أحدهم بضربة قوية بكعب السلاح على وجهها، ثم ضربة ثانية من أضخمهم على رأس طارق الذي لم يستوعب، لم يفقد الزوجان وعيهما من الضربتين، أما الثالث فحمل لارا وهي تبكي بكاء موجع ورش (سبراي) بكمية بسيطة على وجهها.. كانت لحظات مرعبة وقاسية، لكن أشدها رعبًا عندما زحفت إيفيت على أرض الغرفة تحاول الوصول لقدم الممسك بابنتها.. لاراااااا.. هنا عاجلها أحدهم بضربة ثانية، هذه المرة فقدت الوعي، أما طارق فكان يحاول مقاومة الرجلين وهو يكرر نفس سؤال زوجته لكن بالإنجليزية:

«ماذا تريدون، خذوا ما معنا من المال واتركونا في سلام»

باغته أضخمهم من الخلف وألصق بلاستر على فمه، فسكن مستسلمًا إلا من أنفاس سريعة ونظرات تجمع بين العجز والألم والتساؤل، لماذا يحدث كل هذا؟، صحيح أنه يشاهد في أفلام هوليوود أسوأ من هذا مئات المرات، لكنه لم يتخيل تلك البداية في أول ليلة له بأمريكا، رش



الرجال (سبراي) مخدر على وجه الزوجين، كي يبقى الثلاثة فترة طويلة في سبات عميق، وأعادوا بعض أغراض الأسرة للحقائب مرة أخرى، هذا غريب، كأنهم يقومون بدور الأم قبل سفر أبنائها في رحلة، لا يوجد لصوص مهما كانت درجة حفاظهم على خصوصيتك، تجمع ملابسك وجواز سفرك أثناء خطفك..

اتجه ثلاثتهم نحو المصعد، حاملين أسرة طارق الصغيرة على أكتافهم، والحقائب بأيديهم، هذه من المرات النادرة التي سترى بها إيفيت داخل مصعد، بالتأكيد ستفقد وعيها مرة ثانية إذا ما فاقت ووجدت نفسها بداخله.. وصلوا إلى البهو ليجدوا الزعيم ومساعديه قد قاموا بمهمة أخرى، نزعوا كل كاميرات المدخل وحبسوا الجميع في غرفة واحدة..

كان السائق في انتظار هذه الجبال المتحركة في لامبالاة خارج الفندق فاتحًا باب السيارة.. بعد أن استقر الجميع بالداخل انطلق بها مسرعًا نحو المجهول، غالبًا كانت هذه أسهل عملياتهم القذرة.



الترنيمة الثالثة

أنت مجرد حيوان لا إنسان فأشبع رغبتك الحيوانية كلما استطعت



المشهد الأول

ولاية تاماوليباس، أقصى شمال المكسيك

قصر المسيح

ألم رهيب كان منتشراً بجسدي كله، هل جربت ذلك الألم الذي يجعلك راغبًا في الصراخ كالمجانين من قبل؟ ألم صارخ كان يدق رأسي بشكل مستمر ويكشف عن حقيقة مفزعة، هذا الألم لن ينتهي في القريب، سيستمر غالبًا حتى يقتلني، حاولت فتح عينيّ فوجدت ظلامًا، أدركت بعد لحظات أن هناك عصابة مشدودة عليهما، غالبًا كان هذا سبب الصداع، حاولت تحريك جسدي فزادت المعاناة.. بعد فترة -لم تهدأ فيها رأسي- بدأت في تكوين تصور بسيط عن وضعي، كان جسدي مقيدًا بالحبال في عمود رخامي، سبّب رعشة سرَت في ظهري كالثلج، لم أكن أرتدي شيئًا سوى سروال البيجاما، حتى قدماي تم خلع الحذاء منهما، كنت أشعر بتورم شفتيّ من أثر ضربات البلطجية في الفندق، وهناك بلل حول شفتيّ، غالبًا كان ريقي، البلاستر لم يعد موجودًا، خدي كان.... إيفيت؟ أين إيفيت ولارا؟ صرخت بصوت عالٍ: لارا!!!!!، إيفيييييت، دقائق مرت كالسنين ولم يأتني رد، حالة فزع آلمتني نفسيًا بجانب الوجع الذي يفتك بي، توقعت أن أغيب عن الوعي مرة ثانية.. هذه ليست رواية أمريكية سخيفة بالتأكيد، بعد حوالي ربع ساعة مرّت كالدهر سمعت صوت باب يُفتح من الناحية اليسرى وبعده صوت أحذية كثيرة..

أحدهم أزال العصابة من على عينيّ، هناك زغللة لكنني كنت أرى، أول من وقعت عليه عيناي كان إيفيت، زوجتي الحبيبة كانت تبكي،



خدّها متورّمٌ وهناك (زرقان) حول عينيها، كانت واقفة على قدميها والأهم أنها ليست مقيدة مثلي، الحزن يملأ ملامحها لكنها حرة، ثم رأيت مجموعة من الرجال، كانوا غالبًا من هاجمونا في الفندق أو من نفس ذلك النوع المتوحش، الرؤية تتضح أكثر، هناك رجل في بداية العقد السابع من العمر، خمري البشرة، أصلع الرأس تمامًا، وله شارب رفيع وذقن مدببة حليقة، عينان سوداوان غائرتان لأقصى درجة ولا تحملان أية مشاعر، عينان تشبهان عيون تماثيل الشياطين في العصور الوسطى، يرتدي حلة بيضاء ذات ياقة بُنية اللون من القطيفة، تبدو باهظة الثمن، وحذاءً بنفس لون الياقة من القطيفة أيضًا عليه نقش غريب الشكل من الأمام، علامة تجارية غالبًا لكنني لم أشاهدها من قبل، جسمه متناسق، أقرب للطول، حوالي ١٧٥ سم ووزنه زائد قليلًا بمنطقة البطن، لكنها زيادة ليست ملفتة، توقعت أن هذا العجوز هو من يدفع لتلك الشاحنات من حوله.. قلت في وهن شديد بالإنجليزية: من أنت؟ وماذا تريد؟

يقولون إن العيون هي مرآة الروح، نعرف منها ما يدور بداخل نفوس الآخرين، الحب، العشق، الكره، الشهوة.. إلخ، هذا الرجل لن تستطيع معرفة ما بروحه أبدًا من عينيه، وعندما تكلم لم تتغير الأمور كثيرًا، بل على العكس تعقّدت، بسبب التناقض بين هيئته والصوت الصادر منه، صوته يشبه مقدم فقرات السيرك أو المسرح، ذلك الصوت الرفيع السريع الذي تشعر أنه يلحن الكلام، فيسرع تارة ويبطئ تارة أخرى من أجل الاستعراض، تذكرت (عم عيد) الذي كان يغري أهل قريتنا في أشمون بدخول المولد، لا أدري وجه الشبه بين الرجلين، لكنني تذكرته، قال:

- سيد رمّاح، أنت رجل يندر وجوده بهذا الزمن، مصري يتزوج من مكسيكية وينجب منها من أجل الحب، الحب فقط،



صدقني هذا شيء نادر الوجود، جرأة تحسد عليها، أجِبني، هل تزوجت ابنتي من أجل الحب؟

كنت أستمع إليه دون تركيز، تائهًا بسبب التفكير في طريقة إحضارنا لهذا المكان، أكمل الرجل قائلًا:

- لا يهم، المهم أن ايفيت تزوجتك عن حب، المسيح يقول عن الزواج، ماجمعه الله لا يفرقه إنسان، للأسف يابني سأكسر هذه القاعدة معك، فمن جمعك بها الله هذه المرة روح فاسدة خبيثة، هربت من والدها عدة مرات وجلبت له العار..ها، ألم تعرفني بعد؟

لم أرد، لكني عرفته بالطبع، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها حماي، كوزمان ديلابينا.. اقترب مني وجعل وجهه في مواجهة عينيّ مباشرة وقال في بطء بصوت كالفحيح:

- أنا من يعدّل كلام المسيح.

ابتسم في فخر عندما رأى القلق ظاهرًا على ملامحي بسبب فُجر حديثه، كان يتحرك للأمام والخلف بشكل مستمر مشبكًا يديه خلف ظهره، وقال بنفس النبرة الاستعراضية:

- طفلتي الجميلة إيفيت أخفت عنك الكثير، هذا واضح، بعد أن أقنعتها بمرضي طلبت مني ألّا اخبرك بحقيقة تجارتي في المخدرات، تخيل يا سيد طارق أن ابنتي تكره منصب أبيها، تكره تجارته، تكره أسلوبه، والأدهى أنها تكره قصري، قصر المسيح، هل تتخيل هذا؟ قل لي بالله عليك، هل الأفضل للإنسان أن يكون مهمشًا في عمل صالح، أم إمبراطورًا في الشر؟ كوزمان يهابه الجميع، والدها لديه المال والنفوذ، إذا



كان المسيح قد أتى للبشرية بسماحته وتقبله للجميع حتى ملك قلوبهم، فإن كوزمان ديلابينا هو مخلصهم الحقيقي من الآلام، انظر لمن يعيشون حولنا، الآلام تنهش عقولهم وتلهب أرواحهم، ضغوط الحياة تحولهم من حالة لأخرى، من السعادة لليأس، من الاستقرار الأسري للانتحار، هنا يظهر ديلابينا ليهدئ من روعهم ويطمئنهم بأن المخدرات ليست أسوأ مما هربتم منه..

لم أهتم كثيرًا بكلامه أو فلسفته في الحياة، كانت مشاعري ترتجف، روحي مشتته بين أمورٍ كثيرة أفكر بها، نظرت لإيفيت فوجدتها قد توقفت عن البكاء ولا تنظر ناحيتي، لماذا يا إيفيت؟ لقد طلبت منك مصارحتي بكل شيء، فصارحتيني بكل شيء وأخفيتِ أهم شيء، والدك يتاجر في المخدرات، ومن الواضح أنه أسطورة هنا في هذا المكسيك، لماذا دمرتِ حياتنا يا إيفيت؟ أعرف أنكِ رفضتي هذا العالم وهربتِ منه لأمريكا لكنك لم تتركي لي حرية الاختيار، المهم الآن أن أعرف مصيري مع هذا المجنون، عدت لواقعي وقلت في صوت مسموع بالعربية كي لا يفهم أحد كلامنا:

- أين نحن يا إيفيت؟ وأين لارا؟

ردت بالعربية هي الأخرى في اقتضاب دون النظر ناحيتي: نحن في القصر، لارا نائمة بحجرة نومي بالأعلى، لا تقلق، إنها بخير.

- كيف أتينا لهنا؟ من أمريكا للمكسيك هكذا بكل بساطة؟

- أنت في أقصى شمال المكسيك الآن يا طارق، والدي له سيطرة على مساحات شاسعة من الحدود المكسيكية الأمريكية، إحضارنا لهنا من أسهل الأمور بالنسبة له.



- أسهل الأمور بالنسبة إليه، تاجر مخدرات عظيم بالفعل، من أين أتيتِ بهذه القسوة يا إيفيت؟ لقد عاملتك بكل الحب في مصر، فلما أخفيتِ عني هذا القبح؟

- اصمت يا طارق أنت لا تعرف شيئًا، بحق كل الأديان اصمت، أرجوك.

جلست على الأرض وسندت ظهرها للحائط في انهيار..

قلت في يأس: سيد كوزمان، ما الذي تريده منا؟

أجاب في هدوء لا يتناسب مع فجاجة المشهد:

- صدقني يا طارق، كل حرف أرسلته إليها كان نابعًا من أعماقي، لم أكذب في شيء، إيفيت قطعة مني وأحتاجها بجواري قبل أن أموت، لم يكن حظي جيدًا مع النساء طيلة حياتي، فصارت لديّ كل شيء، بعد أن وفرت لها حياة مستقرة في الولايات كما أرادت، نسيت كوزمان، هذه العاقة هربت ولم تتصل بي لسنوات، حاولت إحضارها من أوستن فحاولت الانتحار، في البداية لم أكن أعرف بوجودك في حياة إيفيت، عرفت من الجامعة أنها في بعثة للشرق الأوسط، وصلت إلى إيميلها وعرفت أنها تزوجت وأنجبت الجميلة لارا.. من الواضح أن الحب الآن روحها الصلبة، قالت إنها لن تأتي إلى المكسيك بدونك للأسف، كنت راغبًا في قدوم ابنتي وحفيدتي من مصر إلى المكسيك مباشرة، أنت لم تكن في حساباتي وبسببك تم تغيير الخطة، وكلفت هؤلاء الرجال عناء ليلة طويلة لإحضاركم إلى هنا..

- سيد كوزمان، أنا لم أخطئ في حقك البتة، لقدأخبرتني ابنتك أنها



على خلاف معك اضطرها للإقامة في تكساس، كنت ستقابلها اليوم في سان أنطونيو وتعاتبها كيف تشاء، لم يكن هناك داعٍ لهذا التصرف المهين.. أعدك بالزيارة كل عام إذا تركتنا نذهب في سلام، أنا مقدر حبك لابنتك لكنها بالنهاية زوجتي وأحبها، أرجوك اتركنا نرحل ولن أخلف وعدي لك أبدًا..

ضحك حتى ظهرت جميع أسنانه قائلًا في سخرية:

- أنا لا أعرف شيئًا عن الإسلام، لكن المسيح يقول لك، عُد إلى مصر ولا تفكر فينا مرة أخرى وإلا ذهبت للقبر، هيّا يا شباب رددوا معي، هيّا يا إيفيت رددي معي مثل ترديدك الصلاة على المائدة في الصغر، عُد إلى مصر ولا تفكر فينا مرة أخرى وإلا ذهبت للقبر، عُد إلى مصر ولا تفكر فينا مرة أخرى وإلا ذهبت للقبر..

أخذ يكرر الجملة وهو يدور حولي ورجاله يرددونها من بعده، الغريب أن إيفيت نفسها رددت معه الجملة بيقين، كانت ترددها في بؤسٍ وأسى كبيرين، ترددها كأنها نصيحة أو رسالة لي مفادها أن الحكاية انتهت، لا يوجد حل آخر، والدها رجل مجنون، مجنون لأقصى درجة تتخيلها، سادي، مقزز، كل الصفات القبيحة، هنا بدأت أقتنع بالرضوخ للأمر الواقع، لا يوجد حل آخر، سأعود إلى مصر ولن أفكر في إيفيت ولارا مرة أخرى.. وإلا ذهبت للقبر.

«كف عن هذا أرجوك»

قالتها إيفيت لوالدها وهي تصرخ في انهيار كامل، والدموع تسيل من عينيها في غزارة، حرك كوزمان جسده متظاهرًا بالخوف فتوقف رجاله عن الكلام، ثم اتجه ناحية الباب وفتحه مشيرًا لهم بالخروج



وهو يقول في صوت خفيض كأنه سرّ: هيّا يا شباب، لنبتعد عن قطتي المكسيكية حتى تهمس للفرعون بسرّها دون إزعاج.

كانت هذه المرة هي الأولى إلى أرى فيها كوزمان ديلابينا.. والأخيرة.

* * *

المشهد الثاني

أحضر رجال كوزمان سيارة جيب ضخمة، وركب معي اثنان بخلاف السائق، نفس العصابة على عيني، نفس البلاستر، نفس بيجامة النوم، هذه المرة كنت مقيد اليدين من الأمام، ووضع أحدهم جواز سفري في جيب البيجاما و.. تحركت السيارة بعد أن قطعنا مسافة طويلة بالسيارة، ظننت أننا على وشك الوصول للولايات المتحدة، ثم سمعت صوت بوابة تُفتح، ففطنت أن المسافة السابقة كانت داخل القصر، عقلي كان مذبذبًا لا يستطيع تقدير المسافات والزمن جيدًا، بعد السفر من مصر للولايات المتحدة ومنها للمكسيك ثم عودتي للولايات مرة أخرى، أعتقد أن ساعتي البيولوجية ستصاب بالعطب للأبد..

سمعت حوارات كثيرة طول الطريق بالإسبانية، مررنا بصحراء ما، الحرارة المرتفعة مع صفير الهواء بالخارج دليل على ذلك، نمت وحلمت أحلامًا كثيرة، كأن شياطين تدور حولي وترقص، ذكريات قديمة جدًّا، مطبات ضخمة من الرمال كأنها وديان، فقراتي القطنية ستتحول لطبق من الحلويات الشرقية بنهاية الرحلة غالبًا، هلاوس تهاجمني أثناء النوم، الكثير من دفعتي يبتسموا لي لكن أحدهم يحذرني بإصبعه، لا أستطيع تمييز شكله، سلاحي، أين سلاحي؟ لماذا لم أحضره معي لقتال هؤلاء



الأشرار؟ هل فقدته؟ سيتم محاكمتي عسكريًا هنا في الصحراء.. بعد فترة، نزلنا من السيارة وسرنا بعض الوقت داخل أنفاق، ظلام دامس ومن تحت أرض رطبة، رجال جدد بخلاف من معي، ضحكات خشنة، نور ساطع مرة واحدة، سيارة فان (عرفتها من صوت الجرار).. الأسفلت أخيرًا، بعد فترة هدأت الحرارة قليلًا، كان الوقت يقترب من الغروب، توقفت السيارة على جانب الطريق، وشعرت بأيادٍ قوية -شبيهة بالأيادي التي ضربتني في الفندق - تخرجني من السيارة، ارتطمت رغمًا عني بالرمال فشعرت بألمٍ مبرح، الأيادي الضخمة أمسكتني من جديد، هذه المرة ساعدتني على النهوض والوقوف على الأسفلت، هذه ليست هلاوس، الضحكات الساخرة التي سمعتها منهم والسيارة تدور للعودة، لم تكن هلاوس هي الأخرى..

نزعت العصابة والبلاستر بكلتا يدي، آاااه، السيارة ذهبت بعيدًا، حتى لو رأيت رقم السيارة سأنساه بعد دقيقة واحدة، غالبًا أنا الآن في سان أنطونيو..

عقلي مازال هناك في المكسيك، مع إيفيت ولارا المسكينتين، أشعر بالحنين إليهما رغم كل شيء، لارا ليس لها ذنب في كل هذا، أما إيفيت فخُدعت من والدها المخبول، كانت الدموع تخنقني، لم أبكِ منذ وقت بعيد يا بافوميت، منذ أيام الدراسة غالبًا حينما سخر مني أحد الزملاء لأنني لا أشتري شيئًا في أوقات النوبة -النوبة في الكليات العسكرية هي وقت الراحة- أذكر أنني صرخت في وجه أبي قائلًا: «أدرس في كلية الشرطة لأخرج منها باشا، ولا أقدر على شراء ملابس تناسب هذه (البشوية)، سأصاب بالجنون حتمًا»



بكيت في حرقة، وضحكت في هستيريا ثم فعلت الشيء المتوقع فعله وقتها.. فقدت الوعي.

❋ ❋ ❋

المشهد الثالث

انتبهت مرة واحدة، هناك من أفاقني، ماء على شفتاي فشربت، ثم شيء ما مسكّر لا أدري كنهه، حلوى غالبًا، أين أنا، حمدت الله أنني لازلت حيًا، بدأ وعيي يعود لي سريعًا هذه المرة دون ألم في الرأس، رأيت رجلًا وامرأة ينظران لي ثم لبعضهما البعض، الجو ليل وهناك إضاءة قادمة من كشافات سيارة قريبة منا، سيارتهما بالتأكيد، ملامح الرجل والمرأة أمريكية جدًا، البشرة البيضاء والشعر الأصفر، خمنت أنهما زوجان ورأياني مُلقى مقيد اليدين فحاولا إفاقتي، سألني الزوج عما حدث لي فقلت إنني مصري وأن هناك جماعة من البلطجية حاولوا سرقتي، لم يقتنعا بالطبع لكنهما ساعداني في النهاية، فك الرجل وثاقي وأخبرني أننا في جنوب سان أنطونيو، قلت في خجل:

«أريد أن أصل لفندق ريفر ووك بلازا، هل تعرفه؟»

«لا، لكننا ذاهبان للمدينة» حمدا لله، نمت في السيارة بسبب الإرهاق، لم أستيقظ إلا ونحن على مشارف المدينة، قام الرجل بدفع أجرة التاكسي، بعد أن شعر بعدم امتلاكي للمال، شكرتهما كثيرًا وانصرفت..

وصلت إلى الفندق بعد منتصف الليل تقريبًا فوجدت شرطة تكساس



بالكامل أمام الفندق، الحدث لم يكن هينًا، مصري مخطوف هو وزوجته المكسيكية وابنتها، قابلني رئيس الشرطة ومدير الفندق بنفسه، عرف أنني ضابط شرطة مصري، جئت للسياحة في هذا البلد اللعين وحدث ما حدث، لم أتكلم، لم أنطق بكلمة واحدة، صحيح انني أعرف قوة الشرطة الأمريكية جيدا، لكن هذا ينطبق على أمريكا من الداخل، لن يصطحبني الشريف (رئيس الشرطة) في نزهة إلى قصر المسيح في المكسيك ثم يحضر لي أسرتي ويلقي القبض على كوزمان، هذا الأمر يعتمد على «الإنتربول» بشكل كامل، والإنتربول لن يتحرك إلا بناء على أحكام قضائية أو طلب من الولايات، لا تنسَ أن كوزمان كان وزيرًا حتى شهور قليلة.. بدأت التحقيقات والاستجوابات، استمرت حتى الساعات الأولى من الصباح، أنهيتها بقصة لم أغيّرها، قام مجموعة من الرجال يتحدثون الإسبانية بخطفنا ثم وجدت نفسي فاقد الوعي بالقرب في الجنوب، زوجان أمريكيان أحضراني بالسيارة إلى داخل المدينة، هذا هو كل ما اعرفه.

«سيد رمّاح، هل تخاف من أحدٍ ما؟ هل هددك أحدهم أو طلب فدية؟»

بالفعل أنا خائف أيها الشريف من كوزمان ديلابينا، لكنني لن أتكلم.. طلبا مني عدم المغادرة إلا بعد فترة لإنهاء الإجراءات، جميع العاملين بالفندق كانوا متعاطفين معي، الإدارة كانت راغبة في إرضائي بأي ثمن، تم نقلي لجناح كبير ووضع كافة ما تشتهيه نفسي من طعام وشراب لكن نفسي لم تشتهِ لقمة واحدة، أحضروا لي ملابس جديدة وسيارة تحت تصرفي، في الظهيرة جاءني أحد نواب المدير وطلب الحديث معي، قلت له في حدة: ماذا تريد؟ هناك نقود مدفوعة لأبقى في هذا الفندق أسبوعا كاملًا.



- سيد رماح، الفندق بالكامل مقدّر ما أنت فيه لكنك تعلم أن الأمر ليس بأيدينا، من الواضح أن هناك خلافات ضخمة بينك أو بين زوجتك، من اقتحموا الفندق اتجهوا دون تفكير لغرفتكم، الأمر لم يكن عشوائيًا إذًا.

كررت سؤالي مرة ثانية: ماذا تريد؟

قال في هدوء: العجوز المكسيكي لا يريدك هنا، يقول لك يجب أن تنفذ ما أمرك به وبسرعة.

- مع الأسف، أنا لا أفهم ما تقوله.

- أنت تفهم ما أعنيه بالتأكيد، أنا لا أعرف من الذي هاتف مدير الفندق لكن بالتأكيد أنت تعرفه، سيد رمّاح، هذا الرجل اتصل وهددنا بتكرار ما حدث فجر أمس، نحن على المستوى الشخصي نريد بقاءك وتعويضك، لكنك لو بقيت لحظة واحدة حتى ظهر الغد، لن يبقى عامل واحد حيافي الفندق ليقدم لك الخدمة، أرجوك، هناك أمور معقدة في حياتك لا نريدها أن تجلب لنا الشر.

صحت في غضب: الشر!! الشر هو فندقكم المشبوه هذا، لا أمن، لا إجراءات تفتيش ولا أي درجة من درجات الأمان، لقد تسببتم في خطف زوجتي وابنتي الوحيدة، أنا لن أرحل قبل رجوعهما لي سالمتين، تبًا لك ولمدير الفندق ولهذه الفئران التي تسمونها رجال أمن.

استمر في الحديث بشكل هادئ كأنه لم يلحظ ثورتي: سيد رمّاح نحن لم نتسبب في خطف أحد، هذا الفندق يعمل منذ عشرة أعوام وله سمعة طيبة على مستوى تكساس كلها، أنت من تسبب في خطف عائلتك، أو أيًا كان السبب فبالتأكيد ليس بسبب تقصير منا.



- سأحاكمكم جميعًا.

- عمومًا، أنت حر، ستتحدث مع الشرطة في التهديد الذي تلقيناه ولهم مطلق الحرية في تركك هنا أو حجزك في قسم الشرطة لحمايتك، لا تُقحم الفندق في هذه الصراعات، أشكرك على إنصاتك، وفي انتظار جوابك النهائي بعد ساعة من الآن، لقد صمم المدير على اطلاعك بكل ما حدث في فترة غيابك لتخبرنا بقرارك، لكن تذكر، ما حدث يخصك أنت، وليس حادثًا عارضًا نحن مذنبون فيه.

قال جملته الأخيرة وغادر الغرفة، معه حق، كل الحق، أنا من وضع نفسه في هذه الحماقات، لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أفعله، ما هو القرار السليم؟، أنا ضابط شرطة في وضع غريب نوعًا ما، مطارَد ولست المطارِد، خائفٌ من كل شيء، للأسف هذا الخوف سيظل عالقًا في ذهني فترة طويلة، أو العمر كله، هذا الخوف لن يتركني بمجرد عودتي لمصر، حياتي تغيرت هنا في أمريكا بعدما حدث، سأصير شخصًا مشوهًا نفسيًّا، يرغب في الانتقام وعاجزًا عنه في نفس الوقت، العودة لمصر دون زوجتي وبالأخص لارا، مأساة جديدة.

كانت تواجهني مشكلة أضخم، مشكلة عملي في الشرطة، إذا صممت على البقاء هنا سيتم إيقافي عن العمل، سأنتظر طويلًا دون فائدة، إجازتي ستنتهي بعد أيام قليلة، وبقائي هنا لن يُفيد، على العكس سيُضرّني..فكرت في طلب القنصلية المصرية لكنني لن أصل لشيء، أقصى ما يستطيعون مساعدتي به هو ترحيلي لمصر سريعًا، أعرف جيدًا كوزمان ديلابينا رغم مقابلتي له مرة واحدة، المجانين أصحاب النفوذ وزعماء العصابات أشخاص لا تستسلم بسهولة،



أو حتى تستطيع الوصول إليهم، حتى إن استطاعوا الوصول إليهم، فلا توجد تهمة صريحة موجهة إليه، ابنته وحفيدته في القصر.. أنا عاجز.. عاجز عن عمل شيء لا أدري كنهه، وجدت نفسي أمسك سماعة الهاتف اللاسلكية وأضغط رقم الاستقبال:

- أريد التحدث لمدير الفندق.

بعد ثوانٍ سمعت صوته يرحب بي من الناحية الأخرى يرحب بي منتشيًا، لم يمر على نزول مساعده أكثر من ربع ساعة، يجب أن يكون منتشيًا بعد استسلامي السريع هذا، زادت نشوته اكثر بعد أن اخبرته بطلب أخير:

«أرجو حجز مقعدٍ واحدٍ لأقرب طائرة أعود بها إلى مصر»

* * *

المشهد الرابع

الإثنين ٢٩ / ٣ / ١٩٩٣

مستشفى بلدة نويفو لاريدو الحدودية

السادسة صباحًا

«ميشيل.. أين أنت؟»

اللون الأبيض كان يعم غرفتها بالعناية المركزة، كل شيء من حولها كان باللون الأبيض: الحوائط، الباب، الأغطية، رداء المرضى المميز الذي



ترتديه، حتى جهاز التليفزيون المثبت على الحائط أمامها لونه أبيض، التليفزيون يعرض مسلسلًا مكسيكيًا قديمًا لا تعرفه، يبدو أنها لم تمت بعد فقدانها الوعي، تنبهت أنها داخل غرفة بمستشفى ما، نظرت إلى جهاز المونيتور بجانبها، فوجدت عليه بعض الأرقام والإشارات لحالة جسمها الصحية، البيانات على شاشة الجهاز كانت باللون الأبيض ايضا، كأنها داخل متاهة بيضاء، تمنت أن ترى أي شخص أمامها لتعرف ماذا حدث، هذا اللون الأبيض لا يبعث الأمل في نفوس المرضى، على العكس كان يخيفها،كانت تحب كثرة الألوان واختلاطها مع بعضها، هناك بعض المحاليل المعلقة بأوردتها، طرفيها العلويان لا تشعر بهما، كأن جسمها عبارة عن النصف السفلي فقط، نظرت إلى سقف الغرفة وسرحت قليلًا.. لماذا بقيت حية بعد كل ما حدث؟ لقد كانت تتمنى الموت في كل لحظة مع كوزمان، حياتها كانت عبارة عن ضياع مستمر، يأس قاتل يدق باب حجرة نومها كل يوم، زجاجة الخمر لا تفارق يدها، لكم تمنت الخلاص من تلك الحياة العفنة، رغم أنها كانت تعيش في السنوات الأخيرة مع زوجها داخل قصر مهيب، ويوفر لها كافة ما تطلبه، لكنها لم تكن سعيدة، بالتأكيد حياتها معه لم تكن سيئة من البداية، لكن العيوب كانت تظهر تدريجيًا مما جعل الحياة مستحيلة؛ الأنانية، الاستعراض المستمر، الخيانة، ثم كارثة الإتجار في المخدرات، لم تكن فقيرة يوماً وانتشلها كوزمان من هذا الفقر، كانت من أسرة ميسورة الحال، صحيح أن كوزمان أغنى وأكثر نفوذًا لكنها لم تكن في حاجة لهذه القوة المفرطة، كانت تحبه وتريد قلبه فقط.. للأسف، الشابة الصغيرة التي رأت في كوزمان كيان ضخم، يعلو نجمه كل يوم، بقيت ثابتة في مكانها تحب حبها له، أما هو فلم يعد يرى إلا النجوم أمثاله..باختصار لم تعد تحبه، صارت تحب ميشيل.



دخلت ممرضة للغرفة وهي تبتسم، قالت في امتنان حقيقي: حمدا لله على سلامتك يا سيدتي، يجب أن تشكري الرب، لقد نزفتِ كثيرًا، كانت معجزة حقيقية وبراعة من الدك...

قاطعتها قائلة: أين ابنتي؟ أين إيفيت؟ ماذا حدث لها؟

أجابتها الممرضة في سرعة وهي تساعدها على النهوض بنصفها العلوي: إيفيت بخير لا تقلقي، طفلة رائعة حقًا، صدقيني هذه الأشياء هي ما تجعل للحياة طعمًا، هي الآن مع أحد رجال الشرطة لاستجوابها في غرفة الممرضات.

– الشرطة!!

– نعم، لقد أوقف أحدهم سيارته أمام باب المستشفى وأنزلك أنتِ والطفلة، ثم جرى مسرعًا، للأسف لم نعرف هويته، اللعنة على من يُطلق النار على امرأة جميلة مثلك.

– أشكرك، أرجو أن تحضري إيفيت، أريد رؤيتها بشدة.

– حاضر..

– أنا لا أشعر بنصفي العلوي، ما هي إصابتي تحديدًا؟

ساعدتها الممرضة على خلع ردائها لتغييره وهي تقول: طلقة في كتفك الأيسر، الإصابة ليست خطيرة لكنه النزيف، لقد مرت مدة ليست بالقليلة حتى تم إسعافك. سكتت الممرضة قليلًا ثم تابعت في خبث: وجدنا نسبة الكحول عالية جدًا في دمك يا مدام، ما اسمك؟

– أنجليكا..



سألتها الممرضة بشكل مباشر: ماذا حدث يا سيدتي؟ من أطلق النار عليك؟

- لا أعلم..

- هل هو زوجك؟

أجابت أنجليكا في حدة: قلت لكِ لا أعلم.

غيّرت الممرضة ضماد الجرح، وحقنت بعض الأدوية في المحاليل المعلقة بجوارها، ثم خرجت مسرعة دون أن تنطق بكلمة واحدة..

سرحت أنجليكا مرة أخرى.. هل كشف كوزمان خيانتها؟ ترى ما الذي ينوي فعله بعد ذلك؟ هل سينقذها ميشيل أم أنه قُتل؟ حتمًا سيعود لإنقاذها، حاولت التفكير بشكل متفائل كي لا تصاب بالاكتئاب، ميشيل ليس من النوع الذي يتخلى عن حبيبته، أصوله هي من تتنبأ بهذا، تذكرت أول يوم بدأت علاقتهما وتنهدت، لم تكن رجولته فقط هي ما أسرتها، الحنان المختلط بهذه الرجولة هو ما فعل ذلك، ممارسة الحب من أجل الحب وليس بداعي السيطرة واستعراض الذات سحرتها، كوزمان عاشق للسيطرة حتى في ممارسة الجنس معها، كانت تحب ميشيل بصدق وتمنت من أعماق قلبها ألّا يكون قتيلًا..

تنهدت طويلًا وأمسكت ظهر السرير بكلتا يديها قائلة في شوقٍ:

«أرجوك لا تتركني هنا كثيرًا، لكم أشتاق إليك يا ميشيل»



المشهد الخامس

الحادية عشر مساء، مطار القاهرة

القاهرة.. العاصمة الرقيقة الحنون، القاهرة التي قال عنها عبدالرحمن بن العاص «لن تُزال فيها بركة مادام في الأرض إنسان».. الكثير منا لم يعرف قيمة القاهرة بعد، لكن من خرج منها عرف قيمتها الحقيقية جيدًا، بعد ما حدث لي في أمريكا الشمالية والوسطى، فهمت معاني تلك الكلمات ووعيتها جيدًا، وصلت لمطار القاهرة ليلًا، شعرت بسحر هذه الأرض وجاذبيتها، شعرت أن كل ما بها جميل وجذاب يشد القلب إليه، الإحساس الذي نشعر به بعد أي علقة نفسية، يشبه إحساس التائب من المعاصي أو المريض، تصبح زاهداً في ملذات الحياة، كأنك ملاك يسير بين البشر، تريدهم جميعًا سعداء، تريد أن تصارحهم بحقيقة غائبة عنهم «الحياة خطر كبير يجب الانتباه له جيدًا»

وقفت في طابور طويل من الجنسيات المختلفة، كشيخ طاعن في السن، وقع نظري علي طفل يضحك لي من بعيد، فابتسمت له وانسابت الدموع من عينيّ رغمًا عني، الطفولة هي الت...

«يا ابن الذين، رمّاح فيلسوف الدفعة، واحشني يااااض»

كان الصوت قادم من الأمام، شباك الجوازات، مألوفاً بالنسبة لي، لكنه ثقيل على قلبي في نفس الوقت، أمين الجزار، زميل قسم الزيتون اللدود، من سينعتني بفيلسوف الدفعة غيره، لمحته قادمًا ناحيتي ويشير لأحد الأمناء باستكمال فحص جوازات السفر..



قال في مرح: إيه يابني انت إيه اللي وداك أمريكا؟ وواقف مكرمش في بعضك ليه كده وعينك حمراء؟ انت كنت فين بالظبط، شيكاغو؟ قالها وانفجر ضاحكًا.

أرجوك يا جزار، لست في مزاج رائق لأسمع هزارك السمج هذا، أنت الآن كمن يبصق في وجهي وليس من يحتفي بعودتي..

- ازيك يا جزار، قصة طويلة كده هحكيهالك بعدين، مش وقته.

- يا ابني هتمشي كده، طيب نشرب حاجة على الأقل.

- اعمل بس انت معايا واجب وخلصني بسرعة، هموت م التعب بجد.

- خلاص حاضر، اقعد في الكافيتريا انت وانا هخلصلك الدنيا بسرعة.

كان ودودًا إلى حد ما، صحيح أن العُرف بين خريجي الدفعة الواحدة، تعضيد بعضهم البعض، إلا أن أمين الجزار لا يفكر بهذه الطريقة، لم يكن يهمني وقتها من الذي تغير ومن يحترم قوانين الدُفعة، المهم أن أخرج من المطار سريعًا لأنام، أنهى الإجراءات سريعا، وذهب معي للخارج، سألني عن وجهتي ثم أشار لتاكسي وطلب من السائق إيصالي، لم يعرض نقودًا عليه بالطبع، الدقائق الودودة السابقة كانت استثناء في حياة الجزار، دقائق نفّس بها عن روحه من ضغط العمل لا أكثر..

« وصّل الباشا مساكن شبرا يا أسطى»

شبرا.. أحنّ إليها بشدة، حتي الاسم صار له وقع محبب عند النطق، أم تراني جننت بعدما حدث، وصلت لشقتنا هناك، ضربت زر الجرس وانتظرت،



مرة ثانية وثالثة ورابعة، أدق على الباب بشدة، لوهلة خطر لي أن يكون كوزمان قد وصل إلى والديّ، تفكير مجنون لكنني جننت بالفعل، فتح والدي أخيرًا والنوم يداعب جفنيه:

«طارق!! إيه يا ابني مالك؟ فين مراتك وبنتك؟ »

لم أسمعه، رأيت أمي قادمة من حجرة نومها مسرعة، بعدما تأكدت أن الطارق ليس غريبًا، للأسف يا أمي، هيئتي مازالت كما هي، لكن روحي من الداخل صارت غريبة..

« حمدالله على سلامتك يا حبيبي»

ارتميت بين أحضانها وفعلت ما لا أفعل سواه منذ يومين؛بكيت بحرقة.

* * *

- أحبك يا رماح.

- إيفيت!! أين كنتِ.

- كنت في انتظارك، لمَ تأخرت؟

-...................................

* * *



المشهد السادس

كوابيس لا تنقطع، حتى مع اليقظة أشعر أنني في كابوس ضخم، كل يوم أتخيل قدوم إيفيت ولارا، كأن ما حدث كان مزحة سخيفة، لكنها لم تكن مزحة، حكيت كل ما حدث في الليلة التي وصلت بها القاهرة، جلس أبي وأمي ينصتان لحكايتي لكنني لم أحكِ كل التفاصيل بالطبع.. صحيح أن والدتي هي الملاذ الدافئ لي لكنها لن تستوعب وجود قصر المسيح، وزعيم عصابة مختل عقليًا، وزجة خدعت زوجها دون قصد، هذه أفلام أمريكية لا تحب رؤيتها، فما بالك باشتراك ابنها في الأحداث؟ بكت بشدة بعدما عرفت أن لارا في المكسيك عند جدها ورفض رجوعها لمصر..

والدي فهم الوضع بعد شرح مفصل له على انفراد، شعر بالكارثة وبشاعة ما مررت به، لكنه لم يعلق، اما أنا فالتزمت الصمت لثلاثة أو أربعة أيام، لم أتحدث فيهم لأي شخص عما حدث، بقيت في شقة والدي حتى انتهت الإجازة، قبل أن أعود للمبيت في شقة زواجي بالزيتون، سألني والدي عمّا أنوي فعله لكنه لم يجد إجابة مقنعة بالطبع، اقترح عليّ مقابلة السفير المكسيكي وعرض الأمر عليه، أو الاستعانة بوزارة الداخلية، أو حتى الوصول لرئاسة الجمهورية.. أما حلول والدتي فاختلفت تمامًا.. طالبتني بالمحافظة على الصلاة التي نسيتها، أو السفر لأداء العمرة، وصل الأمر أنها صارحتني بنيّتها في البحث عن عروس جديدة،



الغريب أنها كانت حزينة على لارا -تحديدًا- بشكل كبير، لم ألمها بالطبع، كنت أعي ماتشعر به، تريد الراحة النفسية لي وترغب في نسياني للماضي بأي شكل، حتى لو على حساب أعصابي أنا شخصيًا، ستر تاح رغمًا عنك يا بني، إن كنت فهمت قصدي..

لم تكن هناك فائدة من اقتراحات أبي، والصبر كان شرطاً قاسياً لاقتراحات أمي، العقدة الأكبر لما حدث كانت ضبابية الوضع، ضابط الشرطة يحتاج لخيط يبدأ منه حل اللغز، لكن الخيط للأسف كان في أقصى يسار خريطة العالم وليس في المبنى المجاور، الانتقام كلمة مطاطة لا تعني شيئًا، ما فائدة نية الانتقام دون وجود فكرة، حينها يتفتق الذهن عن فكرة جيدة، وقتها يحلو الحديث عن الانتقام.. الأمل الوحيد الآن أن يلعب القدر لعبته، ويموت كوزمان وتصبح إيفيت حرة، فكرة هروبها من القصر أيضًا كانت منطقية لكنها تحتاج لقلب من حديد وليس قلباً في رقة قلب إيفيت.

فكرت في الخروج، التنزه قليلًا أو حتى المشي على الكورنيش، هذه فائدة الأصدقاء، أن يكون لك شلة تقف بجوارك في الأزمة حتى لو لم تُخرجك منها، لكن منذ متى ولي شلة؟ العمل بالشرطة يأكل وقتك وأعصابك وحياتك الخاصة، كنز الذكريات ستجده فارغًا للأسف بعد سنوات طويلة من الخدمة، فكرت في زملاء العمل لكنني أعرفهم جيدًا، لا يوجد منهم من اميل لفتح قلبي أمامه، صديق واحد فقط تمنيت أن يكون بالقاهرة وقتها، صديق متزن نفسيًا وسيسمعني بقلبه؛هيثم الشاعر.. كان يطير أسبوعيًا بسبب طبيعة عمله الجديد، ويتصل بي من آن لآخر ليطمئن علي، لكن الظروف لم تجمعنا بعد عودتي من الصعيد، دعوت الله أن يكون موجودًا في مصر وأنا أتصل به..



- الوو

- رمّاح، انت فين يا عريس، واحشني جدًا.

قلت دون سلام: لازم أقابلك يا شاعر، اظبط أي وقت اشوفك فيه بس بسرعة.

- خير يابني؟ قلقتني

- ماتقلقش عايز بس آخد رأيك في حوار كده.

- طيب اجازتك إمتى، لسه زي ما هي الأربع؟

- آه، هشوفك فين؟

- هعدي عليك على ٨ كده ونشوف هنقعد فين.

- ماتتأخرش يا شاعر.

- عيب يا جدع انت.

انتظرته من السادسة مرتديًا كامل ملابس الخروج، كنت راغبًا في الفضفضة مع شاب في مثل سني، والداي يزنان الأمور بحكمة مبالغ فيها، الشاعر قد لا يقدِّم أفكارًا جديدة لكنني سأصل معه إلى حل يهدئ من غضبي قليلًا، اتصل بي في الثامنة والربع تقريبًا فنزلت على الفور، بعد السلام والأحضان وشريط الذكريات السريع توجهنا لكافيه شهير بالمعادي..

- خير يابني إيه اللي حصل؟

حكيت له ما حدث بالتفصيل، كل شيء من بعد حفل الزفاف، حتى عودتي مهزومًا للقاهرة منذ أيام، انتهيت فتفوّه بلفظ خارج



سمعه أغلب رواد الكافيه، عم الصمت المكان للحظات فشعرنا بالحرج، هدأ بعد دقائق وبدأ في استيعاب الحدث على مهل، ثم قال في انفعال:

- شوف يا رمّاح، أبوك عنده حق في نقطة الوزارة دي، انت ظابط شرطة يا ابني مش موظف في الري، بسم الله الرحمن الرحيم كده الوزارة لازم تعرف، عندهم حل، ماعندهمش حل، مش موضوعنا دلوقتي، بس لازم الحوار يكون عندهم.

قلت في نفاد صبر: بس يا هيثم الوزارة حبالها طويله، وغصب عنها، القوانين الدولية دي موت يا حمار على ما حد ينجزك بيها، قضية دولية وفيلم كبير على الفاضي، الوزارة هتعملّي إيه أكتر من كده.

قال في تصميم: لازم يعرفوا يا طارق، بدل ما حد ييجي يقولك ماقولتلناش ليه وتحقيق وسؤال عند مفتشين الداخلية وجزاءات، على إيه ده كله.

- مش عارف..

-انت هتقول للوزارة، واحنا ممكن نمشي في سكة تانية إذا مكنش عندهم حل..

ظننت أنه يكذب لمجرد بعث الأمل داخلي، قرأ افكاري فقال في ثقة:

- والله يا أخي ما بشتغلك، سيبني بس كام اسبوع تكون انت جبت آخر الوزارة، وانا بفكر في حل كده ممكن يجيب نتيجة.

- طيب إيه هو؟ ماتفهمني

- ياعم اتقل بقى، الحل ده مشكلته بس انه هيحتاج فلوس كتير.



- لو حل أكيد ممكن نبيع اللي ورانا واللي قدامنا بس مايبقاش اتعلم عليا كده

- اتفقنا..

كأن حجرًا رُفع من على صدري، لم يقل جديدًا لكنه سيسعى بصدق.. لم تكن هناك حلول أخرى، سأسلك طريق القانون، وأنتظر فكرة هيثم الغامضة، أعتقد أنه أخفى التفاصيل كي لا أتعلق بها أو أنه لا يعرف كنهها من الأساس، مجرد فكرة عامة تحتاج إلى تخطيط طويل، سلّمت عليه وشكرته بصدق، يكفي أنه استجاب دعوتي للقائه.

«طول عمرك محترم وابن أصول يا صاحبي»

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرًا وتوجهت للوزارة، استقبل والدي هذه الخطوة بترحاب كبير، كأنني ذاهب لمصحة بعد أن أهلك الإدمان جسدي، كانت هذه المرة الثالثة التي أقابل فيها العميد صالح - تم ترقيته - هذا الرجل صار يعرف عني كل شيء، حكيت له ماحدث بالتفصيل، صرت أحكي هذه الحكاية يوميًا منذ بداية الأسبوع، الغريب أنه لم يندهش، سمع مني في رزانته المعهودة وطمأنني أن كل شيء سيسير في الاتجاه الصحيح، شدد على أنه في حالة تواصل كوزمان معي فيجب عليّ إبلاغه في الحال.. قال في هدوء:

«استنى مني تليفون قريب يارمّاح هاكلمك أقولك وصلت لإيه، مش هناخد أي إجراء قانوني غير لما نعرف تفاصيل عن الراجل ده، الموضوع مش بسيط ومحتاج جهات كتير تتحرك، أنا بشّرتك قبل كده بموافقه على الجواز وهبشّرك إن شاء الله بالحل قريب»



كنت أشعر بالراحة لمجرد الحديث معه، كان أبًا حقيقيًّا للكثير من ضباطالشرطة، رغم موقعه الحساس.

انتهت الإجازة وصارت عودتي للعمل حتمية، أعتقد أن احساسي وقت عودتي للكلية بعد إجازة المستجدين كان أقل اضطرابًا مما كنت عليه، ذاك الشعور الذي يجتاحك ويجعلك كارهًا لكل شيء، أنت ترى كل ماحولك سخيفًا، زملاء العمل، الأفراد في القسم، الناس في المواصلات، إذا جلست وحدك تشعر أن كل من بالخارج أفضل منك وإذا جلست معهم تسعى لاعتزالهم، مضت أيام ثقيلة حتى اتصل بي العميد صالح، أبلغني انه يريد مقابلتي، حاولت الاستفهام منه عن قرار الوزارة، فأجاب أن هذه الأمور لا يتم بحثها على الهاتف.. توجهت إليه بعد نهاية يوم العمل فوجدته عصبيًا بعض الشيء، فهمت سريعًا أن ما اتفقنا عليه لم يحدث بالطبع، أبلغني أن السيد وزير الداخلية بنفسه على علم بما حدث، وأنه مستاء جدًّا من زج نفسي في تلك المشاكل، وعدم تحري الدقة قبل الزواج، ابتسمت في سخرية، شيء مضحك بالفعل أن من يعاتبني على عدم تحري الدقة هو المسئول عنها..

- أنا مش هسكت يامعالي الباشا، مش هسيب مراتي وبنتي في إيد راجل مجنون زي ده.

- اهدا يارماح، انت عايز الوزارة تعمل إيه، بالعكس لو اتخذنا إجراءات قانونية ده مش هيكون في صالحك، كوزمان هياخد احتياطاته ولا يمكن هنوصل لحاجة، الوزارة مش هتسكت، عايزة ترضيك فعلاً، السيد الوزير كان محتار في تصعيد الموضوع لرئاسة الجمهورية، وهو عارف إن ممكن بعد الخطوة دي مانوصلش لحاجة، وفي نفس الوقت



انت واحد من رجالته مش عايز يسيبك في المشكلة.

قلت في حدة: ماهو سابني فعلًا يافندم، من الآخر الوزارة مش عايزة تصرف مليم، مش عايزة تطلع أي مشكلة عندها، كله تمام، كله تمام، حكيتلك عن سليم الفرماوي، وحكيتلك على كوزمان وعصابته، عملتولي إيه، أنا اتهنت ياباشا، اتهنت، اتغمت عينيا واتضربت واترميت على طريق متكلبش زي الكلاب، وفي الآخر راجع وانا متعلم عليا في أغلى اتنين في حياتي، مراتي وبنتي، جوايا نار وانتوا خايفين على شكل الوزارة..

– طارق انت زي ابني مش عايز نار الانتقام تحرقك انت أول واحد، هنفكر بالراحة لحد مانوصل لحل، وفي سكة تانية انت ممكن تاخد طريق القانون وهنساعدك، هنوفرلك محامين وترفع قضية دولية على كوزمان.

قالها وفتح درج مكتبه وهو يقول: ده شيك بـ ١٠٠ ألف من الشئون المعنوية، عشان ماتقولش إن الوزارة مابتصرفش، إحنا مش هننسى الرجالة بتاعتنا ياطارق، بس برضو الرجالة بتاعتنا مطلوب يكونوا على قد المسئولية.

أخذت نفسًا عميقًا وتنهدت في بطء، المبلغ ليس صغيرًا والشيطان يعصف بي، لماذا يتصدر المال المشهد دائمًا؟ حينما يُذكر المال يصبح كل شيء قابلًا للتفاوض حتى أسرتك، فكرت أن أعتذر عن قبول الشيك، لكنها ستكون في نظر المانح (خيابة)، رسالتي لن تصل للوزارة بهذه الطريقة، أخذت الشيك لأنني كنت أحق شخص به، المال الآن قد يعيد لي زوجتي وابنتي، أحتاج إلى نفقات كثيرة بعد أن جربت حظي مع الوزارة، لم يعد لي سوى أفكار هيثم الشاعر المكلّفة،



قمت بشكل مفاجئ، شكرت صالح وصافحته دون اهتمام، لكي تصل الرسالة إليه.. قلت في تنبيه أخير:

- الموضوع ما انتهاش ياصالح بيه، لـه هتحصل مشاكل أكتر، مافيش حد بيسكت عن وضع إلا لو ارتاح فيه، وانا ما ارتحتش ولا هرتاح إلا لما آخد حقي..

نظر لي في ثبات وقال:حاول تعرف انت بتعمل ايه وليه ياطارق، ساعتها هترتاح، الحياة مش فيلم سينما لازم تكون البطل فيه، الحياة مبنية على الصبر والرضا بقضاء ربنا، مش بقولك بيع القضية، بس بنبهك لخطواتك.

خرجت من المكتب غاضبًا واتصلت بهيثم مباشرة..

- الوزارة باعتني ياشاعر، كده مافيش قدامي غير السكة بتاعتك، هشوفك تاني إمتى، إمم تمام، تمام كده، لأ هجيلك أنا المرة دي.

قابلته في العاشرة مساء وبدأ في شرح فكرته المجنونة، شرحها في بساطة رغم تعقيدها، فشعرت بحيرة..

- دلوقتي احنا عايزين حد يرجّعلنا البنت وامها، مفيش حد في مصر هنا هيساعدك، إحنا فين وهما فين، لو في بلد عربي مثلًا كنت قلتلك نسافر ونحاول، إنما ده في المكسيك، بلد ٩٩ ٪ من المصريين مايعرفوش عنها حاجة، انت نفسك ياطارق مكنتش تعرف عنها حاجة قبل جوازك من إيفيت.

- تقصد إيه بكلامك؟! فهمني أكتر..

- قصدي إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، الحوار ده هيخلص على إيد



حد من هناك.. من المكسيك نفسها.

- يا ابني انت مجنون، كوزمان أكبر راس وسخة هناك وكلهم صبيانه.

- هنحاول وأكيد هنلاقي طريقة، جاري في العمارة هيساعدنا كتير في الليلة دي..

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها عن الـ«دارك ويب».



الترنيمة الرابعة

انتقم ولا ترأف، فالرأفة هي سمة الإنسان فقط، ولا ترحم أحدًا.



المشهد الأول

بداية يجب أن نعرف ما هو الديب ويب.. هو ملايين المواقع والخدمات التي لايتم أرشفتها في محركات البحث، ولا يمكن الوصول إليها بالمتصفحات العادية، مثل جوجل كروم أو الفايرفوكس، مجموعة أفراد تستعمل بروتوكولات غير (HTTP)، لكنها موجودة على الشبكة العامة، تأسست بطريقة سرية بين أطراف موثوقة بين بعضها البعض، على سبيل المثال تبادل المعلومات بين وحدات الجيش الأمريكي البرية والجوية.. أما الدارك ويب أو الإنترنت المظلم فهو الجزء الأكثر إثارة ورعبًا من الديب ويب، الهدف منه هو العمل بعيدًا عن أعين الشرطة والسُّلطات، على سبيل المثال، عقد صفقات السلاح المشبوهة، جنس الأطفال القُصّر، الإتجار في المخدرات بكافة أنواعها، باختصار هي سوق سوداء لكل شيء لا يمكنك تخيُّله، الفرق بين الديب والدارك ويب، أن الأول يمكن بشكل ما الدخول عليه للتجسس على معلومة مثلًا، بينما الثاني أساسه الدفع من أجل سلعة ما قذرة.. نقطة أخيرة:التعامل مع الدارك ويب يجب أن يكون بحذر شديد، تجنب إعطاء أي معلومات شخصية أو استخدام بريدك الإلكتروني أو تكوين صداقات، لأن أغلب رواده من الهاكرز شديدي الخطورة.

شريف هاكر شديد الخطورة بالطبع، شاب لا يتجاوز عمره التاسعة عشر عامًا وجار هيثم في نفس الطابق، في السنة الثانية من كلية حاسابات ومعلومات، شاب نحيل لدرجة النحافة ذو شعر بني مجعد ونظارة طبية سميكة، تشعر طول الوقت أنه متوجس أو متوتر من شيء ما لا تدرية كأن هناك من يلاحقه دائمًا، لم يصل الموضوع لدرجة البرانويا بالطبع،



لكنه أثر على الكثير من تصرفاته عند مقابلته لنا في شقة هيثم، لم يظهر توتره هذا بشكل ضخم في المقابلة الأولى لنا، من الواضح أن هيثم يروق له وبالطبع كل من يأتي من ناحيته.. شرحت له الأمر في سرعة، هناك من خطف أسرتي في المكسيك وأريد حلًّا.. فكرة هيثم تعتمد على التواصل مع أي جماعة مسلحة لها سيطرة على الوضع في المكسيك، ثم التفاوض معهم على إعادة لارا وإيفيت مقابل المال، الفكرة تبدو مستحيلة وهذا هو دور شريف: إيجاد طريقة لتنفيذ الفكرة على أرض الواقع، لا شيء مستحيل أمام المال، ستحضرون ابنتي وزوجتي مقابل مبلغ مادي وقدره كذا، تصل أسرتي الصغيرة إلى مصر، تصل الأموال إليكم، هذا هو كل شيء، لكن التفاصيل اختلفت مع شريف جذريًّا، الفكرة مجنونة لكنها لا تتم بهذا الشكل، أفهمنا شريف أنه سيقوم بالدخول للدارك ويب، ويبحث عن القتلة المأجورين ومكاتب الأمن وعصابات مسلحة تعرض خدماتها صراحة بالخطف، ومخاطبة من يستطيع اقتحام قصر المسيح في المكسيك، ثم اضاف تعديلاً بسيطاً، تلك الجماعات ستكون من خارج المكسيك، من الواضح أن كوزمان يسيطر بشكل كبير على عصابات المكسيك بالكامل أو على أقل تقدير أغلب العصابات، فما الذي سيحدث إذا قمنا بالتعامل مع عصابة من ضمن العصابات الموالية له، صحيح أنه يتاجر في المخدرات فقط لكن أغلب هذه العصابات مصالحها مشتركة، المخدرات هي عصب القذارة في الدول والمصائب كلها تدور حولها، هذه مخاطرة غير مأمونة وستهدم الفكرة من الأساس..

«طيب يبقى إيه الحل»

قالها شريف في شغف ثم أكمل بسرعة دون انتظار رد أحدنا:



«حد من بره المكسيك أصلًا، وقريب منها في نفس الوقت، كاليفورنيا مثلًا أو تكساس حتى لو بلد في أمريكا الجنوبية جنوب المكسيك، حد يقدر يدخل يخلص العملية بسرعة ويخرج من غير ما كوزمان يقدر يوصله».

فكرة جيدة بالطبع لكن دعنا لا نستبق الأحداث، نظرت إلى هيثم في حيرة، سنرى ماذا يستطيع شريف تقديمه لنا..

قال شريف: «سيبوني يومين تلاتة أبعت للناس دي واستنى النتيجة»

اتفقنا أن تكون نتيجة البحث في تكساس وكاليفورنيا فقط، وأن يتحدث شريف باسمي، يجب أن تتم الموافقة المبدئية بمعرفة المبلغ المطلوب بالطبع.

انصرف شريف بعد أن أخذت رقم هاتفه للتواصل بشكل مباشر في حال سفر هيثم، قلت لهيثم في تساؤل: أنت متأكد من الواد ده يا شاعر؟

– آه طبعًا ده جاري من سنين، واد جدع، رغم إنه لسه صغير بس ماسك كل سيستم شركة ابويا وانا اللي اتوسطت له كمان.

– ربنا يستر..

سافر هيثم بعدها بيومين، مرحلة الانتظار كانت أسخف مراحل هذه اللعبة، الانتظار يقتل متعة كل شيء، ناهيك أن نتيجة الانتظار في حالتي كانت خارج حدود التوقع، بعيدة تمامًا عن أي قواعد تستنتج منها ما قد يحدث، مرَّ يومان ثم الثالث والرابع، فكرت في طلب شريف لكنني فضّلت ان يبدأ هو بالاتصال، كنت أريد أن الاطمئنان إلى سعيه الجاد، وأنه لم ينسَ الأمر برمته حتي لو أبلغني بفشله، اتصل بي بعد حوالي ستة



أيام مروا عليَّ كشهور طويلة، قال بصوت مضطرب كعادته:

«أستاذ طارق تعالى عشان في ناس ردت عليا وعايزين رد سريع»

لم أستطع الانتظار، استأذنت من رئيس المباحث وتوجهت لشريف على الفور، دخلت شقته وألقيت التحية على والديه، بالتأكيد كان هناك تساؤلات كثيرة يريدان معرفة أجوبتها، أهمها سبب تلك الصداقة الغريبة بيني وبين ولدهما، ناهيك عن نظرات الشك بسبب طبيعة مهنتي، تمتما بكلمات ترحاب لم أتبيّن منها سوى «نورتنا والله» لكن نظراتهما كانت تقول شيئًا آخر، هذا المراهق الصغير بالداخل لا يستطيع أن يتذكر أين وضع سروالة طول الوقت، فكيف سيساهم في حل قضية لضابط شرطة؟ دخلت الغرفة وجلست أمام الحاسب الآلي فوجدته مفتوحًا على مواقع غريبة، صفحات ومناظر لم أرها من قبل، عاهرات، مخدرات، خطف، تجسس، حتى تجارة الأعضاء، كل شيء تستطيع الحصول عليه لكن المهم أن تدفع، أفكار غريبة تسمع عنها من قبل والعجيب أنك تراها أمامك بالفعل، إعلان عن مخدرات صوتية، هل سمعت عنها من قبل؟ صفحة أخرى بها رجل يرتدي زي بهلوان ويتحول وجهة تدريجيًا لشيطان أو عفريت، ثم تظهر جملة بالإنجليزية في أسفل الشاشة (السحر الأسود هو الشر بعينه، من حقك أن تمارسه قليلًا كي تدافع عن الخير بداخلك) أعوذ بالله، ماهذا؟ لم أتخيل أن هناك مواقع تقدم لك منتجًا كهذا..جاء شريف حاملًا مشروبًا غازيًا بيده ثم اغلق الباب، كنت أنظر إليه كالساحر الذي يعرف كل شيء..

– أخيرًا حد رد عليَّ.

– طيب طمنى موافقين على الطلب اللي قلناه ده؟



- مش عارف انت هتوافق على العرض اللي قالوه ولّا لأ..

قالها وأمسك بالفأرة فاتحًا بعض المحادثات على موقع للتواصل يحمل اسمًا غريبًا، الأسماء هنا كلها غريبة، من نوعية: الحصان الأمهق، الأنف الغليظ، البصل العاري.. إلخ.

- بُص ياسيدي، في جهتين ردوا عليا، راجل شغال مع نفسه اسمه هارفي وأكيد طبعًا ده مش اسمه الحقيقي، والتاني مكتب أمن في كاليفورنيا، ردت عليا سكرتيرة من عندهم، ماعرفش ازاي حاجة زي كده يكون عندهم سكرتيرة بس ده اللي هي قالته، الخلاصة إن كل البيانات هنا كذب، هارفي طلب ١٠٠ ألف دولار يتحولوا لحساب في بنك معين قبل التنفيذ، وبعد كده يسلملك أسرتك هنا في مصر، أما مكتب الأمن، السكرتيرة بتاعتهم طالبة ١٥٠ ألف، نصهم قبل العملية والنص التاني بعد العملية وبعد كده....

- بس بس، ١٠٠ ألف إيه و ١٥٠ ألف إيه دي نصباية وش.

- ياطارق باشا هو أنا هكلمك في التليفون أجيبك مخصوص علشان الكلام العبيط ده، شوف بقي المعلم التالت، راجل لاتيني عايش في تكساس، بيقول إن رسالتنا دي هو مهتم بيها جدًا، ومهتم إنه يخلّص، بس طالب إنه يكلمك فون مباشرة، بيقول إنه عنده ليك عرض ماتقدرش ترفضه، اديتله رقم تليفونك وهيكلمك، اسمه جاك روبي..

جاك روبي، ليس لاتينيًا بالتأكيد، هذا الاسم له طابع أمريكي، شعرت أن الاسم ليس غريبًا على أذني، شكرت شريف بشدة على مجهوده في الأيام الماضية وشددت عليه أن يلجأ لي مباشرة في حال حدوث أي مكروه له، سواء بسببي أو بسبب مغامراته، ألقيت تحية على الوالدين



المتوجسين ثم انصرفت، شعرت وقتها برغبة قوية في الضحك اثناء نزولي سُلّم المنزل لا أعرف سببها.. انطلقت ناحية منزلي وعدت للانتظار مرة أخرى، أعتقد أن كوارث العالم كان من الممكن تفاديها إذا كان جين الصبر داخل الإنسان أشرس قليلًا، كان يومي ثابتًا لا يتغير، العمل ثم العمل ثم العمل لكن بلا رغبة، ثوابت العمل لا أخالفها لكنني في نفس الوقت لم أعد طارق المبدع الذي يحل القضايا في يسر، حمدت الله أن السيط لا زال موجودًا وإلا تم نقلي من وحدة البحث نهائيًا..

أخيرًا جاءني اتصال دولي من أمريكا، انتفض جسدي من الفرحة، هذه المواقع الإلكترونية تصدُق إذًا، تمنيت أن يكون العرض جادًا كي تكتمل فرحتي، أمسكت الهاتف ثم انتظرت حتى سمعت الطرف الثاني يقول بصوت خشن قليلًا بالإنجليزية:

– كم الساعة الآن في مصر؟

أجبت في سرعة: منتصف الليل.

– منتصف الليل في القاهرة جذاب دائمًا، لا توجد مدن سيئة في الليل، المهم ما هو شكلها نهارًا؟

– ازدحام شديد.

– إذًا القاهرة مدينة مخادعة مثل باقي المدن.

كانت هذه هي الشفرة المتفق عليها بين شريف وجاك..

– أسرتك ستعود إليك يا مستر طارق، لا تقلق، جاك يفي بوعده عادة إذا سمحت الظروف هههههه.. لم أفهم دعابته.



- آسف مستر جاك أتمنى أن أسمع منك الاتفاق.

- الاتفاق بسيط، ستضع المال في أحد البنوك هنا في تكساس، ستبقى في فندق أحدده لك وعندما أحضر لك زوجتك وابنتك ستدخل البنك لإحضار المال، ثم تعود للقاهرة سعيدًا بهذه المغامرة السهلة.

- وما هو المبلغ المطلوب؟

- ٧٥ ألف دولار فقط.

قلت متوسلًا: أرجوك جاك أن تخفض المبلغ، نحن هنا في مصر وليس أمريكا، الأمور ليست على مايرام بالنسبة لنا هنا.

- مع الأسف، طلبك مرفوض أيها المصري، أنا أُقدّم لك حياتي مقابل بعض المال، أعتقد أنك ذكي كفاية لتعرف أنني لا أطلب فدية، أنا أطلب مالًا منك مقابل خدمة، ليس هناك مجال للتفاوض، هناك رجال وأسلحة وسفر للمكسيك و..إلخ، أنا أعرف أن العروض السابقة قد حوّلتك لشخص يائس، أنا الآن أرسل لك طوق النجاة ثم تأتي أنت للتفاوض بشأن المال، هل أنت أحمق؟ اسمع سيد رماح سأتصل بك بعد يومين من الآن، إما أن تخبرني بميعاد وصولك لتكساس ونتفق على التفاصيل أو لا ترد من الأساس.

- اتفقنا، سأنتظر اتصالك.

- سلام.

- سلام.

كان مخادعًا مثلك تمامًا يابافوميت، لكنه الخداع الذي يجعلك شغوفًا



بخوض التجربة للنهاية، بالتأكيد أنت تفهمني ياعزيزي..

كانت هناك حالة من اللذة بداخلي، التجربة التي كنت مقبلًا عليها لم أرها من قبل إلا في السينيات أو أسمع عنها بين عصابات المافيا، أقصى إثارة في عملي كانت قضية سليم الفرماوي أو قضايا القتل من أجل الشرف، شعرت أنني شاب لا أعرف عنه شيئًا وفي نفس الوقت معجب به، شاب مقاتل سيسعى في كل البلدان وسيفعل المستحيل من أجل أسرته المخطوفة، شعور بالفخر لا يمكن وصفه، هل كنت بلا قلب أم أن هذه الحالة كانت تفريغًا للمعاناة التي أعيشها؟ لا اعلم.

* * *

المشهد الثاني

توجهت لمنزلنا في شبرا وأفكار كثيرة بداخلي، حان وقت مصارحة والديّ وشرح خطتي لهما، يجب أن نتعاون معًا لإعادة أسرتي، وبالتأكيد العون الذي أحتاجه الآن هو العون المادي، سيكون عليهما الاختيار إما مساعدتي أو نسيان أسرتي للأبد، ووقتها سأعمل على تدبير المال من جهةأخرى، عرضت الخطة عليهما فقال والدي في استنكار:

- فلوس إيه يا ابني اللي هتاخدها تديها لواحد قتال قُتلة، انت اتجننت يا طارق!!

كانت أمي واقفة بجواره، كأي أم مصرية سمعت أن ولدها الوحيد ذاهب لخطف أسرته عن طريق قاتل مأجور، علامات الدهشة والأسف بادية على وجهها.. كانت فرصتي الوحيدة؛ فلم أستسلم بسرعة



وقلت في هدوء:

– بابا اسمحني لو سمحت، مفيش قدامي غير الحل ده، والموضوع أصلًا مش صعب، لو فيه قلق أنا هحط نفسي في مشاكل ليه؟ انت عارف الوزارة ممكن تعمل فيا إيه لو حصل مشكلة؟

– أنا مابتكلمش على مشاكل الوزارة دلوقتي، دي وزارتك وانت أدرى بيها، أنا بتكلم عن المبلغ اللي طالبه الراجل بتاعك ده، ده لو هو صادق أساسًا، ٧٥ ألف دولار ده كتير جدًا،انت عارف الدولار بكام؟ عايز ٣٥٠ ألف جنيه؟ انت تايه عن ابوك وامك وتايه عن ماديتهم عاملة ازاي؟

– أنا معايا منهم ١٠٠ وبعدين مالها الماديات بس يابابا ما احنا الحمد لله مستورين.

– مستورين بس مش لدرجة أدبرلك ٢٥٠ ألف جنيه في شهر.

–انت عارض أرض البلد للبيع وجالك كذا مشتري، خلّص بس مع واحد منهم.

– أرض البلد؟!! والله انت اتجننت رسمي.

– يعني بيع الأرض صعب وبنتي مخطوفة، وكان صعب يوم فرحي علشان مراتي أجنبية طيب إيه؟!! الفلوس هتطلع إمتى؟ لما أنا اموت ولّا لما انتوا تموتوا؟

لاذ والدي بالصمت لدقيقة كاملة، ثم جلس على أقرب مقعد إليه، كانت الجملة الأخيرة قاسية عليه بعض الشيء، نظر للأرض مثبتًا نظره على نقطة ما، اقتربت منه ووضعت يدي على كتفة وقلت في استعطاف:



- ياباا عشان خطرى ماتزعلش مني أنا ما أقصدش بس انت حِس بيا، الموضوع مش سهل على أب يسيب بنته في قارة تانية ومع مين مع تاجر مخدرات مجنون.

- ....

بقي ساكنًا ولم يرد، قلت محاولًا التخفيف من حدته:

- بابا انت تعبان؟ هاتي لبابا الدوا من جوة ياماما.

انتبهت أمي التي كانت تتابع النقاش والدموع تسيل من عينيها، فقالت بسرعة:

- حاضر.

نظر لي والدي بعينين مرتجفتين وعاد للنقاش مرة ثانية قائلًا:

-انت بتحب إيفيت ياطارق بجد؟

قلت في عصبية: طبعًا ياباا، ده سؤال برضو؟

أغمض عينيه لحظة ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال في بطء:

- آه يا طارق ده أهم سؤال، أنا ممكن أدبر المبلغ من أرض البلد فعلًا بس أتأكد إنك عايز تعمل ده علشان مراتك وبنتك يكونوا حواليك، أنا مش راجل فلاح ولا دَقة قديمة ولا حتى بخيل، انت ابني الوحيد مش عايزك تبقى شخص أناني ولا كل اللي همّك نفسك وبس، أكتر وقت يابني بيكون فيه الإنسان أناني لما يفكر في الناس، بس مش عشان بيحبهم عشان يكون بطل قُدامهم، الأنانية هتخليك ماتعرفش تحب أصلًا، لو جاوبتني بصدق، مش هفكر لحظة في الفلوس.. هديلك الـ ٢٥٠ ألف.



عجيب أمر والدي، هل درس الفلسفة في كلية الزراعة؟ الحب، الأنانية، مصطلحات غريبة يتكلم بها اليوم، ماذا رأى في نفسي ليقول هذا الكلام؟ أم أنها حقيقة ظاهرة للكل، لم أكن أدري وقتها يابافوميت، كان عقلي مشوشًا..

نفضت أفكاري قبل أن أعترض بشدة على حديثه قائلًا:

– إيه اللي انت بتقوله ده يا بابا؟ هو اللي بيكره مراته وبنته هيبيع اللي وراه واللي قُدامه عشان يرجّعهم!! كنت اتجوزت تاني أحسن، عمومًا أنا مش عايز حاجة أنا هعرف أتصرف لوحدي زي ما اتجوزت لوحدي، هعرف أرجّع مراتي وبنتي برضو لوحدي.

عادت والدتي وبيديها قرص الدواء وكوب من الماء، نظرت لي بحركة معينة من عينيها لأهدّئ قليلًا من حدة النقاش وقالت لوالدي:

– والله ياحسين ماحد عايز البت لارا ترجع غيرك انت، أبوك مابطّلش كلام عليها ولا بطلنا عياط من يوميها، مفيش عند أبوك أهم منها.

قلت في ضيق: لا لا ياماما، أبويا بيلمّح إني واحد أناني وإن كل دي مشاعر مزيفة، مستحمل من زمان وساكت، مفيش عربية، مفيش فلوس، وفي الآخر بابا بيكلمني عن الحب، حب إيه بس؟!!

أجابت أمي في حزن:

– يا ابني ماهي الفلوس في الأول وفي الآخر ليك، هي يعني أرض البلد في الآخر هتروح لمين؟

قال والدي بعد أن هدأ قليلًا: عايز الفلوس إمتى ياطارق؟



أخيرًا وافق.. قلت بسرعة: في خلال أسبوعين، ربنا ما يحرمني منك أبدًا يا بابا.

- ربنا يحميك من نفسك ياطارق.

كتمت غيظي ولم أعلق، لا وقت لدي لمناقشة المشاعر الداخلية للآباء، وتأثير الأنانية على الحب، وكل هذا اللاشيء.

اتصل جاك في وقت متأخر من الليل، كنت على وشك النوم، رأيت الرقم فانتبهت..

- هالو سيد رمّاح، ستقابلني في أوستن بعد أسبوعين من الآن، لقد حجزت لك غرفة في أحد الفنادق، سأنتظرك ومن قبلك المال المحوّل هنا بالتأكيد، هل كلامي واضح أم أن لديك استفسار؟

- واضح.

- اتفقنا.

- لحظة مستر جاك، كيف ستتأكد أنني قمت بتحويل المبلغ المتفق عليه لأمريكا؟

- لن أتأكد، أنا وحيد وأرغب في امرأة تسليني وابنة أحضر حفلات البيانو الخاصة بها، سأحتفظ بإيفيت ولارا إذا حاولت خداعي بالتأكيد.

- إيفيت ولارا!! كيف عرفت اسميهما؟

- مستر رماح أنت لا تعرف مع مَن تتعامل، لقد قمت بالتأكد من كلامك وإلا ما بدأت بالحديث معك، ترى لماذا تأخر اتصالي بك أسبوعا كاملًا؟ أنا لست هاويًا والأهم من ذلك أن كوزمان ديلابينا ليس هاويًا كذلك،



كوزمان شيطان في صورة إنسان، فلتشكر ربك، أنني عرفت بعض المعلومات عنه.

- آخر سؤال، كيف أتأكد أنك لن تستغلني للدخول للبنك وأخذ الأموال، دون أن تعيد لي أسرتي؟

- سأسألك أنا، لم أفعل ذلك؟ هل سأدخل البنك مصوبًا السلاح إلى ظهرك لإجبارك على سحب ٧٥ ألف دولار فقط، أم أن الأفضل هو اقتحام البنك مسلحًا وسرقة أكثر من هذا بكثير؟ على العكس ستكون أنت حِملًا ثقيلًا، لا فائدة منه، أنا لست غبيًا أو قاسيًا إلى هذا الحد، لن آتي برجل من الشرق الأوسط ليكون سببًا في دخولي بنك هنا في أمريكا، صدقني، سترى أسرتك ثم تُحضر لي المال وتعود للقاهرة كأبطال السينما.

- اتفقنا.

أنهيت المكالمة وظللت ممسكًا بالهاتف، سرحت قليلًا ثم أخذت قراري النهائي، سأكون بطلًا للنهاية، في أسوأ الظروف ستكون رحلة سيئة ثانية أمريكا، خسارة أموال كثيرة لكنها ليست نهاية العالم، هذا (الجاك روبي) هو من كان يحيرني، كيف لرجل واحد أو مجموعة من الرجال، تحطيم أسطورة كوزمان في دقائق؟

حددت ميعاد السفر ثم أرسلت للوزارة لإعلامهم.. أحضر والدي المال، جاء يومها بعينين حزينتين، ليس على المال وإنما بسبب القلق عليّ، طمأنته وطلبت منه الدعاء، لا أعلم لم سرى حزنًا في قلبي عندما رأيته، حزن كبير ربطه بضيق والدي مني، اعتبرته إشارة من السماء برفض هذا الطريق، أكرر لك أنني لم أكن خائفًا بل حزينا، وهو ما لم أفهمه وقتها قط، أنتظر نجاحًا تاريخيًا سيظل عالقًا بعقلي وعقل أحفادي لكنني لست



راضيًا، شعور غريب يثبط من عزيمتي عادة حينما أقترب من نجاح كبير.. تلك المرة لم يكن أمامي سوى التوغل أكثر، فإما نصر حقيقيّ أو سراب أخسر معه كل شيء.

في الطريق للمطار هاتفت والدتي..

- هتوحشيني.

- ياحبيبي تروح وتجيلنا انت ولارا وايفيت بالسلامة، والله مستبشرة خير وهتشوف، بس مالكش بركة إلا ابوك، ده مالوش في الدنيا غيرك وبيحبك.

- انتي كمان ياماما خلي بالك منه، بحس إن مفيش مشاعر واصلة ليكم مني، أعمل إيه بس؟!! أسيبهم خالص واتجوز واحدة تانية علشان ترتاحوا؟

- ماحدش قال كده يا ابني، بس دى واحدة أهلها مايعرفوش ربنا وليهم حياة غير حياتنا خالص

- ياماما مراتي وبنتي حاجة تانية.

- عارفه والله، أبوك بس قلقان عليك وعايزك بخير.

- أنا راجع بعد أسبوع ماتقلقوش، ادعيلي انتي بس.

- داعية لك على طول يا ابني، بالخير وبهداية النفس.

قالتها وانهمرت في البكاء حتى لم أعد أتبين ماذا تقول، بعد ثوانٍ قالت بصوت متهدج:

- مع السلامة إوعى الدنيا ولا الشيطان يغموا عنيك،



لما الدنيا بتدي قلم على الوش، الأغبياء بس هما اللي بيفكروا يردوا القلم، إنما الناس اللى قلبها طاهر عارفه إن الصبر بس هو الصح، مش هقولك غير خلي بالك من نفسك وطمني لما توصل.

- حاضر يا أمي.

- مع السلامة.

مازالت أمي ترى الجانب الجميل في الصبر، ماذا يفعل الصبر بالإنسان إلا إضاعة الفرص له، الإنسان يصبر حتى يصبح مثل الآلة، معتادًا على الصبر فإذا جاءت المعجزة أو تكررت الفرصة هاجمه هاجس الفشل، هكذا يموت ويموت معه اسمه، هناك مليارات عاشوا من آدم حتى الآن، هل تذكر من مات منهم بسبب الأمراض، الأوبئة، الحروب، الثورات.. إلخ؟ بالطبع لا، اليك المفاجأة: هناك سبب آخر قتل أكثر من ضحايا ما سبق، إنه الصبر، الرضا بالحال، رفض هدايا القدر.. بعد أن تعيش لسنوات كورقة شجر في الغابة لاتنتظر أن يمدح الناس في جمال لونك الأخضر، أنت مثل كثير ولن ينقذك إلا صبغة جديدة تليق بك، تمرَّد، أحِب نفسك، نفسك الحقيقة التي في أعماق ذاتك وليس النفس التي تُروى بالطعام والشراب ومضاجعة النساء، خُلقت لتعيش مائة عام على الأكثر، أليس كذلك؟ فلتحيا إذًا ملايين السنوت في أفكار أحفادك وأتباعك والمهووسين بك، فلتحيا ملايين السنوات من أكسجين الورق الأخضر..

وصلت المطار، كنت قد رتبت كل شيء مع أمين الجزار، أنهى زميل قسم الزيتون القديم الإجراءات، واطمأن على وجود إذن السفر من الوزارة، ثم أوصلني الى صالة انتظار الطائرة، ابتسمت له وطلبت منه



انتظاري بعد سبعة أيام..

قال في اهتمام مصطنع:

- ماتقلقش حتى لو مش نبطشي هجيلك.

هذا الودّ له سبب بالتأكيد، عرفته بعد أن سلّمت عليه حينما قال:

- بيقولوا الآياد هناك رخيص أوي، شوفهولنا هناك بكاام ياطارق..

ضحكت

- ماتقلقش يا جزار ادعيلي بس الأسبوع ده يعدي على خير وكل حاجة هتبقى تمام.

* * *

المشهد الثالث

تكساس من جديد.. الولاية التي تعني بلغة الهنود الحمر (مدينة الأصدقاء)، والتي لم ارَ فيها أي بُشرى تمس الصداقة، أعتقد أن الهنود الحمر هم آخر البشر تمتُّعًا بجمال الولايات المتحدة الحقيقي، جمال الأرض البِكر، والحياة الخالية من الحروب، حتى ظهر الإنجليز وانتهكوا تلك المتعة في عنف رهيب، أحيانًا تشعر أن طاقة الرعب التي شعر بها الهنود الحمر، مازالت تنتقم من أحفاد مغتصبي أرضهم حتي الآن، في معاملاتهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض.

وصلت إلى مطار أوستن، وتوجهت للفندق الذي حجز لي جاك غرفة به، نفس الوجوه والأضواء وفاترينات المحال الجذابة، كل مدن الولايات لها نفس النبض الصارخ هذا.. كان الفندق تلك المرة بموقع هادئ نسبيًا،



بعيد عن المدينة، بضعة كيلومترات جعلت الفارق بينه وبين فندق سان أنطونيو ضخمًا، أكثر هدوءًا لكن أقل فخامة، أكدت الحجز، وصعدت لغرفتي في الطابق الأخير، لم يكن هناك مصعد، فالفندق من ثلاثة طوابق لا غير، فزّاعة إيفيت لم تكن موجودة تلك المرة لكن إيفيت نفسها كانت غائبة.. شعرت بحالة من الألفة النفسية بيني وبين الفندق، تشعر أنه بنسيون مصري في المحروسة، أو أنك داخل رواية نجيب محفوظ الشهيرة ميرامار، ربما تجد شادية ترتب لك اغراضك أيضًا.. دخلت الغرفة ومنحت بقشيشًا للعامل ثم جلست على طرف السرير فتبدّلت مشاعري، هاجمني شعور بالغربة عمّا يحيط بي من ماديات، ظاهرة طبيعية تحدث للكثير تسمي جامي فو - عكس ظاهرة الديجا فو الشهيرة - لكن زاد عليها غربتي عن ذاتي كذلك، كأنني في حلم أو منسلخ عن جسدي وأشاهد نفسي من بعيد..

فجأة، لمحت بطرف عيني شخصًا ما يقف في وسط الغرفة، هل هذا حقيقي أم أن عدم واقعية المكان انتقلت للأشخاص كذلك؟ ربما خرجت (شادية) كذلك من الرواية وصارت رجلًا في هذا المشهد، مرّ خاطر على بالي ثم بدأت في استيعاب ما حدث، قلت دون النظر إليه وأنا أبتسم:

- أنا لا أحتاج كل هذا الإبهار سيد جاك كي أصدقك، لقد جئت إليك بالفعل، لا داعي لهذه الحركات الصبيانية إذا

ضحك حتى جلجلت ضحكته في المكان وقال:

- هل هو ثبات انفعالي أم إرهاق مابعد السفر؟ لا تنكر أني فاجأتك منذ البداية، مرحبًا بك في الولايات المتحدة الأمريكية.

هنا نظرت إليه ودققت النظر، كان رجلًا قويًا في بداية العِقد الخامس



من عمره، مفتول العضلات بشكل متناسق، طويل القامة، حاد النظرات ذو شعر أسود كالفحم، بشرته حنطية مشوبة بنمش خفيف، وأسفل عينه اليمنى مكان جرح طويل بالعرض، للوهلة الأولى ستظن أن جاك رجلٌ وسيمٌ، لكن عندما تدقق النظر ستشعر أن رجولته غالبة على الوسامة، رغم أعوامه الأربعين بدا قويّ البنية وهناك لمحة في ملابسه تدل على اهتمامٍ كبيرٍ بمظهره، الجاكيت الجلد الأسود مع التي شيرت الأبيض،أسفله سروال جينز وحذاء من ماركه شهيرة..

رحبت به فوجدته مرحًا يميل لإلقاء الدعابات طول الوقت، رغم ذلك شعرت أن هناك لمحة حزن بداخله، رجل بلا زوجة وأطفال أو حياة مستقرة يجب أن يكون حزينًا، هو لم يتكلم عن حالته الاجتماعية، لكن رجل قضى أغلب وقته بين القتل، وحروب العصابات والجلوس على شبكة معلومات غير مشروعة، بالتأكيد لن يجد الوقت لفحص مشاكل أبنائه في المدرسة.. قلت في هدوءٍ:

- أنت رجل أهل للثقة سيد جاك، أتمنى أن تكون أفعالك في نفس قوة مظهرك.

- سترى بنفسك أيها المصري، بالمناسبة، أنا أعشق مصر كثيرًا، زرتها وأنا طفل صغير.

- وهل كنت يومًا ما طفلًا صغيرًا مثلنا؟

قلتها وابتسمت، فانفجر ضاحكًا، كان من السهل إضحاكه كذلك..

- سأقابلك في لوبي الفندق في التاسعة صباح الغد، أنا بالغرفة المجاورة لك، لقد قطعت وعدًا على نفسي أن أجعلك ترى مالم تره في تكساس من قبل.



- أنا لم أرَ شيئًا في تكساس من الأساس بسبب تلك الليلة المشئومة.

- إذًا دع نفسك لي.

- هي لك بالفعل.

اقترب مني بشكل مفاجئ واحتضنني بقوة وهو يقول في ثقة:

- لا تقلق يا رماح، ستعود أسرتك لك هذا الأسبوع

ثم أكمل محذرًا: في الصباح أريدك نظيف تمامًا؛ لا موبايل، لا كاميرا، لا أقلام، لا سجائر أو ولاعات.. جيوبك خالية تمامًا، سأفتشك بالطبع.

- لماذا كل هذا؟

- الاحتياط ضروري، أنا لا أعرف شيئًا عن نواياك.

رغم ضيقي من تحذيره، إلا أنني شعرت بعاطفة حقيقية تنبعث من هذا المصارع، كأنه عربي، راجعت كلامه، فوجدته لم يخلف اتفاقه معي في شيء، لم يطالبني بمالٍ قبل التنفيذ مثلًا.. حاولت إقناع نفسي أن كل هذا هراء وألّا أثق في قاتل مأجور أبدًا مهما حدث، لكن شعوري لم يتغير، خرج من الغرفة، تابعته فوجدته داخلًا الغرفة المجاورة بالفعل، لم أغيّر ملابسي، دخلت في سباتٍ عميق لليوم التالي دون حراك تقريبًا.

قابلته في الصباح كما طلب مني، كنت أشعر بخلل في ساعتي البيولوجية اللعينة، عرض عليّ دواءً لتخفيف ألم صداع السفر فرفضت، لن أثق به حتى انتهاء مهمته وأرى أسرتي أمامي، أما الآن فسأبقى منتبهًا له وبشدة، خرجنا من الفندق فوجدت سيارته ذات الدفع الرباعي واقفة وسائقه الخاص بداخلها، يبدو أن مهنة القاتل المأجور مربحة بالفعل، عرف جاك مادار في ذهني فردّ عليّ قائلًا:



- أنا أعمل في هذا المجال منذ عشرين عامًا وأكثر، سافرت بلادًا كثيرة، وليس لي نشاطٌ محددٌ كما ترى، بدأت بالمخدرات ثم السلاح، وحاليًا عمليات محدودة عندما أطمئن لها فقط.

- كيف تطمئن في التعامل مع رجل مثل كوزمان ديلابينا، لا أريد أن أخيفك، لكني رأيت هذا البغيض وتعاملت معه، أنصحك أن تكون جاهزًا لكل شيء، هذا الرجل داهية بمفرده، فكيف إذا كان محاطًا برجاله وهم - كما تعلم - على أهبة الاستعداد للتعامل دائمًا.

لم يظهر على ملامحه التأثر بكلامي مطلقا وقال في بساطة:

- لا تخف، لقد درست طبيعة كوزمان الأسابيع الماضية جيدًا، ولديّ خرائط للقصر وأماكن الحراسة والدخول والخروج، كوزمان ديلابينا من القلائل المسيطرين على تجارة المخدرات في العالم، مثل (ليو زيون) الشهير بـ(الملك) في الصين، لديكم (نصيف عازر) في الشرق الأوسط، لبناني، هل تعرفه؟

- لا

- هذه أسماء لا تحتاج للدراسة فقط يا سيد رماح، تحتاج للجراة كذلك.

صمتّ ولم أعلق، هو حر، هو من سيقاتل ويخطف ويعود سالمًا، أفلح إن صدق..

هل تريد سماع تفاصيل جولتي بأوستن معه يا بافوميت، أم أنك زرت كل الأماكن من قبل؟ لقد تحول الرجل فجأة إلى مرشد سياحي محترف، يعلم كل أماكن البهجة في أوستن، ويجيد الحكي عنها باقتدار،



الغريب أنني استمتعت بتلك الجولة، ونسيت تمامًا أن زوجتي وابنتي مخطوفتان، أتنزه مع قاتل مأجور ونتعامل معًا بودٍّ غريب، ودّ حقيقي ليس مصطنعًا، لا أظن أن القتلة المأجورين يتنزهون مع العميل قبل كل عملية.. حكى لي عن مغامراته في الصين التي يعشقها كثيرًا ويذكرها أغلب الوقت، وأن مساعده الأول من أصل صيني، قال لي إن الصينيين لهم حضارة كالمصريين، لا يتنازلون عن مبادئهم رغم قسوة الحياة هنا في أمريكا، طمأنني كذلك أن هذه ليست رحلته الأولى للمكسيك، وأنه قام بعملية أو اثنتين هناك من قبل لصالح خصم من خصوم كوزمان، لذا كان يعرفه جيدًا، وصلنا أحد البارات القريبة فطلب لنا شرابًا..

– هل معك عدد كافٍ من الرجال؟

– لا تقلق، معي من الرجال، الفرد منهم يعادل عشرة من رجال كوزمان.

– متى ستبدأ إذًا؟

– ليس هذا من شأنك، ستقابلني في الفندق بعد خمس ليالٍ من صباح الغد، ومعي زوجتك وابنتك، بعد رؤيتهما ستسحب المبلغ المتفق عليه من البنك لتسلمه لي ،وستجد أسرتك بالقرب من الفندق، نصيحة منّي، اهرب بسرعة، لا تبقَ في الولايات المتحده دقيقة واحدة بعد انتهاء المهمة، كوزمان لن يرحمك إذا عرف مكانك ودورك فيما حدث، اتفقنا؟

– تمام، وإذا لم تعد لا قدّر الله؟

– في هذه الحالة اهرب بأقصى سرعة ممكنة؛ لأن كوزمان سيصل إليك أيضًا، في كل الحالات، نتمنى أن يعرف بأمرك وأنت تشرب عصير المانجو بأحد شواطئ شرم الشيخ، أليست مدينة مصرية أم اختلط عليّ



الأمر؟

- موجودة في مصر ياجاك.. موجودة.

صمت برهة ونظر مبتسمًا. قال:

- هل تحبها؟ كان يقصد زوجتي وليس شرم الشيخ بالطبع..

لماذا يشكك الجميع في حبي لإيفيت حتى الرجل الذي قابلته مرة واحدة في حياتي وأسعى عن طريقه لاستعادتها، هل مشاعر القتلة مرهفة لهذا الحد؟ قد يطلب مني كتابة قصيدة كي تقرأها إيفيت في طريق العودة من المكسيك.

قلت في نفاد صبر: لا، لا أحبها، قطعت كل تلك المسافة من أجل التنزه في أوستن بصحبة شخصكم الكريم، ماذا بك يا رجل؟

- أنت لم تفهم قصدي، هناك شعرة بين الحب وبين مايجب فعله، الحب يلقي بمسئولية ضخمة عليك، لكن المسئولية لا تعني أبدًا أنك تحب، أنت ضابط شرطة وقد تجد المسئولية ملقاة على عاتقك حتى لو لم ترد أنت ذلك، لكن بالنهاية ستستمر في عملك ولن تقصّر فيه، ثم إنك رجل عربي شرقي وهذه نقطة لا يجب إغفالها، سمعت عن عربي قتل مئات البشر لأن أحدهم سبَّ أمه أو زوجته، لا اذكر، ليُقال إنه أخذ بثأره ولم يتوانَ في دفاعه عن شرفه؛ لهذا أكرر عليك السؤال، هل تحب إيفيت، هل تستطيع أن تكمل حياتك بدونها؟

قلت في شكل تقريري: أحبها يا جاك ولن أستطيع إكمال حياتي بدونها، وأرجوك، أرجوك أعدها لي في أقرب وقت.

رن جرس هاتفه المحمول فنظر إلى ساعته وقال:



- آسف ايها المصري، حان وقت العودة للفندق، سأنطلق فجرًا للمكسيك.

* * *

قبل بداية اللقاء بين طارق وجاك في الصباح، كان هناك رجلٌ يجلس في بهو الفندق بشكل هادئ، يرتدي «تي شيرتا» وبنطالًا قصيرًا (بنتاكور)، رجل له لحية خفيفة وضفيرة من نوع (ذيل الحصان) الشهيرة، ويمسك هاتفًا محمولًا بيده، عيناه تتابعان مصعد الفندق حينًا، وجاك روبي الجالس في هدوء يستمع إلى الموسيقى حينًا آخر، بعد دقائق، ظهر طارق وسلّم على جاك ثم خرجا سويًا لسيارة الأخير في الخارج.. انتظر الرجل عشر دقائق ثم خطا خطوات رشيقة ناحية السلم، صعد لغرفة بالطابق الثالث، تأكّد من الرقم المحفور بشكل جمالي على الباب، وأخرج من جيبه الكارت الممغنط الذي أعطاه جاك له، ودسه في المكان المخصص له بالباب، ، نظر يمنة ويسرة ثم دخل الغرفة، غرفة من؟ طارق رمّاح بالطبع، صار دخول غرفته عادة للمجرمين في الآونة الأخيرة، كلّفه جاك بمهمة محددة بدقة هذه المرة، «انقل بيانات هاتف طارق المحمول لهاتف جديد، عليك تفتيش غرفته جيدًا في البداية ثم تحاول مع لعبة الأرقام»، أخذ يعبث في أول الأمر بمحتويات الغرفة بشكل سريع ومتقن، خزانة الملابس، أسفل السرير، بجوار المقاعد، فوق التلفاز، دورة المياه الملحقة بالغرفة، الهاتف لم يكن موجوداً، كرر البحث مرة ثانية حتى يتأكد من عدم وجوده، لم يجد شيئًا، هنا انتقل الرجل ذو الضفيرة للاحتمال الثاني والأخير، خزينة الأشياء الصغيرة ذات الأرقام السرية الموجودة بكل غرفة، أخرج ورقة بيضاء صغيرة بها سبعة أرقام وكل رقم مكون من أربع خانات، رقم الخزينة لن يخرج عن هذه الاحتمالات السبعة، كان جاك قد وضع جهاز



تصنت صغير خلف الخزينة قبل دخول طارق للغرفة، وعندما ثبت طارق الأرقام السرية، كان ذو الضفيرة في غرفة جاك يستمع إلى صوت الأزرار ويحلله، نجحت الفكرة في المحاولة السادسة، ١٩٧٦، غالبًا هذه سنة ميلاد ذلك المصري، هكذا فكّر ذو الضفيرة.. أخرج هاتف طارق من الخزينة وخلع الغطاء الخلفي له، ثم أخرج كارت الميموري ونسخ كل شيء به في الهاتف الثاني، بعدها التقط صورتين لجواز سفر طارق من الداخل بكاميرا الهاتف الثاني، أعاد كل شيء لسابق عهده وأغلق الخزينة بهدوء، هذه أسهل مهمة له منذ بداية عمله مع جاك

«رووم سيرفس»

جاءه الصوت الأنثوي قادماً من الخارج فارتعد قليلاً..

«رووم سيرفس»

كررت العاملة تنبيهها فهتف بصوت عالٍ: لا أريد الآن، شكرًا.

- سيد رمّاح نأسف لإزعاجك، لكن الأمر يتعلق بالفحص الدوري لجهاز المدفأة الخاص بالغرفة.

- لا أريد أن يدخل أحدٌ عليّ الآن.

- آسفة مستر رماح، سنعود في المساء، أرجو أن تقبل اعتذاري مرة أخرى.

تنفس الصعداء، وانتظر ربع ساعة بالداخل حتى اطمأن لعدم وجودها بالممر ثم خرج، بالطبع لن يخبر جاك بما حدث من خدمة الغرف، لا داعي لأن يتعرض لغضب وحش مخيف مثله.



المشهد الرابع

لا أحد يهرب من قصر المسيح ويبقى دون عقاب.. لا أحد يهرب من عقاب كوزمان ديلابينا، هذه هي القواعد هنا، لهذا لم أحاول أخرقها، حتى لا تأتي الأمور بنتائج عكسية، السجن هو أسوأ عقاب للإنسان حقًّا، لا أعرف من هو مخترع فكرة السجن، لكنه يقبع الآن في قبره مصحوبًا بلعنة ملايين البشر الذين تجرعوا من كأس العزلة، سمعت عن سجون في هولندا والنرويج يقرأون فيها وحوائطها زجاجية، حالة من الرفاهية بالنسبة لسجون باقي الدول، أؤكد لكم أن هؤلاء المساجين في تلك الرفاهية يموتون ببطء مثل الآخرين تمامًا، لا توجد زنزانة في جمال غرفتي، ولا يوجد سجن في رفاهية قصر المسيح، لكنني كنت كالموتى طول الوقت، أسير كالزومبي بين غرف القصر، لا أستطيع التركيز مطلقًا، غصة رهيبة في حلقي طول الوقت، قلبي ينبض على استحياء مني، أتمنى الموت، لم أطق نفسي في تلك الصورة، وجه شاحب، عينان ذابلتان، ودموع محبوسة لا تجد الطاقة للخروج.. جسدي الواهن لم يبقه حيًّا سوى رؤية ابنتي لارا، صغيرتي التي لم تستوعب ما نحن فيه، ترى جدها المخبول يلاعبها فتستجيب، أحضر لها ألعاب لم تشاهدها في مصر، فانبهرت عيناها أكثر وأكثر..

«اريد الذهاب للّعب مع جدي»

كان هذا طلبًا ثابتًا في بداية كل يوم لنا في القصر، القصر لم يكن غريبًا عنّي، له ذكريات ممتعة وأخرى بغيضة لا أحب تذكرها، أحيانًا كنت



أتكلم مع مربيتي ماريان، لم تجد حلًا لي بالطبع، لكنها كانت تخفف عني بحنانها.. تمنيت كل ساعة أن يعود الزمن ليوم سفرنا للولايات المتحدة فأجد الحزن محيطاً بي لإستحالة الأمنية، فكّرت: هل يعتبرني طارق زوجة خائنة؟ صحيح انها خيانة من نوع خاص، لكنني لا اعرف وصفاً دقيقاً لما حدث، المعتاد هو اخفاء الزوجة الخائنة علاقتها برجل آخر، السخيف في تلك الحالة أن الآخر ليس عشيقًا، بل والدها.. آاه منك يا كوزمان، كيف تجمع في طيات شخصيتك كل هذه التناقضات؟ الحب والكره، الحنين والجفاء، اللين والقسوة، حتى الجنون والنجاح يسكنان بداخلك.. وانت يا طارق، هل تشعر بما أشعر به؟ هل تسمع صراخي كل يوم؟ اللقاء يُطفئ لهيب الشوق، لكن رضاك كان عندي أهم من اللقاء، فما بالك بوحدتي وسخطك عليّ؟ أدعو الله أن تدرك ما قلته لك قبل الوداع وأن تسامحني..

في أحد الأيام فقدت الأمل في الحياة، وسيطر اليأس علي نفسي، وقفت في غرفتي أسفل فم المسيح تمامًا ورفعت وجهي عاليًا للسماء وصرخت: أليس المسيح نبيّك أيضًا كما قلت، فلتسمع صراخه وترحمه إذاً ياقادر.. شاهدت طفلتي وهي تلهو مع كوزمان في حديقة القصر فقلت لنفسي: لن أنتظر كثيرًا حتى أرى روحًا أخرى تموت ببطء في هذا القصر بسبب هذا الرجل..

وقفت على حافة الشباك الزجاجي المطل على الحديقة، أمسكت القضبان بكلتا يدي، وصحت في جنون:

«أراك في الجحيم أيها الحقير، بينما ستراني أنت مع أسرتي في النعيم»

لم يحرك ساكنًا، نظر إليّ في برود، ثم أكمل لعبه مع لارا التي ضحكت لي



ظنًّا منها أنني أداعبها من غرفتي، للأسف هذه ليست مداعبة يا لارا، أرخيت أعصابي تاركة جسدي يسقط من أعلى، لم اجد الوقت لاسترجاع الذكريات مثل الأفلام، ارتطمت بالأرض بعد ثلاث ثوانٍ فقط، قلت فيها بصوت خفيض:

«لسوف أشتاق إليك يارماح»

***

المشهد الخامس

الرمال مرة أخرى.. حنين قديم يأخذك لصحراء المكسيك الشاسعة (أطراف صحراء سونورا الجنوبية)، الصحراء الرطبة على خلاف باقي الصحاري قاطبة، الصبار الضخم، طيور جارحة وثدييات وزواحف وقوارض لا تعلم كلها شيئًا عن سيارتي الدفع الرباعي الضخمتين اللتين تغزوان أرضها متجهة إلى الحدود، ثمانية رجال تشبه رحلتهم رحلة العظماء السبعة - الفيلم الشهير - يقودهم جاك روبي القائد المحنك، «قاتل القتلة» كما يحب أن يناديه رجاله نسبة إلى جاك روبي الحقيقي (مهاجر بولندي انضم إلى عصابة آل كابون الشهيرة في سن السادسة عشر، اشتهر بسبب قتله «هارفي أوزوالد» قاتل «جون كينيدي» وتمت إدانته ليصدر حكم الإعدام في حقه لكنه لم يُعدم وتوفي بعد وقتٍ قصير من إعادة فتح القضية، كان جاك جالسًا في السيارة يتحدث طول الطريق عن أمجاده السابقة في الصين والمكسيك في فخر، كأنه يتكلم عن مبعوث الأمم المتحدة وهو يسعى لحل الصراعات بين الدول، قال في صوت عالٍ كأنه يخطب في حشد ضخم:



- المكسيك بلد لا تعرف الرحمة، وبلدة نويفو لاريدو أسوأ ما في المكسيك تقريبًا، الرجال هناك موهوبون حقًّا في الجريمة، بمجرد أن تقتل شخصًا تتحول إلى بطل هناك، بلدة تفتقر للشرف أيها الجنود، لكننا سنعرف كيف نطهّرها من ذاك المدعو كوزمان ديلابينا، هل تطمحون لذلك معي؟ قال الرجل ذو الضفيرة في صوت غليظ (يبدو أنه الذراع اليمنى لجاك أو أقرب رجاله):

- بلي يا صائد القتلة، لكن ألا ترى أن المبلغ الذي سيدفعه هذا المصري لم يغطِ سوى قيمة الأسلحة والطعام والشراب طوال الرحلة، بالإضافة إلى رشوة رجال الشرطة على الحدود، ماذا سيتبقى لنا بعد العودة؟

- اصبر قليلًا أيها الأبله، بعد عام من الآن ستعرف أن الـ hunter assassins لا يفعل شيئًا دون مقابل، لقد أعطيت الرجال حقهم بالكامل من قبل أن نبدأ، فلا تخاطبني بهذه الطريقة مرة أخرى، هل تفهم؟

قالها ثم اقترب منه بشكل مسرحي، وجذب أجزاء السلاح في قوة تاركًا إياها تحدث صوتًا قويًّا ثم عاد إلى وضعه الطبيعي ناظرًا أمامه للصحراء الواسعة.

استمرت السيارتان في نهب الطريق نهبًا حتى وصل الرجال إلى منطقة تشبه الكهوف، وقت الغروب جعل المشهد صورة من الجمال الإلهي غير المعقول..توقفت السيارتان وترجل منها ستة رجال فيما عدا السائقين اللذين حمدا الله على عدم خوض باقي الطريق، عرفا من جاك أنهما سيناما داخل السيارة لحين عودة الرجال بعد ثلاث ليالٍ، إن لم يعد أحدٌ منهم فليَعُد السائقان دون أسئلة، دخل السبعة إلى الكهف خلف جاك،



أخذوا في السير لنصف ساعة حتى وصلوا لبئر غريبة الشكل مغطاة بلوح زجاجي سميك، كان المنظر بالأسفل مخيفًا، يشبه النفق بشكل كبير، قال جاك في قوة:

- سننزل، توجد وسائد مطاطية ضخمة بنهاية هذه البئر.

قالها ثم أمسك حافة البئر ونزع الغطاء الزجاجي ووضع ثلاثة أرباع جسده داخل البئر، ثم ترك يده فانزلق بسرعة، نظر باقي الرجال بعضهم لبعض ثم تشجّع ذو الضفيرة وتبع قائده ومن بعده باقي الرجال كأنهم داخل ملاهٍ يلعبون (ووتر سكيينج)، عندما وصل الجميع لأسفل، سمعوا رجلًا يوجّه حديثه لجاك قائلًا:

«أيها الوغد، لقد انتظرتك في هذا المكان القذر طويلًا»

* * *

المشهد السادس

لم أمت، غبت عن الوعي أيامًا كثيرة في غيبوبة، نزيف في المخ وبعض الكسور في ذراعي وقدمي اليمنى، أعتقد أن الارتفاع لم يكن كافيًا ليسبب الوفاة، لماذا لم أشرب السم أو أقطع شرايين يدي؟ ربما بسبب الهجوم المفاجئ لرغبة الانتحار أمام والدي لحرق قلبه، حُجزت داخل المستشفى أيامًا طويلة لم أستطع حسابها، تلك الأيام لم أرَ لارا ولا حتى كوزمان، صلتي بالعالم الخارجي كانت تنحصر في رجل يقف على باب غرفتي بالمستشفى، في حال احتجت شيئًا أو أردت الاطمئنان على لارا تليفونيا، أخبرت الصغيرة أنني كنت ألاعبها فسقطت، أخبرتني أن جدها لا يتركها نهائيًا وأنها تنتظرني في شوق.



عدت إلى القصر، اللعنة على القصر وكل ما به، كنت أتحرك بمساعدة عكازين وخضعت لجلسات علاج طبيعي داخل غرفتي، صديق والدي وطبيبه النفسي في نفس الوقت، كان يأتي من آنٍ لآخر ليتكلم معي عن الأمل وحب الحياة وابنتي، في البداية كانت كلماته تسبِّب لي ضجرًا رهيبًا، لمجرد أنه صديق كوزمان لكن بعد فترة قصيرة شعرت بأهمية حياتي، يجب أن أعيش للارا، تخيلت حال لارا عند وفاة كوزمان بعد انتحاري، أبقى الطبيب إيمانًا ضعيفًا بداخلي، ضعيفًا لكنه موجود.. لم يتكلم معي كوزمان كلمة واحدة طوال تلك الفترة، كنت أستمر في النوم لساعات وساعات، أحيانًا كانت تصل ليوم كاملٍ، أتناول الطعام على مضض ومن بعده الدواء، بعد ذلك كنت أشعر برغبة ملحة في الجلوس مع لارا، أتكلم معها فتسأل عن والدها فأبكي وأفكر في الماضي، تمنيت أن أقابل زوجي ولو دقيقة واحدة، تبًّا لكل شيء، لا شيء يتغير البتة..

بعد أيام قليلة أدركت أن الله يسمع ويرى، وأن الكون بالكامل قد يتحرك لتحقيق أمنية أو تلبية لنداء مضطر، لكن عليك أنت استغلال هذه الحركة.. تحركت الأقدار في القصر فجرًا، لم ألحظها منذ البداية بعد أن أرسلها لي الرب في هيئة ستة رجال، كنت نائمة فاستيقظت على صوت انفجار قادم من الخارج، ثم تبينت صوت طائرة هليكوبتر كأنه داخل حجرتي، صرخت في ذعر، آخر مرة استيقظت فيها على صوت عالٍ لم تكن ذكرى محببة لي، ناديت على الخادمة بصوت عالٍ:

«ماريا!!!!!ن ماريا!!!!!!!!!!ن»

هرعت نحو الشباك أفتحه، ألم رهيب اجتاح قدميّ بل جسدى بأكمله، رأيت ضوءًا ساطعًا بالخارج كأنه نهار،



الرجال كانت تتحرك في تنسيق غريب كأنهم رجال شرطة مدربون، صوت طلقات رصاص سريع بسبب اشتباك عنيف بين حراسة القصر والرجال، اختبأت أسفل السرير ثم تذكرت لارا، الصغيرة كانت تبيت مع جدها كل يوم، لم أحتمل فكرة حدوث مكروه لها مرة أخرى.. فتحت باب الحجرة ونظرت يمينًا ويسارًا، لاشيء، سمعت صوتًا قادمًا من أسفل، حجرة نوم أبي، اعتقدت أن هؤلاء الرجال من أتباع خصوم أبي ويريدون قتله، ثنيت ركبتيّ قليلًا كي لا يراني أحد وأنا أسير في الممر حتى وصلت للسلالم، وصلت الحجرة فوجدت جثة ملقاة أمام الحجرة، جثة غريبة لم أرَ صاحبها من قبل، نظرت إلى الداخل فوجدت رجلًا يرتدي معطفًا أسود اللون يضرب كوزمان على وجهه بكعب السلاح والدماء تتدفق من وجه أبي، الرجل كان يرتدي قناعًا غريب الشكل ويغطي وجهه بالكامل، وفي فمه كرة معدنية في حجم كرة التنس، كان أشبه بالغواصين أو ضباط المفرقعات، هجمت عليه من ظهره وحاولت إصابته في رأسه لكنه التفت إليّ وقال بصوت معدني بسبب الجهاز الذي يرتديه:

«إيفيت، اهدئي، أنا هنا لإنقاذك»

نظرت إليه فلم أتبين ملامحه بسبب القناع، كيف يعرفني ومَن أرسله لإنقاذي؟ كان صوت الطلقات يدوي دون توقف، رغم ذلك لم أميِّز سوى دقات قلبي، كأنني في كابوس، أنقذني من هذا صوت أبي وهو يسقط أرضًا وينظر لي قائلًا في ذل شديد:

« هذا الحقير شيطان يغوي كل مقدس....»

لم يكمل كلمته بسبب رصاصة اخترقت جبهته فسقط صريعًا في



الحال، الغريب أن الرجل ذا القناع حمل جثة والدي رغم تأكده من مقتله وألقى به إلى حديقة القصر من الشباك، شعرت بالهدوء في كل خلية من جسدي، كان هدوء وليس تشفيًا.. جذبني الرجل ذو القناع من يدي وصعد بي لحجرتي مرة أخرى، كنت أسمع صوته المعدني يأتي من بعيد مثل صدى الصوت وهو يقول:

«لارا، أين لارا!!!»

الصوت المعدني يكرر اسم ابنتي وأنا في عالم ثان.. والدي مات أيها الرجل المقنَّع، لا أستطيع البحث معك عن ابنتي، لقد جئت لتنقذ امرأة في وضع عجيب، ماضيها العفن كان نائمًا منذ قليل بجوار مستقبلها البريء، تاركان حاضرها مقتولًا بالأعلى، أرجوك لا تتعب نفسك معي، لماذا لم أولد طفلة في فنلندا تغضب من والدها بسبب تناقُض لون (توكة) شعرها مع الفستان؟ أرغب دائمًا في عودة الزمن إلى الوراء، لا يوجد قرار صحيح اتخذته منذ زمن باستثناء زواجي من رمّاح، حتى دراسة الآثار كانت هروبًا من الماضي..... كانت يده مرفوعة أمام وجهي هناك نظرة عجيبة في عينيه قادمة من خلف القناع، نظرة له.. عدت للواقع عندما لطمني علي خدي بقوة، قلت في ذهولٍ: من أنت؟

قال في سرعة وهو يدخل غرفتي: أنا جاك روبي اتفقت مع زوجك رمّاح على إعادتك أنتِ ولارا مقابل المال، أين لارا؟

- لارا كانت تبيت مع جدها كوزمان الذي قتلته أنت منذ قليل.

قال في سرعة: لقد أخرجتها من غرفته بمجرد دخولي، ظننت أنها ستصعد إليكِ.



صرخت بصوت عالٍ: لارا!! لارا!!!!!!..

هناك صوت بكاء قادم من أسفل السرير، جثوت على ركبتي في سرعة ونظرت إلى أسفل فوجدتها، كانت تبكي وتنظر في كفّي يديها متخشبة، قلت في مرح مصطنع:

- لا تقلقي ياصغيرتي، هيًا بنا لنذهب لوالدك العزيز، بابا طارق، هيًا هيًا.

نظرت لي وقالت باكية والعرق يغطي جبهتها:

- أريد أن يأتي أبي ليأخذني..

ضربني جاك فوق رأسي لكنني لم أفقد الوعي، ورأيته - غير واعية - يفتح درج الكومود ويأخذ جواز سفري، شعرت به يحملني على كتفه ولارا على الكتف الآخر، فتركت رأسي تسقط على ظهره وسرحت.. هل أنا السبب في قتلك يا كوزمان أم أنك كنت ستسقط صريعًا بسبب أفعالك يومًا ما؟ هل تتابعني الآن مثل الأرواح التي ترانا بعد ذهابها للعالم الآخر.. خرجنا من القصر، عرفت ذلك بعدما رفعت رأسي فوجدت بابه الخشبي مفتوحًا على مصراعيه، كأنني أشاهد البهو لأول مرة، هناك لوحة العشاء الأخير -مقلدة بالطبع- لمايكل انجلو، من أسفلها آية من الإنجيل محفورة بماء الذهب كأنني أراها لأول م.....للأسف لم أعد أرى سوى جثة أبي ملقاة على العشب وعيناه شاخصتان أمامي.. تم حشر جسدي في الهليكوبتر وبجواري لارا، وسمعت أحدهم يقول:

«لقد قُتل ماولي»

تكلم جاك روبي بشكل آلي، لا يُظهر انفعاله الحقيقي، وقال للرجل



كأنه لم يسمعه:

«أحضر لي جثة كوزمان لنلقيها على طوق المسيح»

أحضرها الرجل، ثم ركب الطائرة التي بدأت في الصعود بعد تأكد جاك من تمام العدد، وعندما علت الطائرة فوق القصر مباشرة أمسك جثة والدي من منطقة الرقبة ثم تركها مرة واحدة مبتسمًا ابتسامة لزجة، ملأ قلبي شعور غريب في تلك اللحظة، كوزمان لم يكن ابًا صالحًا، لكنه في النهاية أبي، تمنيت أن تقوم الشرطة المكسيكية بدور هؤلاء السفلة، أين الشرطة من كل مايحدث هنا؟

استقرت جثة والدي على طوق المسيح ونحن نبتعد بالطائرة، نظرت على القصر من بعيد، لكنني لم أرَ من القصر شيئًا سوى عيني أبي، هناك العديد من الجثث التي تملأ الحديقة الشاسعة، حمَّام السباحة المضيء، المسيح، كل هذا كان كالعدم بالنسبة لي.. الطائرة تبتعد وعيناه مازالتا تنظران لي من بعيد، نبتعد أكثر فتقترب صورتها في عينيّ أكثر وتستحوذ على تفكيري، تملأ روحي وتنتقل لكل النهايات العصبية في خلاياي فأرتجف مثل ضفدع التجارب.. الرجال كانوا يضحكون كأنهم انتصروا في حربٍ، فهمت من خلال حديثهم أن زوجي سيمنحهم مالًا بعد نجاح العملية.. من أين أتيت بالمال يارمّاح؟ بالتأكيد من والدك، حسين رمّاح، الوالد هو الدعم والقوة أليس كذلك يا طارق؟ تري هل انكسرت قوتي تمامًا بعد أبي أم تحررت؟ الأب قيمته أكبر من الأبوة بالنسبة للبنت، أول من تشاهده من الرجال، أبي كان جزء من جيناتي ومن تاريخي لن أستطيع التخلص منه، عيناه كانتا تخفيان الكثير، آآاه يا أبي، خذ عينيك وأعِد لي كرهي لك، أعِدني أتمنى موتك كما كنت البارحة..



الرجال كانوا يلهون بكؤوس الخمر، لماذا لم أعد أشرب الخمر؟ هل أنا مسلمة حقًا؟ هل سيعوضني الدين عن غياب الأب والأم؟ قد اشتقت إليكِ كثيرًا يا أمي، اشتقت إليك حقًا أيتها...... فقدت الوعي الطبع، هذه أسرع طريقة للتخلص من زحام الفكر والدموع.

* * *

المشهد السابع

طرق أسفلتية، أنفاق، حبال نصعد عليها أنا ومن يحملني، لا أعرف اسمه ولكنه يشبه الأمريكان، ربما كان أمريكياً بالفعل، رجل ثان حمل لارا.. كان هناك رجال مكسيكون يودعونهم، يبدو أنهم من سهّلوا مرور جاك ورجاله داخل المكسيك، صحراء سونورا الشاسعة، هنا بدأ ذهني يصفو قليلًا، لم أكن مقيدة أو مكممة الفم أو هناك أي تقييد لحريتي، ثلاثة رجال معنا بالسيارة بالإضافة للسائق يقودهم ذو الضفيرة، وسيارة ثانية تتقدمنا، بها جاك روبي ومعه رجلان، كان الأربعة يتعاملون مع بعضهم كأنني غير موجودة بالسيارة، من الحين للآخر يعرضون الطعام والشراب فآخذ القليل دون كلام، بعد فترة خارت قواهم فناموا جميعًا فيما عدا السائق بالطبع، اما انا فلم أستطع النوم باستثناء دقائق هاجمني فيها كابوس عيني والدي..

عند استيقاظهم بعد ثلاث ساعات تقريبًا، قلت في شكٍّ:

- هل نحن ذاهبون إلى تكساس؟

- بلى..



- لماذا قتلتم والدي؟ كان بإمكانكم خطفي أنا ولارا دون قتل كل من بالقصر!

قال ذو الضفيرة: لسنا رجال مخابرات لنفعل هذا، المعلومات لم تكن دقيقة لدينا، نحن نقتل فقط للوصول إلى ضالتنا يا سيدتي، وها هي ضالتنا بين أيدينا الآن، أنتِ والطفلة.

- هل زوجي في تكساس الآن أم القاهرة؟

- في انتظارك في أوستن، لاتقلقي.

لم تتكلم كثيرًا بعد ذلك حتى وصلنا لسلك شائك ضخم جدًا في منطقة مقفرة من الصحراء، هنا برز عدد من الرجال من العدم فتعامل معهم جاك، الغريب أنه خلع كرة تغيير الصوت لكنه ظل مرتدياً القناع، دفع لهم مالًا للسماح لنا بالمرور، فاتورة مرور المخدرات والسلاح هي الأعلى هنا بالتأكيد، بينما مرور أم وطفلتها بمثابة تضييع وقت بالنسبة لهؤلاء.. بعد مرور السيارتين، انحرفت سيارة جاك الى اليسار في اتجاه بعيد عن الأسفلت، بينما أكملت سيارتنا الطريق في شكل مستقيم نحو أول مدن تكساس.. ظللت أداعب لارا في مرح بإخراج لساني وتحريك عضلات وجهي، الصغيرة عاشت ما لا يخطر ببال ٩٩٪ من رجال العالم، ستحتاج إلى علاجٍ نفسيٍّ عندما نصل إلى القاهرة، مثلما تلقيت أنا علاجًا نفسيًا في مراهقتي، لا أستبعد تخصيص فصلٍ بكتب الطب النفسي يسمى «نساء كوزمان الحزينات».

***



أوستن.. المدينة العزيزة، لم أتخيل يومًا أنني سأرى الولايات المتحدة مجددًا، حينما دخلنا المدينة، شعرت برغبة في احتضان أهلها وإظهار الامتنان لوجودهم، لا تؤلميني مرة ثانية يا تكساس، كوني أمًا حنونًا تعوضني عن فقدان سيدة قصر المسيح..

«اقتربنا ياسنيوريتا»

قالها ذو الضفيرة بابتسامة سمجة على وجهه وهو يشير ناحية فندق بنهاية الطريق، أخرج هاتفه المحمول وتكلم مع جاك ثم طلب من السائق أن يوقف السيارة على جانب الطريق، دقائق وظهر أخيرًا.. الوجه المصري المليح ذو الابتسامة الساحرة والعينين الخاطفتين، كان يمشي في قوة مرتديًا نظارة شمسية ويتحدث في الهاتف، يشبه أبطال السينما في المشاهد الأخيرة، فرعون أعاد أسرته إلى الحياة مرة أخرى، فتحت باب السيارة وأنا أنظر إليه غير مصدقة، لا أعرف كيف خرجت من السيارة وأصبحت بين ذراعيه، حملني فأحاطت قدماي بخصره وفمي يأكل شفتيه بجنون، ودموعي تنهمر، قلبي كان ينبض بشكلٍ عنيفٍ لخمس دقائق كاملة وأنا بين أحضانه، لارا تقف خلف والدها ممسكة بقدميه من الخلف، كانت هذه أكثر لحظات العمر إثارة، لم أرغب في الخروج من بين أحضانه قط، طارق لا يتكلم، عيناه بداخلهما سعادة كبيرة برؤيتنا لكن ذهنه مشغولٌ بشيء ما، أعتقد أنه المال.. بعد الكثير من القبلات والأحضان مع لارا فتح الرجل ذو الضفيرة باب السيارة الأمامي ونزل منها قائلًا:

- هذه أمانتك، أين أمانتنا نحن؟

قال طارق في ثقة: سأترك المال في غرفة جاك بعدما يصلني جواز سفر



إيفيت..

قال ذو الضفيرة في سخرية:

- لهجتك اختلفت الآن عن السابق.

رد طارق: لقد تعاملت مع جاك منذ البداية ولا أدري لماذا أرسلكم الى هنا، أين هو؟

ظهر الوجه القبيح لذي الضفير وهو يقول في حدة:

- هذا ليس من شأنك أيها المصري، الأموال ستظهر في الكاميرا المثبتة داخل غرفة جاك وأنت تضعها هناك، بعدها مباشرة ستجد من يعطيك جواز سفر زوجتك.

قالها في حدة ثم ركب السيارة وأشار للسائق بالانطلاق، هذا الوغد أضاع لحظات جميلة بيننا، أعتقد أنه كان متعمدًا ذلك، أمسكت يد زوجي الذي أمسك يد لارا، وسرنا باتجاه الفندق، شعور عميق بالراحة والسعادة كان يسري في جسدي كله، تمنيت تصوير تلك اللحظات لأنها أعظم ما وصلت إليه عواطفي، لن يصل الكثير من البشر لتلك الدرجة من العاطفة التي ملأت كياني مع طارق حينها، دعوت الله في سري ألا يفرّقنا أبدًا، ضغطت على يده في رفق ونظرت إليه فوقف، قلت له:

« أحبك، لم ولن يحبك أحدٌ مثلي لآخر العمر»

«أحبك يا إيفيت، لن تجدي في العالم رجلًا في مثل إخلاصي لكِ»

***



حكى لي طارق ماحدث بالتفصيل في الشهور الماضية، وفهمت منه تفاصيل الاتفاق بينه وبين جاك وكيف وصل إليه ،لم ننم ليلتها، حتى لارا لم تصمت لحظة وروت لأبيها ماكان من جدها في القصر، حافظ طارق على خيال لارا الجميل في علاقة لارا الجميلة بجدها، فلم يكن لها ذنب في كل ماحدث.. بعد نوم لارا طلبنا زجاجة كبيرة من الخمر واحتسيناها بالكامل حتى ضاع كل ما بداخلنا من عقل، كانت من أجمل ليالي العمر، نسيت ألم الكسور وحاولت أن يسعد طارق بي مثلما سعدت به..

أشرقت شمس تكساس علينا ونحن عرايا تمامًا، لارا نائمة في سبات عميق، كنت أول من استيقظ ومن بعدي طارق الذي قام بسحب المال من البنك ووضعه في حجرة جاك، دخل بالكارت الممغنط -أعطاه جاك إياه- ثم تركه أسفل الباب مباشرة، لم تمر ساعة حتى وجدنا أحد عمال الفندق يدق باب الغرفة ومعه جواز سفري، منحه طارق بقشيشًا كبيرًا من فرط سعادته..

حجزنا للعودة إلى القاهرة سريعًا،حاولت إقناع طارق بالاتصال بوالديه قبل ركوب الطائرة، لكنه كان مصممًا على مفاجآتهما، أقنعني بفكرة اللحظة التاريخية التي يجب رؤيتها بأعيننا.. وصلنا إلى أرض القاهرة بعد رحلة استمرت يومًا كاملًا لم أنم فيها لحظة واحدة، وصلنا إلى شقة والده فاخفانا عن النظر..

بعد قليل فتح السيد حسين رمّاح، نظر إلى طارق في لهفة وهتف:

- طارق، وحشتني يا ابني.

عناق طويل وقبلات سريعة من الأب، دخلا بعدها إلى الشقة فاقتربت لأسمع الحوار من الخارج، لم افهم سوي بعض الجمل القليلة



بسبب حديثهم بالعامية..

- إيه يا ابني، ولا تليفون من يوم السفر!! عمومًا رجوعك لينا بالسلامة نسّاني أي زعل منك، إوعى تزعل علشان ماتوفقتش في رجوع مراتك، ربنا كبير ومحدش عارف إيه اللي ممكن يحصل بعد كده.

طارق لم يرد، أظن أن السيد حسين كان يبكي في تلك اللحظة، مرت ثوانٍ، سمعت بعدها الأم تتكلم لكنني لم افهم أغلب الحوار.. بعد خمس دقائق - المدة المتفق عليها - ضغطّ زر الجرس، نظرت إلى لارا فوجدتها في قمة الحماس الطفولي..

«مين؟ مييين؟»

صوت الأستاذ حسين، فُتح الباب، ووجدت طارق أمامي يقول بطريقة استعراضية:

«المصري مايسبش حقه أبدًا ياحاج حسين»

هنا تحولت الشقة إلى سيرك حرفيًا، الجدة صاحت بأسمائنا كالمجنونة، وأخذ الجد يلعب مع لارا بشكلٍ طفوليّ، أما طارق فجلس يراقبنا كالطاووس.. بعد أسبوع تقريبًا أقام طارق حفلًا صغيرًا بشقتنا دعا إليه والداه وصديقيه هيثم وشريف.

كانت أيامًا سعيدة في حياة آل رماح.. كل يوم لكم مع أحبابكم يجب أن تحتفلوا به، لا تهملوا التفاصيل البسيطة ليومكم، المعتاد اننا ندور في فلك شيء واحد طول الوقت؛السعادة.. الشيء الوحيد الذي ينتظره كل جيل دون ملل أو فهم.. تأكدت يومها أن الشيء الذي تتوارثه الأجيال حقًا هو الغباء، تحديدًا غباء الانتظار،



القدر يأتي إلينا بالسعادة والخير طول الوقت لكننا نأبى أن نستمتع، نأبى أن نهدأ قليلًا ونفهم أن الحال يتغير، ما نظنه شرًا الآن سيكون خيرًا بعد قليل، وما نراه خيرًا الآن لن يصير شرًا إلا لو سلّمنا بوجوده.



الترنيمة الخامسة

انغمس في الشهوات واستمتع بباقي الأجناس؛ فأنت الأفضل والشيطان يحمي ظهرك.



المشهد الأول

«إشارة من المديرية ياباشا»

دائمًا ماتنسى أنك ضابط شرطة.. تلك الأوقات الخاطفة التي تستخدم بها سُلطتك ثائرًا بعد مشادّة بينك وبين سائق متلكع أو موظف بمصلحة حكومية أو حتى أولوية ركوب المصعد مع جار لك، بعدها يأتي من يذكُرك بقواعد مهنتك الشاقة.. ستُحاسب بشكل أقسى وأعنف من المواطن العادي، هناك شق جنائي لما فعلته ثم يأتي حساب الميري، ستقول لك الوزارة جملتها الشهيرة:

«هوانت مواطن عادي يابيه عشان تتخانق مع الناس.. إلخ» هنا تذهب السكرة وتأتي الفكرة..

«إشارة من المديرية يا باشا»

فلنرَ ما أتت به ريح مديرية الأمن، قرأت نص الإشارة..

«على النقيب طارق رماح سرعة التوجة لديوان وزارة الداخلية لمقابلة العميد صالح عيسى في إدارة التفتيش والرقابة»

لم يمر على حادث المكسيك سوى بضعة أشهر، لماذا تذكرني الجميع الآن؟ حاولت إقناع نفسي بأنها مقابلة لاستكمال أوراقي بشأن سفريتي السابقة، لكنني لم أقتنع، قد يكون العميد صالح راغبًا في معرفة ماحدث، هذه الفرضية أيضًا غير مقنعة لو أراد ذلك لتحدّث إليّ مباشرة، ثم ما العلاقة بين العميد صالح وقطاع التفتيش؟ طمأنت نفسي قليلاً، لقد اختُطفت أسرتي وسعيت لعودتهم دون إقحام الوزارة في الأمر، لقد انتهى الأمر ولا داعي للقلق..



عدت إلى المنزل فوجدت إيفيت ولارا تلعبان، حاولت إخفاء قلقي، لكن إيفيت صارت تفهمني من نظرة، حكيت لها ما حدث كي لاتذهب بخيالها بعيدًا فقالت:

- لا تقلق ياحبيبي سأصلي من أجلك.

قالتها في هدوء وابتسامة صافيه، صارت تتكلم عن الدين أغلب الوقت، تحافظ على الصلاة، وتقرأ الكتب الدينية، ما علينا، لم يكن لدي الوقت لمناقشتها عن سبب هذا التغيير، في الصباح توجهت للوزارة وعندما سمحوا لي بدخول مكتب العميد صالح، كنت قد وصلت إلى أسوأ الاحتمالات في خيالي، وقف عن العمل، إحالة للاحتياط، أو علي أقل تقدير هناك محاكمة عسكرية تنتظرني، فلنَرَ.. قابلني الرجل بوقاره المعتاد قائلًا:

- أهلًا أهلًا ياطارق، أخبارك إيه يابطل؟

بطل!! إذًا الوزارة قد عرفت بالأمر، لكن كيف؟

قلت في هدوء: أهلًا يامعالي الباشا بعتولي إشارة فجتلك على طول، هو سعادتك بيبت أمن الدولة إمتى؟

قال دون النظر في عينيّ: الحركة اللي فاتت دي على طول، علقت عميد وجابوني هنا التفتيش.

تجاوزت هذه النقطة في سرعة وقلت: يا باشا أنا ما أقدرش أتأخر على سعادتك في أي مكان، أنت أب لينا والله.

- أنا معوّدك تيجي في الدوغري هنظبّط الكلام، هتتعوج مش هعرف أعمل حاجه.



- أوامر ياباشا.

- كنت في المكسيك بتعمل إيه ياوسخ؟ هكذا صارت الشكوك يقيناً بعد هذا السؤال..

- والله سعادتك مادخلتها برجلي ولا أعرف طريقها منين، بس اشمعنى؟

- طارق، الموضوع مش هزار أنا جبتك عشان اتكلم معاك بنفسي والموضوع يخلص من برة برة، فهمني كنت في المكسيك بتعمل إيه؟

- أولًا أنا فعلًا ماشُفتش المكسيك بعيني ولا مرة، دخلتها مرة واحدة بس وحكيت عنها، بعدها على طول أمريكا رُحتها علشان مراتي وبنتي وسعادتك عراف برضو الكلام ده.

- هصدقك بس بعدما تجاوبني، وزارة الخارجية المكسيكية خاطبت وزارة الخارجية بتاعتنا ويتقول إنك مطلوب في تحقيق عندهم انت ومراتك ليه؟

- أنا!! تحقيق إيه خير؟

- انتوا متهمين بالتخطيط بقتل أكتر من أربعين فرد أمن مكسيكي في قصر المدعو كوزمان ديلابينا وكوزمان نفسه، وده وزير سابق هناك وطبعًا انت عارف إنه حماك، إيه رأيك في الكلام ده؟

أنا لم أقتل أحدًا يا بافوميت، أنت تعلم قبل مني أنني لم أقتل أحدًا، فكيف يتم اتهامي مع إيفيت في قضية ضخمة مثل هذه؟ إيفيت تقتل كل هذا العدد؟ مستحيل!!



- وإيه الدليل اللي خلاهم يتهموني أنا ومراتي يا باشا؟

- مكتوب في التحقيقات إن التليفون المحمول بتاعك لقوه مرمي في ساحة القصر، وعليه كل حاجة تخصك، صورك وصور باسبورك كمان، ومراتك اللي هي بنته، فيه أوراق رسمية إنها كانت في المكسيك في مستشفى هناك قبل الحادثة بأيام قليلة، بعد محاولتها الانتحار، طبيبها النفسي بيأكد ده كمان وبيقول إنها كانت تحت ضغط كبير وممكن فعلًا تقتل والدها، كانت موجودة في القصر يومها وجثتها طبعًا مش موجودة، هي في نظرهم دلوقتي إنها هربانة معاك.

ظهرت حيرة حقيقية على وجهي، فطلب مني العميد صالح أن أقص عليه ماحدث دون كذب، تكلمت معه بالتفصيل عن كل شيء، كل شيء بمعنى كل شيء، حتى المشاعر التي عشتها في تلك الفترة، أنا الآن في ورطة حقيقة لا أعلم كيف سأخرج منها وأحتاج إلى عقل آخر يفكر معي، عقل ذو خبرة يشاركني في استنتاج ما تم من وراء ظهري.

* * *

سيد رمّاح، نعتذر مرة أخرى لحضرتك عمّا بدرَ منّا صباح اليوم، ونعِدك أنه لن يحدث مرة أخرى.

- ما الذي حدث صباح اليوم؟

- أتحدث بخصوص المدفأة، ظننت أنه لا يوجد أحدٌ بالغرفة.

- لا يهم لا يهم.

* * *



« يا ابن الكلب ياجاك »

قلتها في صوت مسموع فتعجب العميد صالح وقال: إيه افتكرت حاجة؟

- جاك بعت حد من رجالته وخد كل البيانات من أوضتي في الفندق، علشان كده طلب إني أروحله من غير حاجة في جيبي أول مرة أشوفه فيها، بس ازاي عملتها والخزنة برقم سري ابن الكلب؟

- ده قاتل محترف ياطارق هو انت بتتكلم عن مسجل عندك في الدايرة، السؤال هنا مش ازاي عملها، السؤال الأهم هو عمل ليه كده وبالذات بعد ما خد فلوسه منك بالكامل؟

قلت وقد غاب عقلي تمامًا من المفاجأة: أكيد ياباشا عارف إن الشرطة في المكسيك مع كوزمان وهيكون لهم رد فعل قوي، مجزرة زي دي لو ماطلعش حد يشيل اللية قدام الرأي العام تبقى كارثة، أنا شايف إنه كان بيبعد اسمه عن القضية وفي نفس الوقت بيكسب وقت فالموضوع بالبلدي هيتنام عليه، مصر والمكسيك وأمريكا، ليلة كبيرة يكون هو صرّف نفسه.

- عمومًا انت مش محكوم عليك بحاجة في المكسيك لحد دلوقتي، ولا إيفيت كمان.

عدت لنفس السؤال الذي سألته لنفسي قبل بداية اللقاء: ماذا تريدون مني؟ هناك تعليمات تخص الموضوع بالطبع وأنت تعلمها أيها العميد، هل ارسلك الوزير لنصب كمين لي؟ مازلت أذكر آخر مقابلة بيننا لإقناعي بالتخلي عن أسرتي مقابل مائة ألف جنيه،



أرجو ألّا تكون المساوامات اتخذت بُعدًا أشنع.. قطع العميد صالح أفكاري قائلًا:

- عمومًا ماتقلقش، أنا هعرض الموضوع على مساعد الوزير بس بطريقة تانية.. صحيح، هو الباسبور بتاعك مكتوب فيه إيه؟

- سفرياتي لأمريكا بس.

- وإيفيت؟

- نفس الكلام، دخلت بشكل غير شرعي للمكسيك وخرجت برضو بشكل غير شرعي، رسميًا هي ماراحتش أساسًا، كانت مخطوفة زيها زيي، وبعدين وجود تليفوني هناك مش دليل، اللي عمل كده بيكسب وقت مش أكتر، هو في حد بيصوّر الباسبور بتاعه ويروح يقتل ٤٠ واحد وتليفونه في جيبه؟ أظن فيلم بايخ أوي ياباشا.

- عموما خلي بالك يارماح العين عليك.

- ليه بتقول كده ياباشا؟

- اللي عملته مش بسيط، أي حاجة تحصل بلغني.

صرت رجلًا مثيرًا للشبهات بسبب كثرة مقابلاتي الرسمية معك، وليس بسبب ما حدث أيها العميد..

أيام قليلة وبدأت تظهر نظرات غريبة من المحيطين بي في العمل، لا شيء يظل سرًا في هذه الوزارة أكثر من شهور بسيطة، الفضول قتل القط مثلما يقولون في الغرب، لكنه للأسف، لا يقتل أبدًا هذه الأشكال السمجة التي يملأ عينيها التساؤل والتدخل السافر في شئونك، من



نوعية: «ماحكتلناش هو انت سافرت أمريكا عملت إيه - يعني هو انت سافرت أمريكا ولا المكسيك- بيقولوا إنك انفصلت عن المدام بتعليمات من الوزارة.. إلخ»

اللعنة.. الإنسان لا يتوقف عن الفضول إلا عندما يقترب من الموت، وقتها لا يشتهي الفضول أبدًا، القوي يا بافوميت يريد دائمًا أن يعلو فوق الصغائر، لكن هؤلاء يعيشون عليها..

حياتي - بشكل عام - كانت هادئة تلك الفترة، العمل كان يسير بشكله المعتاد، وإيفيت تطالبني بالصلاة، تقرأ كتب دينية أكثر، وتحبني أكثر وأكثر، لكن ذهني لم يكن صافيًا لهذه الأمور التي تمس القلب، هناك تحقيقات كثيرة قادمة ويجب أن أستعد لها، ما فعلته ضخم جدًا بالنسبة لهذه الوزارة البائسة التي تحقق معك بسبب عدم ارتدائك جوارب ميري سوداء، ثم تكتشف أن الجوارب لن تساعدك في أي شيء يخص العمل.. رغم أن الحياة كانت تأخذني ناحية الاستقرار إلا أن هاجسًا غير مفهوم كان يأخذني للناحية الأخرى..

بعد فترة جاءت المكالمة المنتظرة أبلغني العميد صالح بموقف الوزارة الذي اختلف تمامًا عن السابق، كان موقفاً بطولياً أثلج صدري لحد كبير.

* * *

المشهد الثاني

«اطلبلنا عصير ياعاصم بيه أنا ريقي نشف من الكلام»

قالها العميد صالح مع ضحكة خفيفة للواء عاصم بعد استرساله



في الحديث لأكثر من ساعة كاملة، ضغط اللواء عاصم على الجرس وقال في استسلام: حاضر..

القصة كانت تأسره وظهر ذلك جلياً على وجهه..

«اتنين عصير يا ابني بسرعة، كمل ياصالح»

قال صالح في سعادة بعدما شعر بانجذاب عاصم للحكاية:

- بس ياسيدي كلمت طارق بعدها بلغته أن الوزارة هتخلص كل حاجة، جواب صغير لوزارة الخارجية بتاعتنا يفيد بإن النقيب رمّاح خرج برة مصر مرتين والمرتين لأمريكا، والتحريات بتقول إن مراته رجعت معاه وهربت منه تاني أول ما وصلت مصر، تقريبًا في مشاكل أسرية بينها وبين أسرتها في المكسيك.

- ووزارة الخارجية صدقت؟

- وزارة الخارجية مش جهة فحص للقضية دي، كلها أمور مش واخدة طابع رسمي مجرد تحقيق في المكسيك، وطالبين يعرفوا الظروف اللي خلت اسم طارق يتردد هناك، لو كان في اتهام صريح كان الإنتربول اتحرك.

غمر عاصم سلام نفسي عميق عند هذه النقطة، كأن طارق صار بطلًا لفيلم يشاهده ويشعر بالتعاطف معه، قال بصوت مبحوح:

- والمكسيك سكتت؟ ماخدوش أي رد فعل؟

- المكسيك دي بقى ليها حكاية تانية، الموضوع عندهم كان كبير، لكن زيها زي أغلب الدول النامية كل حاجة وليها حل، بعد كام شهر



من موضوع المخاطبات بينا وبينهم، سفارة المكسيك هنا بدأت تنفّذ خطة تخص كوزمان

قال عاصم في لهفة: عملوا إيه؟

أشعل العميد صالح سيجارة وقال وهو يلوكها بين شفتيه: العصير ياباشا هو الكلام ده ببلاش.

ضغط عصام الجرس أكثر من مرة في عصبية في اللحظة التي دخل المجنّد بها حاملًا كوبين من العصير، قدمهما للضيف وعاصم على الترتيب ثم خرج مسرعًا كي لا يسمع ما لايرضيه.

رشف العميد صالح في تلذذ و.. أكمل القصة.

* * *

المشهد الثالث

ثكنات المعادي

سفارة المكسيك بالقاهرة

هناك حركة غريبة داخل السفارة، فاكس وصل من وزارة الخارجية المكسيكية يفيد بإنهاء عمل السفير الحالي وتعيين سفير جديد، الغريب في الأمر هو عدم ظهور مشاكل في الفترة القصيرة التي قضاها السفير السابق، أغلب الموظفين والملحقين وحتى الإداريين اعترتهم الدهشة من هذا الفاكس، بعد الدهشة بدأت مرحلة النقاش الهامس، الهمس لا يأتي بجديد كما تعرفون، لهذا استعد الجميع في النهاية لنيل ثقة السفير الجديد، المعتاد على التخاذل سيبدأ صفحة جديدة،



أما الناجح فسيحارب للبقاء على مكانته القديمة، النجاح في الدول النامية دائمًا هو الاقتراب أكثر من مركز الدائرة، حرب شعواء كي تصل إلى شيء ليس له قيمة بالنسبة للدول الناجحة، قتال عنيف من أجل الوصول إلى خزينة من الذهب في الصحراء، هذا غباء يستحق الشفقة وليس العقاب..

السفير الجديد، أليخاندرو خورخي، كسب ثقة المجتمع الفاسد في المكسيك، عاش في ذلك المجتمع طيلة عمره ونجح في سبر أغواره بموهبة من نوع جديد، موهبة التفاوض، هذه موهبة مفيدة لأقصى حد، تعتبرها أنت بلا قيمة لكنك لو فكرت قليلًا ستجدها هامة للغاية، فلتفكر معي قليلًا، أنت ملياردير أو وزيرٌ أو حتى رئيس محكمة وترغب في الاستفادة من العالم السفلي مثلما تتنعم في عالمك، تسير بسفينتك منتشيًا برؤية الجُزر الصغيرة والقمم الجليدية ولون السماء منعكسًا على سطح المحيط، ثم تكتشف أن هناك عالمًا في الأسفل، حياة كاملة لا تدري عنها شيئًا، إذا ما فهمت لغته أو امتلكت بدلة غوص، ستكون الاستفادة ضخمة للغاية..

الخاندرو خورخي يفهم لغة السمك جيدًا، يستطيع أن يأتي لك ب(قرش) دون حتى أن تبتل ملابسك، حلقة الوصل باختصار، منصبه في وزارة الخارجية أثقل موهبة التفاوض بداخله وكوّن له شبكة علاقات بحكّام عالم الجريمة، تم الاستفادة منه في عمليات كثيرة حتى جاءته فرصة من نوع خاص، منصب سفير المكسيك بالقاهرة، جوهرة الشرق، صحيح أن السفير السابق رجل مشهود له بالكفاءة، لكن أحيانًا ماضيك السيء يكون سببًا في صعودك للقمة.. بعد تنفيذ مهمته الأخيرة بنجاح سيعود إلى أحفادة، يجلس معهم ليحكي عن سِحر الشرق وشرف الانتماء للسلك الدبلوماسي، ثم يصير كهلًا ينتظر ضيفًا ثقيلًا، الموت، سيحاول

التفاوض معه هو الآخر بصوت واهن كالهمس، لكن الهمس لا يأتي بجديد كما قلنا من قبل، أنتم تنسون كثيرًا هذه الأيام..

خطى الرجل خطوته الأولى في السفارة وسط احتفال بسيط من العاملين بطلب واحد، أريد إيفيت ديلابينا وزوجها، تبًا المركزية تزداد غباء يومًا بعد يوم، كنا نتوقع طلباً يُنبئ بالسياسة الجديدة للوزارة في المكسيك فاكتشفنا أن ذيول الغباء هناك، هكذا فكر طاقم السفارة بالكامل، ثم بدأت مرحلة التنفيذ، لا وقت لتحليل سياسة المكسيك الآن، بدأت التحريات دون مخاطبات رسمية من السفارة لوزارة الداخلية المصرية، سأهم أليخاندرو بوضوح: من هنا له صديق مع أحد الموظفين في إدارة الأحوال المدنية؟ هذه المصلحة الحكومية الوحيدة التي بها عنوان إيفيت، لا يوجد يا سعادة السفير، ثم تذكّر أحدهم إشهار إيفيت إسلامها، للأسف، كانت وقتها مقيمة بأحد الفنادق وليس عنوان زوجها، هنا ظهر واحد من الإداريين المصريين العاملين بالسفارة له صديق يعمل ضابط شرطة، استطاع التوصل لمكان عمل طارق رماح، قسم أول السادس من أكتوبر.. أخيرًا.

توجه رجلان إلى العنوان وطلبا مقابلة النقيب طارق رمّاح، في البداية شعر بالتوجس منهما، منذ عدة أشهر كان مطلوبًا في قضية قتل كبيرة داخل المكسيك، والآن يطلبون منه القدوم للسفارة، الأمر ليس بهذه البساطة أيها الأذكياء، السفارة هي أرض تخص الدولة داخل مصر، بمعنى أنه لو دخل سفارة المكسيك لصار داخل أرض المكسيك بالفعل، لم يوافق بالطبع، طلبا منه الانتظار دقائق قليلة ثم عادا إليه وطلبا منه مقابلة السفير في أي مكان يختاره بشرط وجود إيفيت، وافق طارق واختار مكانًا عامًا للمقابلة.



المشهد الرابع

كافيه ستاربكس، المهندسين

وقفت سيارة سوداء تحمل لوحة دبلوماسية ذات اللون الأخضر المميز أمام كافيه ستاربكس الشهير بالمهندسين نزل منها رجل أشيب الشعر في منتصف الخمسينات نحيلًا، قصير القامة نوعًا ما، يرتدي حلة سوداء اللون وحذاء يبدو باهظ الثمن، هذا الرجل يبدو أنه ذو منصب هام، فلنقترب منه أكثر، بشرته قمحية، إنه لاتيني، تحديدًا مكسيكي الجنسية، تكلم مع سائقه بالإسبانية فذهب السائق بالسيارة بعيدًا.. هذا أليخاندرو خورخي سفير المكسيك في مصر بالطبع لقد كنا نتحدث عن عمله بالسفارة منذ قليل..

جلس على أول منضدة خالية قابلته وسرح قليلًا في الضيف الذي ينتظره، النقيب طارق رمّاح، عرف أنه ذكي لكنه مغرور والأهم أنه يحب المال، سينجح بمهمته الأخيرة بالتأكيد، وحتى لو لم ينجح، يكفيه منصب السفير الذي تقلّده أخيرًا بعد فقدانه الأمل، سفير المكسيك في القاهرة، ليست ألمانيا أو اليابان، لكنها بلد ذات أهمية استراتيجية ضخمة، شعر ببعض الضيق لكونه لن يستمر في المنصب طويلًا، سيعود للديار مع حركة السفراء القادمة بالتأكيد..

لمح طارق رمّاح داخلًا الكافيه، عرفه من صورة لديه، جلس طارق امامه مصطنعًا البرود، مرتديًا ملابس خفيفة، بنطالا من الجينز وتشيرت أزرق وحذاء رياضي، قال مباشرة بالإنجليزية:

- ماذا تريد؟



- أين زوجتك؟

- لاتقلق سأبلغها حرفيًا بكل ما يُقال.

صمت الطرفان تمامًا كأنهما صنمان لمدة دقيقة كاملة، جاء النادل خلالها ووضع القهوة أمام السفير، طلب طارق قدحًا من القهوة هو الآخر فابتسم السفير قائلًا:

- تطلب القهوة من أجل التركيز أم أنها عادة؟

- عادة ليس أكثر، ماذا تريد ياسعادة السفير، هل هناك مايستدعي التركيز أم أنها مقابلة للتعارف؟

- أنت ضابط شرطة وأنا سفير المكسيك هنا في مصر لن تجمعنا إلا المصلحة بالطبع، عندما أردنا إبلاغك بشيء رسمي أبلغناك إياه عن طريق وزارتك.

لم يرد طارق فأكمل السفير بنفس الابتسامة:

- الأمور غير الرسمية تحتاج للتركيز، سيجعلك هذا تطلب القهوة الثانية..

لنترك طارق، وهذا السفير المخادع، وستاربكس الآن.. هذان الرجلان سيأخذان وقتهما في شرب القهوة، لنعود بالزمن شهورًا قليلة للوراء ونضيء نفقا في المكسيك في ليلة شتوية، تحديدًا ليلة تحرير إيفيت ولارا من قصر المسيح، هل تذكرون الرجل الذي قابل جاك روبي في نهاية النفق، ليست مفاجأة بالطبع إن قلت لكم إنه أليخاندرو خورخي نفسه، السفير الذي تركناه منذ قليل مع طارق، لم يكن سفيرًا وقتها بعد..



«أيها الوغد لقد انتظرتك في هذا المكان القذر فترة طويلة»

نطق أليخاندرو بهذه الجملة فنظر جاك ناحيته وهو يتحسس سلاحه الشخصي في الظلام وسأله:

- من أنت؟

- أليخاندرو خورخي سيد جاك لا تقلق، قالها واضاء النفق بكشاف ضخم:

- مستر أليخاندرو، لقد أفزعتني.

قال في صرامة: هل رتبت كل شيء؟

- لاتقلق، لن تشك الشرطة في أي شخص لا أنا ولا أحد من رؤسائك، الشك سيحوم حول ابنته إيفيت وزوجها، لقد رتبت كل شيء حتى يظهر اسمه كمنقذ زوجته من يد والدها.

- بالضبط، توريط الابنة وزوجها أهم من قتل كوزمان نفسه، للأسف لا نملك سلطة هنا على الشرطة، احترس مستر جاك، فهذه المهمة شبه مستحيلة.

تنحى الرجلان جانبًا في وقتٍ واحدٍ كي لا يسمع حديثهما باقي الرجال، جاك لا يفترض خيانة أحد رجالة لكن الاحتياط واجب هنا..

- بعد مقتل كوزمان ستتجه الشكوك نحو ابنته وزوجها كما قلت، ستبدأ بعدها إجراءات الإرث، نصيبك منه مئة مليون دولار.

- والأصول!! هناك قصور وشركات ومصانع تقترب من الثلاثة مليارات، من سيكون له حق التصرف فيها في كل هذا؟



- هذا ليس من شأنك ولا من شأني، هل تفهمني؟

- لا تنسَ أن الخطة تعتمد على قتل كوزمان.

ضحك السفير المخادع كثيرًا مثل الأوغاد وتكلم بشكل هادئ قائلًا:

- لا تطمع أيها القاتل، أنت محظوظ بعد أن وضع القدر هذا المصري المغرور في طريقك صدفة، فكرة منع إيفيت وزوجها من العودة للمكسيك أعجبت رؤسائي،لولا ذلك لا تنسَ أنك مجرد قاتل مأجور، هل تفهمني؟

يبدو أن (هل تفهمني) هي لزمة على لسان السفير المنتظر..

وافق جاك، كانت فرصة العمر بالتأكيد، حاول تحقيق استفادة تزيد عن ١٠٠ مليون دولار، لكن السفير كان صلبًا في التعامل معه، بالأحرى لم يكن يملك من الأمر شيئًا.. قال في صوت خرج سعيدًا رغم محاولته إخفاء ذلك:

- أفهمك.

ابتسم السفير المنتظر في تشفٍّ وقال:

- الهليكوبتر التي ستهبط بها على القصر ستكون جاهزة في الفجر، ستجدها بفناء مدرسة سان ماثيو بالبلدة، لن تستطيع اقتحام القصر عن طريق البوابات أو تسلق الأسوار، هل تريد شيئًا آخر؟

- أريد جزءًا من المال بعد إتمام العملية مباشرة وقبل توزيع الإرث، لم يعد لدي مال.

- لك هذا، أتمنى لك حظًا سعيدًا.



نظر اليه أليخاندرو بطرف عينيه ساخرًا، وتركه يسبح حرفيًا وسط المال أثناء عودته لرجاله.. مئة مليون دولار رقم ضخم، يستطيع إبعاد المشاكل عنه حرفيًا، سيؤسس به شركة قوية في النور، تجارة نظيفة تضمن له غطاءً لعملياته القذرة، لن يضطر بعد ذلك لقتل ديلر، أو زوجة خائنة، أو حتى سياسي مغمور.. المال هو ما يصنعنا، ستتكلم كثيرًا عن قوة الإرادة لكن بالنهاية، المال هو ما يتحكم بقراراتك.. سرح جاك في المال، ولم يعكر مزاجه سوى مشهد قديم من تلك المشاهد التي تهاجمك دون استئذان عندما تكون سعيدًا، أحداثٌ قاسية أقرب للشذوذ الإجرامي -إن صح التعبير- لكننا لن نقترب منه لحساسية الوضع الآن، فلنعود مرة أخرى للسفير المنتظر أليخاندرو خورخي..

بعد هذه الواقعة بشهور بسيطة وبعد اطمئنان رؤسائه على نجاح المخطط طُلب من أليخاندرو مهمة أخيرة، التفاوض مع إيفيت على الإرث في القاهرة، فكَّر كثيرًا ثم عرض عليهم طلبه الأخير، أن يكون سفيرًا هناك، بحسبة بسيطة وجد أن منصب (سفير المكسيك السابق بالقاهرة) أفضل كثيرًا من المال، المنصب الأخير هو ما يعلق عادة بالأذهان بعد انتهاء الخدمة، قد يمنح أحفاده أيضًا سُمعة طيبة في المستقبل..

انتهى الرجلان من احتساء القهوة، هذا عيب الكافيهات الحديثة، المشروب لذيذ لكنه لن يرافقك كثيرًا.. قال أليخاندرو في جدية:

– ثلاثون مليون دولار، هذا المبلغ يساوى عملك لمدة تزيد عن... مم لا وقت للحساب، لو كنت تعمل مع الفراعنة حتى هذه اللحظة فلن تستطيع جَمعه.

– لكن برأيك مستر أليخاندرو ماهي الفائدة التي ستعود عليكم بعد



موافقتي؟ أنتم تطالبون ابنة كوزمان بالتخلي عن دم أبيها مقابل ثلاثين مليون دولار، هذا الأب كان ملياردير ا.

ضحك أليخاندرو بشكل هستيري فنظر إليه روّاد المكان في ضيق، فاعتذر لهم بالطريقة اليابانية الشهيرة وقال لطارق وهو مازال يضحك:

– لهذا جئنا إليك، جئنا لحبيب العمر، الفارس الذي أنقذ إيفيت من أبيها الوغد، أنت من قتله وأنت من سينعم بأمواله، العرض لمدة يوم واحد سيد رمّاح، سنأخذ ملايين الملايين من وراء هذه الصفقة، هذا ليس من شأنك، إن كنت تريد ذلك المال بالكامل، فلتأتِ إذًا إلى المكسيك أنت وزوجتك لتواجها مصيركما ثم تحصلان على المليارات التي تتكلم عنها، هناك حل آخر، قضية دولية لتأخذ حقوق الميراث، هذا حل سحري سيكلفك بعض الوقت، عشر سنوات تقريبًا، سيد رمّاح انتما متهمان في قضية عندنا في المكسيك، أعرف أن الاتهام لا يعتد به، لكن لا تنسَ أنك حرّضت على الشر بالفعل، نحن لا نريد زيادة مساجين المكسيك فردين، نحن نريد زيادة رصيد بعض الأفراد في المكسيك، ومساعدتك في إزاحة الاتهامات تمامًا عنكما، وفوق هذا تغيير وضع اسرتك المالي كليًا، هل تفهمني؟

طأطأ رمّاح رأسه لأسفل ثم نظر له في استعطاف قائلًا:

– ما الفرق لديكم بين ٣٠ مليون ومئة؟ فلنصل إلى حلّ وسط إذا ونجعلها ٦٠ مليونًا.

قام أليخاندرو من مقعده، وأخرج كارته الشخصي من حافظة النقود وألقاه أمام طارق ثم أنهى النقاش بشكل درامي قائلًا:



- أنت تعيش في دولة فقيرة، بالتأكيد لم تلعب الهوكي يومًا ما، أنامثلك تماماً، لكنني لا أنسى أبدًا مقولة شهيرة لأسطورة هذه اللعبة واين جريزكي: «ستفقد كل الفرص التي سنحت لك لمجرد أنك قررت عدم محاولة استغلالها»، هل تفهمني؟ إلى اللقاء مستر رماح.

قالها تاركًا رماح في دوامة ال... صراحة ليس طمعًا أو جشعًا، فالطمع هو أن تريد لنفسك أكثر من غيرك أما الجشع فانت تريد كل شيء، مفردات مثل الطمع والجشع أتت لتصف رغبات الأشخاص فيما يُوزّع عليهم، لكنني لا أعرف مفردات تصف الطمع في مالٍ ليس لك من الأساس، مالٌ مغلفٌ بعيون حمراء وثقوب في الأذرع وأزقّة مليئة بالسرنجات.

* * *

المشهد الخامس

القاهرة.. المدينة الساحرة التي يملؤها الحب وتخفي أسرارًا كثيرة منذ قديم الأزل، سرت في شوارعها وحيدًا، لم أكن راغبًا في العودة لإيفيت بعد شعوري ببعض الإهانة أمام الوغد أليخاندرو، السير كان يملؤني دومًا بالطاقة الإيجابية، يجعلني أفكّر وأصل لقرار صحيح وأكثر ثقة بنفسي، سرت في الشوارع دون اتجاه محدد، وجوه الناس من حولي كان يملؤها الحزن والشقاء، أشد ما يزعجني في هذا العالم هو الفقر، كنت محتاجًا للمال القادر على إرواء روحي ومدّ نفوذي للأبد، ضياع النفوذ هو أخطر عيوب هذه المهنة، ضابط الشرطة ينمو ويزدهر دائمًا في حقول المعجبين، الإعلام يضعك موضع المثل الأعلى، المراهق يُريدك بطلًا،



الأقارب يروك المخلّص، وبالطبع أسرتك الفخورة بك دائمًا، ثم هوب.. ينهار كل شيء بالمعاش، الكل في تلك الفترة الغريبة ينظر لك بشفقة كأن المفترض أن تعمل للأبد، لا راحة، لا هدوء، بالتدقيق في النوايا ستكتشف أن الناس نوعان: الأول ينتظر مقابلتك طول الوقت للتشفي، والآخر صرت تُشعره بالاشمئزاز لأن ماضيه معك مليء بالذل، والحل؟ لا شيء.. أنت معاقب لكونك ضابط شرطة خسر سلطته ما لم تأتِ بنفوذ جديد، نفوذ المال مثلًا، نفوذ الشهرة، نفوذ العلاقات، نفوذ النسب القوي.. إلخ، فلتُخرج الكنوز من جعبتك وإلا سننفض من حولك، اللعنة على ضياع النفوذ..

بعد المشي حوالي ساعتين، أوقفت «تاكسيًا» للذهاب لكباريه بشارع الهرم، حمدت الله أن الشارع بعيد تمامًا عن دائرة عملي، لم أدخل كباريه منذ سنوات عملي بالأقصر مع هيثم العدوي، عالم الراقصات وأنصاف المطربين، والأنوار المبهجة، وعدم التركيز في شيء.. لقد ربحت في قضية كوزمان ديلابينا، ولكن القاعدة واضحة وصريحة إذا ربحت شيئًا فستخسر شيئًا بالمقابل، كنت مصممًا على ربح كل شيء.. شربت الخمر ثم رقصت لا أعلم من الفرحة أم من الحسرة حتى سقطت أرضًا، قبّلت عاهرة شقراء وألقيت النكات على أخرى سمراء، ثم شتمت الاثنتين بأقذع الألفاظ دون سبب، قضيت على الطاقة السلبية بداخلي، وخرجت..

عدت لزوجتي الجميلة في السادسة صباحًا بذهن صافٍ تمامًا، لست رجلًا خائنًا، أنا رجل يعرف كيف يتحكم في نزواته جيدًا، احتضنتها، ثم أخبرتها انني أحبها وأتمنى العمر الطويل معها، قالت في شك: أين كنت؟ اتصلت بك كثيرًا.



- قضية قتل بشعة لراقصة تعيش بإحدى شقق أكتوبر.

ظهر على وجهها التأثر الشديد.. كيف تكون الخيانة حلًا، وكيف يكون النفاق جميلًا، كما قال نزار قباني في قصيدته، «هناك متعة حقيقة في الخداع تصل لدرجة المرض»، ودون داعٍ، ليس هناك نفعٌ من التضليل ولكنك تستمر فيه.. قلت كي تستعد لمقابلة أليخاندرو الأيام القادمة:

- حبيبتي هل تثقين بي؟

- بلا شك ياطارق، أنت يقيني طول الوقت.

- بعد مقتل والدك، هل هناك مشاعر باقية له في قلبك؟

- بالطبع، كوزمان كان أبًا جيدًا في سنوات حياتي الأولى ولا تنسَ أنني أحمل جيناته بداخلي، عندما حاولت الانتحار، ذكّرني الرب بأشياء جميلة ثم منحني فرصة جديدة للعيش معك في هدوء، حياة جديدة أهم مافيها هو زوال الكُرْه من روحي، هل تفهمني؟

كدت أضحك بعد استفهامها الأخير، لماذا يفترض الكل غبائي اليوم، ابتسمت في رقة متظاهرًا بالتأثر وقلت منتظرًا رد فعلها:

- أفهمك بالطبع، لدي أخبار تخص إرثك من والدك.

قامت من مقعدها كالملسوعة كأن ثعبان لدغها قائلة:

- كيف تجرؤ؟ ثم من أتى إليك بهذه الأخبار؟

- إيفيت أنتِ لم تسمعي مني بعد.

- أعرف ما ستقول، الإرث ضخم والمبلغ مهول، قصور ومشاريع جبارة، انسَ كل هذا أرجوك، هذا المال لعنة، أنا لا أرغب فيه وأظن أنك



أيضًا كذلك.

- إيفيت السفير المكسيكي طلب مقابلتي بالأمس، هل تعلمين ما الذي قاله لي؟ أنتِ متهمة في قضية قتل والدك، بل قتل ما يزيد عن أربعين رجلًا داخل قصر المسيح، افهميني يا صغيرتي لم يعد لدينا خيارٌ، ظروف المعيشة تتعقد أكثر وأكثر، حتى والديّ لم يعد لديهما مالًا بعد ضياع الأرض والبيت، من ناحية أخرى حكومتك تسعى خلفنا بكل الطرق، نحن متهمان، لن ندخل المكسيك مرة أخرى، الحل الوحيد هو تنازلك على المال مقابل جزء بسيط منه.

- ماذا تعني؟

- يعرضون علينا ثلاثين مليون دولارًا مقابل تسوية كل شيء في المكسيك.

صاحت في صوت عالٍ: فليأخذوا المال كله، لا أريد منه شيئًا، أنت لا تفهم، هذا المال سيقتلنا جميعًا مثلما قتل والدي.

هنا غلى الدم في عروقي وصحت: أي مال تتحدثين عنه؟ الثلاثون مليونًا ليسوا مالًا يا إيفيت، والدك كان مليارديرا، ثلاثين مليون دولارًا هو ثمن أصغر شركة من شركاته..

أشاحت بوجهها بعيدًا فأكملتُ في غضبٍ:

- والديّ يا إيفيت فعلا كل ما بوسعهما كي ترفعي صوتك أمامي الآن، ثم تطلبي مني نسيان المال، أليس من حقهما التمتع بأيامهما الأخيرة؟ الدين الذي تقرئين كتبه هذه الأيام يقول، من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه، وأنتِ أتلفتِ حياتنا وحياتهما بسبب كذبك بشأن كوزمان،



أين الإصلاح يا إيفيت؟ أين الإصلاح؟

شردت قليلًا وابتلعت ريقها ثم اتجهت لغرفة نومنا، ذهبت خلفها محاولًا إرضاءها بعد ثورتي، إيفيت تحبني، كانت مستلقية بظهرها على السرير تداعب شعرها في توتر، مددت يدي بأريحية لأمسك يدها كأنني أدعوها للرقص، وابتسمت، عندما مدت يدها أمسكتها وتركت نفسي ليصبح جسدي كله عليها، أبدت إنزعاجها في البداية فهمست في أذنها بخفة:

- القصة مجنونة منذ البداية، الفارس العربي وقع في حب الأميرة اللاتينية، وعندما حاولوا إبعادها عنه، هاج وماج كي ينقذها، هل تدرين لِمَ كل هذه الشهامة؟

لم ترد فلكزتها في جنبها بلطف، فأجابت في دلالٍ: لماذا يا طارق؟

فردتُ يديها لأعلى في سرعة واجبتها وأنا أقبّل رقبتها:

- الأميرة نزعت قلب العربي، ونزعت صلابته، ثم تركته خاويًا من كل شيء إلا من شيءٍ واحدٍ.

هتفت بصوت متحشرج: ما هو؟

أجبتها وأنا اتعمق أكثر في جسدها: حبك، حبك يا أميرتي..

بعد أن انتهينا من ممارسة الحب، جلست إيفيت مسندة ظهرها إلى صدري، أطرقت، تركّت أنفي يداعب شعرها في استسلام، صمتت لدقائق داعَبت خلالها أصابعي بطفولية، ثم أدارت رأسها وقبّلتني قُبلة طويلة وقالت:



- هل ستقابل هذا السفير مرة أخرى؟

أجبت بسرعة: لا، سنقابله سويًا عندما يأتي إلينا هنا في المنزل، ستكتبين التنازل للحكومة المكسيكية أمامه.

قالت في بساطة كأن الأمر لا يعنيها: تمام.

استأذنت هي في الانصراف للاستحمام، فبقيت وحيدًا، وقفت عاريًا أمام المرآة شاعرًا بالفحولة والسيطرة، أرمق صورتي في المرآة وأغازلها بحق.. ومن سواها يستحق المغازلة من القلب؟ فردت صدري وشمخت بعنقي ووجهت نظرة هيام لصورتي كأنني نصف إله.. وسرحت في المال.

* * *

المشهد السادس

بعد استيقاظي في المساء أخرجت الكارت من الحافظة وهاتفت أليخاندرو لأخبره بموافقة إيفيت، طلبت منه إيداع المال بأحد البنوك فلم يرد، رفض استكمال الحديث في الهاتف وأخبرني أنه سيأتي لإنهاء الأمر قبل فجر ليلة من الخمس القادمة..

جاء في الليلة الرابعة ومعه الملحق القضائي فقط، أما الحرس الخاص بهما فانتظر بالخارج، بدأت الزيارة الهامة بتعزية إيفيت من قبل الضيفين، فأخذت هي في توجيه أسئلة غاضبة للسفير بشأن الإرث، ثم أخذت تبرطم وترطن بالعامية الإسبانية، بالطبع لم يضع الضيف الماكر نفسه محل استجواب أو تحقيق، ابتسم لها ابتسامة صفراء وسكت،



لا تنسَ أنه يعمل في السلك الدبلوماسي منذ أعوام طويلة، كلمات مثل (ربما، احتمال، وارد.. إلخ)، هي من صنعت هذا الرجل.

الملحق القضائي كان في حالة تركيز شديد أثناء كتابته الأوراق، راجعتُ الأوراق جيدًا مع إيفيت، لم يكن هناك تلاعبٌ في الموضوع، أليخاندرو كان يريد إنهاء الوضع بشكل قانوني بالفعل.. أراهن أن مجموعة من أصحاب الياقات البيضاء في المكسيك، كانت تنتظر وقتها نتيجة جلستنا على أحرّ من الجمر، قبل التوقيع قلت للسفير:

- إيفيت لن توقّع ورقة قبل إيداع المال بأحد البنوك في حساب خاص بها.

- بنك! هذا آخر احتمال بالنسبة للطرفين سيد رمّاح، أصدقائي في المكسيك لن يقعوا في شِرك مثل هذا، المفترض أن إيفيت تنازلت عن كامل ثروتها بدون أية ضغوط من الحكومة، هذا التنازل من أجل تسوية ديون كوزمان والقضايا المحكوم فيها ضده، ليس من مصلحتنا أبدًا تحويل المال بسند رسمي لحساب إيفيت، وأعتقد أنه ليس من مصلحتك وضع مبلغ ضخم كهذا في حسابك، أنت ضابط شرطة يا سيد رمّاح.

كان محقًا في اعتراضه، لكنني قلت في غضب مصطنع:

- والحل؟ أريد المال حتى لو وُضع في علب الشاي والسكر بالمطبخ.

ردّ في برود تام كعادته:

- المال موجود داخل سيارة تتبع السفارة، تقف بالأسفل أمام المنزل، عشر حقائب ضخمة تحوي ثلاثين مليون دولار نقداً بمقعدها الخلفي

المال قادم، الحب الأول والأخير قادم، كانت أفضل لحظات حياتي..



أحضَر الحرس الحقائب لغرفتي بالداخل، اعتري الشك قلبي بشأن تزوير النقود لكنه سرعان ما زال، تزوير ثلاثين مليون دولار بهذه الكفاءة سيكلفهم ملايين كثيرة.. كانت إيفيت صامتة أغلب الوقت، لارا تراقبنا في عدم فهم، أما اليخاندرو فكان يداعبها من آنٍ لآخر، لارا وليس إيفيت بالطبع..

استلمت المال كاملًا فوقّعت بعدها إيفيت على الأوراق..

انصرف الرجال أخيرًا في سلام، رقصت حرفيًا بجوار الحقائب، هذه من الأحداث التي يجب الرقص لأجلها، إيفيت رقصت معي مجاملة، لم يكن المال هامًا بالنسبة لها، لقد عاشت سنوات الطفولة والمراهقة في نعيم يفوق هذا بعشرات المرات، ثم اختارت حياة أخرى، لو أنها مولودة في مصر لنُعتت بلقب (الفقرية) إلى الأبد..

بعد ذلك، بدأت أكثر مراحل حياتي رفاهية، اشتريت سيارة جيب موديل العام، وسيارة لإيفيت، السيارة كانت عقدة حياتي، لن أنكر ذلك.. أهملت العمل، لن أجلس خمس عشرة ساعة متواصلة من أجل حل قضايا لا يربطني بها شيء، لقد حللت القضية الأكبر في حياتي ولم يعد لدي وقت لتلك التفاهات.. سافرت إلى كل مكان، تايلاند، تركيا، الإمارات، باريس، كل البلاد التي تستحق الزيارة زرتها مع العزيزتين إيفيت ولارا، سددت ديوني للبنك، ودفعت كل ما هو متأخر، اشتريت أرض القرية بضعف ثمنها لتعويض والديَّ عمّا دفعاه لي من قبل، سافرا للحج، اشتريت كل ماتقع عليه عيناي، انتقلت لشقة جديدة بالزمالك، أحب الأحياء العريقة، لا أميل للمدن الجديدة نهائيًا، نقلت لارا لحضانة أمريكية، سهرات، علاقات أقوى وأعمق،



خيانة مستمرة كانت تجعلني أفضل مع إيفيت، هل تتخيل؟ لا أذكر ما فعلته بعد ذلك..

النشوة كانت تجتاحني، وكنت أسأل نفسي كل يوم، ما الذي أريده؟ الإجابة كانت ولازالت هي السعادة، السعادة موجودة بالفعل بهذا العالم، ينقصها فقط الكلمة اللعينة التي تفسد كل شيء، الدوام، قيل قديماً (ليس تكاد الدنيا تسقي صفواً، إلا اعترض في صفائها أذى باطن)، أعتقد أن البشر يبحثون عن الوصول للجنة ليس من أجل المتعة، السحر الأزلي في الجنة هو الاستمرارية، الخلود في النعيم.. في الصغر، كانت فكرة الخلود تخيفني، الخلود كان يعني لي الملل وقتها، ثم عرفت أن المشاعر السلبية لا توجد في الجنة.. الجميل في تلك الأيام أنني كنت أعيش السعادة الكاملة، والممتع أن ضخامة المبلغ جعلها تحمل صبغة الدوام.. كالجنة.

الكل كان يحسدني، الكل يستفسر عن سر تلك الطفرة المادية، فأواجههم بجملة مطاطة، إيفيت كان لديها إرثٌ من والدها واستفدنا به، لكن نظراتهم كانت مليئة بالشك، عيونهم تتساءل في حقد: لماذا يعيش طارق رمّاح في تلك الرفاهية ونحن لا؟ من شهور بسيطة، كنت لا أملك مالًا ومدين للبنك وأركب المواصلات مثلي مثل أي مواطن، لكنني كنت بطلًا مغامرًا صنعت المعجزات بنفسي، ألا تبًا لكم ولأحقادكم الدفينة، ليس لأحدٍ منكم فضلٌ عليّ.. بعد ذلك كنت أتغيّب عن العمل كثيرًا وأتعمّد إهانة رؤسائي، إيفيت لاحظت هذا التغيير فبدأت في نُصحي، لم أكن محتاجًا للنُصح يا إيفيت، كنت أريد العيش مثل الطبقة التي أنتمي إليها، طبقة الزعماء والأذكياء.. أحيانًا أشعر أنني مصاب بالبارانويا لكن البارانويا مرضٌ نفسيٌّ له علاج، بينما الطبقة المتوسطة تحتاج إلى معجزة للشفاء، إيفيت كانت تعتقد أنني في فتنه أما والداي فلم يعلقان على كل



هذا..

بعد فترة من رغد العيش، جاءني اتصالٌ تليفوني من رقم لا أعرفه..

- ألو مين معايا؟

- طارق بيه، معاك المستشار كامل الحلواني إمام من إدارة الكسب غير المشروع.

- أهلًا.

- كنت عايز أقعد مع حضرتك شوية.

- خير؟

- خير طبعًا مجرد دردشة بس.

- أنا مابدردش مع حد، حضرتك عايز حاجة عندك وزارة الداخلية.

بعد فترة اتصل بي ضابط أمن الدولة، لم يطلب مقابلتي لكنه لَمح إليّ بموضوع سفري لأمريكا والاتهام الموجه لي من المكسيك..

- ماذا تريد؟

- مليون دولار.

- أين ومتى؟

- سأتصل بك لتحديد المكان والزمان..لم يتصل مرة أخرى، غريب هذا.

بعد ذلك جاءتني اتصالات كثيرة من مجهولين، الكل طامع في المال، شعرت بهدوء ما قبل العاصفة، الخطر كان قريبًا مني،



غالبًا هو السجن في حالة رفضي للابتزاز، وربما القتل إذا سعى أحدهم لسرقة المال، كنت مستعدًا لرشوة مستشار الكسب غير المشروع وضابط أمن الدولة، لكنني لن أستطيع رشوة الجميع بالطبع.. فكرت في الاستقالة، لكنها ستفتح عليّ عيون كثيرة بعدها، الهروب كان الحل الوحيد، المال سيكون نواة لحياة جديدة، كان يجب غلق تلك الصفحة وفتح أخرى نظيفة بالهروب، هروب من عالم حاقد لآخر لا يمارس هواية دس الأنف في أوقات فراغه، هروب لعالم يقبلك على أي صورة طالما لديك المال، هروب بعيدًا عن كل المشاكل، هروب له رائحة القهار وناطحات السحاب والحرية.. أنت لمّاح يا بافوميت، بالفعل، الهروب كان لنفس البلد التي رحبت بك؛ الولايات المتحدة الأمريكية.



الترنيمة السادسة

عش بجسدك ولا تأبه بغير إشباع هذا الجسد النهم بالشهوات



المشهد الأول

خطة هروبي للولايات المتحدة كانت تعتمد على وجود شخص ما، قادر على مساعدتي هناك، جاك روبي بالطبع، ومن سواه؟ الرجل القوي الذي اعتمدت عليه في إعادة أسرتي للوطن، وسيكون له دور في خطة هروبي كذلك، اتصلت به فوجدت الهاتف قد تم وقفه، تبًا، أي قاتل مأجور يحترم نفسه لن يخطئ هذا الخطأ الساذج أبدًا، أجريت مكالمة هامة لشريف، أبلغته بضرورة تواصلي مع جاك بأسرع وقت، شريف كان الوحيد القادر على التواصل مع هذا الوغد..

المكالمة الثانية كانت لزميل قديم، ليس صديقًا بالطبع، فهو أبعد ما يكون عن ذلك، أمين الجزار، للأسف كنت أحتاجه في استفسار هام..

- أمين أنا هسافر برة البلد.

- وإيه المشكلة؟

- هغيب أنا ومراتي فترة طويلة، عندنا مشاكل هنا في مصر ولازم أسافر.

- مشاكل في الورث طبعًا، يا ابني أنا من منطقتك والكل بيتكلم عن الفلوس دي.

- ماشي يا سيدي، مشاكل في الزفت الورث.

- يبقى أنت عايز تهرب بقى مش تسافر يا كبير.

اللعنة، هذا الوغد يريد ابتزازي، فليكن..

- عايز إيه يا أمين؟



- مش لما أعرف طلباتك الأول.

- طلبين، أولهم: مش هيبقى معايا البطاقة الصفرا وأنا مسافر (إذن السفر الخاص بضباط الشرطة من الوزارة)، الحاجة التانية: حوالي عشرين شنطة عايز أخرجهم برة البلد.

- مش هسألك طبعًا الشنط دي فيها كام عشان عارفك بتخاف من الحسد هههههه

الوغد سيطلب كثيرًا..

- بص ياسيدي، الطلب الأولاني ده مش سهل، بس مش مستحيل، الطلب التاني مستحيل، انت بتتكلم في عدد شنط رهيب.

- أومال أنا بكلمك ليه يا أمين؟

- ماشي يارماح، بس مش كده، مدير أمن المطار نفسه مايعرفش ينفذلك اللي بتطلبه ده، حتى قرية البضايع بتتفتش أول بأول وماليش حد هناك.

- والحل؟

- الحل إن أنت تجيب اللي أنت محتاجه في شنطة واحدة بالكتير، وكدة أبقى عامل معاك واجب بزيادة ومش هنختلف.

ضابط شرطة يطلب رشوة من ضابط شرطة آخر، هذا أمر يحدث لأول مرة بالتأكيد..

- كام؟

-انت كنت بتتكلم في عشرين شنطة، أنا هاخد شنطة واحدة بس،



مليون دولار.

قلت لفظ خارج فضحك بشكل هستيري..

- أمين، حاول تفهم اني ماورثتش المكسيك كلها، خف علي شوية أنا في ورطة.

- أنا كمان هكون في ورطة بعد ما انت تهرب بالسلامة، انت عارف يا طارق إن كده كده آخرتي هتبقي الفصل من الوزارة، محتاج آمن نفسي وجتلي لحد عندي أهو، مش انت تسافر بعشرين مليون وانا أتفصل وأشحت بعدها كمان.

- ومين جاب سيرة الفصل بس ياجزار؟

- ما انت عارف صاحبك وداء الوساخة اللي عنده هههههه

هذه صراحة يُحسد عليها، المضحك هنا أنني أشفقت عليه بالفعل ووافقت، أعدك أيها الضابط البائس أنني سأرشيك، إذا وجدت حلًا للهروب بهذه الأموال في حقيبة واحدة، كانت مكالمة كوميدية بالفعل..

فكرت في السفر بمليون دولار فقط وإخفاء الباقي، الإجابة كانت سؤالًا آخر، ما فائدة الهروب إذًا؟ سأواجه مصيري وقتها دون خسارة المال، وسيكون البقاء في مصر هو الأنسب، هذا ليس حلًا.. وجدت اسم جاك روبي يومض للمرة الثانية في رأسي، كنت مغتاظًا منه بعد فِعلته في قصر كوزمان، لكنني كنت محتاجًا لأفكاره، محتاجًا لعقله الإجرامي الدولي، وليست الأفكار المحلية المعتادة.. اتصلت بشريف لمعرفة ما وصل إليه فأخبرني أن جاك سيتصل بي قريبًا..

بالفعل اتصل بي بعد عشرة أيام كاملة -كعادته في التلاعب بأعصابك-



وقال في مرح:

– سيد رماح، اعتقدت أنك لن تتصل بي مجددًا، هل تريد أن تهيل عليّ السباب أم ماذا؟

– لا يا رجل، لن أتحدث في أمور مضت، أريد أن استشيرك في أمر ما إن كنت تعتبرني صديقك.

– أنت لست صديقي يارماح، لكنني أعرف أن الإرث ثقيل عليك، رغم أنه ليس كذلك بالنسبة لي.

– ....

أكمل بعد سكوتي: الآن فسرت لك لماذا تم اتهامك، لقد طُلب مني أن أمنع زوجتك من دخول المكسيك مرة أخرى، بشكل شرعي أو غير شرعي، فاضطررت لذلك، أرجو منك أن تسامحني.

– أيها الحقير.

– لن أتعامل معك ببرود مثل أشرار السينما، أنا متفهم موقفك وحزين من أجلك، لكن الأمر كان خارجًا عن إرادتي، أطلب منك الآن أن تسامحني وأنا أتمنى ذلك من قلبي بالفعل.

– سأسامحك يا جاك لكن عندما تقدّم لي النصيحة، كيف تصل أموالي للولايات المتحدة، أريد أن أبدًا حياة جديدة هناك، هل لديك ماتقوله دون خداع؟

صمت قليلًا وقال بعد تفكير: نعم للأسف لا يوجد، هناك شركات كثيرة تغسل الأموال، لكن أغلبها نصابين، هناك فكرة لا أعرف كيف



ستنفذها، تستطيع شراء ماخف وزنه وغلا ثمنه، ماس مثلًا، مشكلته الوحيدة أنه يخرج من مناجم إفريقيا دون رقيب وسهل المنال، سيستغل التجار هنا الأمر، وسيبخسون ثمنه طالما أنه مهرّب، مارأيك بالآثار؟ بما أنك من دولة تمتلك ثلث الآثار في العالم، هذه هي السلعة المطلوبة والرائجة هنا، تستطيع طلب المبلغ الذي تريده، خاصة أنك أحضرتها إليهم دون عناء منهم، فكرة عظيمة أيها الفرعون، أليس كذلك؟

- عظيمة لكنها تحتاج لترتيبات كثيرة.

- يبدو أنني سأكون مصدر إلهامك الدائم، هل تريد أن أرتب لك الأمر هنا في تكساس؟

- مازلت في تكساس إذًا..

- بالطبع، تكساس هي المأوى دائمًا ياعزيزي.

سكتّ قليلا ففهم جاك مخاوفي، قال وهو يضغط ببطء على حروف كلماته:

- قلت لك إنني لم أخدعك، هناك رجال من صانعي القرار في المكسيك، رتبوا كل شيء، لا تنسَ أن المال وصل إليك دون عناء، صحيح أنه قليل بالنسبة إلى إمبراطورية كوزمان، لكن ٣٠ مليون دولار بالنسبة لشاب مصري بمثابة دخوله الجنة.

كيف عرف جاك مادفعته لي السفارة؟ أنا لم أذكر رقم الـ ٣٠ مليون طيلة المكالمة، هذا السافل يكذب في ما كل مايقوله بالتأكيد، فلتُقطع ذراعي إن لم يكن هو مدبّر كل شيء، أعتقد أنه وصل إلى صانعي القرار هؤلاء كي ينفذ خطته، كنت أنا الطُعم الصغير الذي أوصله إلى الصيد الكبير..



للأسف كنت أحتاجه بشدة، حتى إذا استطعت أن أحوّل المبلغ لقطعة آثار أو ماس أو غيره، سأحتاج من يعيده لصورته الأولى مرة أخرى، قلت في استسلام:

- اتصل بي ليلة الجمعة من كل أسبوع يا جاك، سأبلغك بما وصلت إليه.

* * *

المشهد الثاني

المكالمتان السابقتان نتيجتهما كانت واحدة، لابد من الوصول لحل بشأن تحويل المال لأوستن، الحل كان في الآثار، آخر مرة ترددت أمامي هذه الكلمة كانت منذ ثلاث أو أربع سنوات تقريبًا، وقت قضية الآثار ومشكلتي مع اللواء سليم لفرماوي، بكل تأكيد مازال يجمع الملايين من تلك التجارة اللعينة، خطر لي فكرة مجنونة، سأطلب منه أن يبتاعني قطعة آثار مقابل الدولارات، ملايين الدولارات مقابل قطعة حجر قديمة، لن يرفض بالتأكيد، ترددت بعض الوقت قبل أن أهاتفه، المكالمة كانت ثقيلة على قلبي لكنها ستفتح لي دنيا جديدة تخفف عني حيرتي، كذلك خروجه للمعاش شجعني كثيرًا، المعاش سيجعله يفتح قلبه للحديث معي ونسيان صراعات الماضي، المعاش سيجعلك تفتح قلبك للشيطان ذاته طالما سيتحرك لسانك بالكلام، وتحكي عن سيرتك الذاتية، أهميتك تعود طالما كان هناك من يسمع..

أمسكت الهاتف، واتصلت به على الرقم القديم، جاءني صوته



الغليظ، للحظة ما ارتعش قلبي من هذا الصوت لدرجة أنني هممت بإنهاء الاتصال ثم تراجعت في اللحظات الأخيرة..

- ألو (أكثر آلو مخيفة سمعتها في حياتي)

- أيوة، سليم بيه.

- أيوة يافندم سليم معاك، مين؟

- معاك النقيب طارق ياباشا.

- طارق مين يابني؟

- رماح يا باشا، النقيب طارق رمّاح..

بالتأكيد يحفظ الاسم جيدًا، هناك ذكرى لا تُنسى بيننا..

- أهلا ياطارق، ازيك يا وسخ؟

- ازيك يامعالي الباشا، أخبار صحة سعادتك إيه؟

- ماشية ياطارق، انت عارف بعد المعاش أمراض الدنيا كلها بتركبك.

- ياباشا ربنا يخليك لينا وتكون دايمًا بصحة تمام.

- خير ياحبيبي، حد مزعلك في المديرية، كلهم تلاميذي يا واد.

- ياباشا، أخوك الصغير على وش رئيس مباحث في أكتوبر دلوقتي، بس أنا اليومين دول خلاص بفكر أسيب الداخلية.

- خير، قلقتني..

- خير ياباشا بس الكلام في التليفون هيكون صعب شوية.



- تنورني في الفيلا يا باشا..

أعطاني العنوان، طريق مصر السويس، الكيلو عشرين، فيلا سفنكس هناك، حتى الاسم، اختاره ليتناسب مع حبه الأول والأخير ومصدر قوته، الآثار..

وصلت بسيارتي الجديدة إلى العنوان، الفيلا كانت أقرب إلى القصر، الحراسة في كل مكان، مررت ببوابة بها إنذار، مخصصة للتفتيش فطلبوا مني سحب السلاح لحين خروجي من الزيارة، العجوز الماكر كان يهاب الموت.. وجدته جالسًا خلف مكتبه يشرب القهوه مرتديًا «روبا» فوق ملابس شبه رسمية، اللواء سليم أسطورة الأمن العام وزعيم تجارة الآثار في مصر كان مضيفي، هذا الرجل يحمل أسرارًا لا تقل أهميتها عمّا يعرفه الوزراء أو مديرو المخابرات، كان قويًّا، لم يأخذ المعاش منه شيئًا، بل منحه عدة كيلو جرامات قليلة في الوزن، قابلني بوجه صارم نوعًا ما، لكنها ليست مثل صرامة الماضي، تلك الصرامة التي تجدها في مدرس الإعدادي عندما تقابله وأنت في المرحلة الثانوية، كأنه يقول: لا سلطان لي عليك الآن، لكن لا تنسَ أنك كنت تلميذي يومًا ما، شعرت لوهلة من عينيه أنه سمع عن التطورات الأخيرة في حياتي، أو استنتج طبيعة الزيارة..

- أهلًا ياطارق، تشرب إيه؟

- أهلًا بيك ياباشا، قهوة زيادة.

جلست في مواجهته منتظراً أن يسألني عن أي شيء لكنه ظل صامتًا، تكلمت معه عن ظروف العمل في منطقة أكتوبر، وذكّرته بمجده القديم في الأقصر، لم أتطرق مطلقًا لحكاية بعينها وخاصة حكاية نقطة تفتيش



العشي، كانت ردوده مقتضبة فاضطررت أنا لحكي قصتي مع إيفيت ليفهم سبب الزيارة، حكيت كل شيء في صدق، منذ الزواج وحتى فكرة هروبي للولايات المتحدة، هذا الرجل يقرأ أفكارك في سهولة تامة، الفرماوي هو جهاز كشف للكذب يمشي على قدمين، الأفضل لك أن تقول الحقيقة أمامه دائمًا، ثم إن الأمر بالنهاية عرض وطلب، لم يكن لديّ سبب لخداعه.

انتهيت فظلَّ صامتًا لدقائق، يزن الحكاية كلها ويخلطها مع معلوماته وخبراته السابقة عني، بالتأكيد عرف قصة حياتي كاملة من رجاله بالوزارة قبل قدومي.. أثناء صمته سندت بمرفقي الأيمن على طرف المكتب، ثم أخرجت جهازًا صغيرًا في حجم عقلة الإصبع تقريبًا من جيب الجاكت، ووضعت الجهاز في خفة أسفل سطح المكتب باليد اليسرى.. تكلم أخيرًا وقال:

– طيب أنا دوري إيه في كل ده يابطل؟ كان حذرًا مني.. طمأنته قائلًا في تذلل:

– سليم بيك، أنا عارف إنك تقدر تتأكد من كل حرف أنا قلته، وساعتها هتعرف إن مفيش قلق مني خالص، أرجوك أنا محتاج مساعدتك فعلًا.

ابتسم ثم ضغط زرًا خلف مكتبه، جاء رجل كبير في السن يرتدي زي الخدم مثل الأفلام العربية القديمة.. أمره سليم قائلًا:

– ابعتلي عامر وطلّبه من برة ياعم فوزي.

– أمرك ياباشا.



هل سيطردني؟ لا أعتقد، هو ليس بهذا السخف أو قلة الذوق، الأمر كذلك لا يحتاج لعامر أو طُلبه، أنا لا أحمل سلاحًا من الأساس..

جاء الرجلان، كانا يشبهان رجال الـWWE، قال لي في ثبات:

- اتفضل على التفتيش جوة ياطارق، ثم نظر للرجلين وقال: تفتيش مخابرات يا رجالة، لو لقيتوا عنده شعره تخينة شوية، ارموه برة الفيلا.

لا أنكر أن الأمر كان مفاجأة بالنسبة لي، لكن في النهاية التفتيش لا يعني لي شيئًا، لست من النوع الذي يحافظ على هيبته طالما أن هناك هدفًا أكبر، والأمر لم يكن يخص كرامتي؛ فأنا لا أتقدم للزواج من ابنة الفرماوي، أنا أطلب منه مساعدتي في شراء آثار لتهريبها خارج البلاد، الأمر لا يتعلق بالكرامة إذًا، تحركت مع الرجلين إلى غرفة مجاورة.. ارتدى كلاهما قفازين من البلاستيك، ثم عبثا بكل ماتصل إليه أيديهما دون تردد، قاما بتفتيش كل ذرة من ملابسي وجسدي، ومن روحي كذلك إن فهمت قصدي، بعد ذلك عادا إلى سليم وأشارا إليه بنظافتي.. وقتها عرفت لماذا يحتج بعض الناس على طريقة التفتيش في المطارات وأحيانًا كثيرة يبكون بعدها، ستبكي بسهولة جدًا إذا قام أحدهم بتفتيشك وأنت تعاني من ضغط في العمل، أو علاقة عاطفية فاشلة، أو مشكلة مادية.. إلخ، يجب أن أبحث يومًا ما عن سر علاقة التفتيش بالبكاء، يبدو أنه التحرش بالخصوصية أو إحساسك بأن هناك من يخترق أسرارك، لم أبكِ بالطبع، إهدار ماء الوجه ضار جدًا بالصحة، لكنه لا يسبب الوفاة على أي حال.. عدت إلى سليم فوجدته هادئًا مثلما تركته، قلت له وأنا أهندم ملابسي:

- تتكلم، ولّا لسه مفيش أمان ياسليم بيه، أنا جيتلك بعد مانسيت



القديم يا باشا، جايلك عشان الجديد ووالله ما فيه نيّة غدر.

- سامعك ياطارق.

- عايز حتة آثار أوصلها أمريكا والفلوس موجودة زي ماقُلت لسعادتك.

- إمم.

- ياسليم بك الخلافات القديمة مش هتوصلنا لحاجة، زمان أنا كنت جاهل ومش عارف مصلحتي ولا الدنيا بتمشي ازاي، أنا مش هقولك إني مش محتاجلك عشان أنا فعلًا محتاجلك، بس برضو أنا قادر أدفع تمن الاحتياج ده.

- يا ابني هو أنا هابيعلك عقد ألماظ ولّا ماسة نادرة، دي أرواح ناس كانوا عايشين زينا دلوقتي، والأرواح دي لو ما احترمتهاش هتأذيك.

- طيب أعمل إيه، أحترمها ازاي؟!

- تحترم اللي بيحافظ عليها، المتحكمين في بيعها، مفيش حاجة بتحصل بشكل عشوائي يارماح، دي منظمة كبيرة، حتى لو حتة آثار راحت لحد بيتهيألك إنه بعيد عنها، بيلف يلف وتلاقيه تبع نفس المنظمة في الأخر، المنظمة دي فين واسمها إيه، ما اعرفش ولا حد يعرف، أنا دوري إني أتفق مع أصحاب البيوت أو الأراضي أو حتى المسئولين في المتاحف، أمسك الحتة في إيدي، أقبض السعر ماتكلمش عنها تاني، أحيانًا اللي بيقابلني أفراد مستقلين، أحيانًا شركة وهمية، سفارات، بس اللي متأكد منه إنهم صور لنفس المنظمة.. عمومًا ده مش موضوعنا، عايز أقولك إن الموضوع مش بسيط، محتاج ترتيب.



- مفيش وقت ياسليم بيه، الموضوع عندي حياة أو موت، اتصرف بأي سعر المهم أمشي من هنا، دي فرصة ماتتعوضش لا ليًا ولا ليك.

نظر لي وهو يصطنع الشرود.. كان يعرف الحل لكنه لا يريد مصارحتي به سريعًا، يريد أن يضعني في المأزق ثم يظهر في دور المنقذ، قال بعد ثوانٍ:

- فراعنة مفيش، لا صعيد ولا هنا، انسى أي حتة فرعوني خالص.

- أومال الآثار بتبقى إيه؟ تقصد روماني وإسلامي وكده؟

- في أهم من الآثار الفرعونية، انت مش مسافر أمريكا؟

- تمام.

- الأثر اللي معايا مهم جدًا للأمريكان، هو تمثال غالي جدًا بالنسبة لي، ده الوحيد اللي احتفظت بيه لنفسي السنين اللي فاتت، تخيل إنه جالي صدفة أصلًا، تاجر فلسطيني هداني بيه قبل المعاش على طول، تقريبًا ماكانش عارف قيمته، التمثال ده اسمه بافوميت.

- بافوميت؟!

- بافوميت ياطارق، معناها الشيطان الأعظم.

- ولو هو بالأهمية دي عند الأمريكان، مابعتوش ليهم ليه؟!

ضحك وقال في بساطة: محدش فيهم عارف إنه معايا.

- عايز كام في التمثال يا سليم بيه؟

- عشرين مليون دولار.

-............................



- التمثال ده عمرك ما هتشوف زيه، تحس إن فيه حاجه غريبة كده بتشدك، هتعرف لما تشوفه.. شوف يا طارق، أنا خلاص مش هشتغل تاني، بداية دخولي عالم الآثار كان بسبب الولد، كان نفسي أجيب ولد أو على الأقل حتى أخلّف، بدأت أفكّر في الشيوخ والزئبق الأحمر والجن والكلام ده كله، ماجابش نتيجة لمدة سنين، بافوميت كان آخر أمل ليّا، سمعت إنه بيعمل معجزات لكن للأسف مراتي التانية توفت وقتها، الأمراض كمان خلتني مش عايز أجيب عيّل وما أربيهوش في الآخر، خِلصت الحكاية وأنا غني جدًا زي ما انت شايف، لكن مفيش ولد، لحد وقت قريب كنت بفكّر أتجوز لتالت مرة بس حاسس إن ربنا بعتك ليّا النهارده عشان أنسى الموضوع تمامًا، وتشيل انت الكنز.

سكت للحظات ثم أكمل في شرود حقيقي تلك المرة:

- تعرف يا طارق إنك يوم مامسكت الحتة بتاعة الكمين كنت مخنوق جدًا، لكن في نفس اللحظة، اتمنيت إني أكون مكانك، اتمنيت أرجع لنفس رتبتك الصغيرة، أثور وأتكلم علشان أخلص ساعتها من الحِمل التقيل اللي على كتافي دلوقتي، اتمنيت إن الزمن برجع بيا تاني عشان أمشي صح.

- الزمن مابيرجعش يا سليم بك، المهم، أجيلك إمتى آخد التمثال؟

أجاب في سرعة: لما فلوسك تجهز.

- اعتبرها جاهزة بس ازاي أتأكد إن الحتة سليمة مش زي زمان.

- دي مشكلتك انت، بس لو هتجيب خبير معاك لازم تبلغني باسمه قبل ما ييجي.

لا يوجد من هو أقدر أو آمن من إيفيت بالطبع لهذه المهمة،



هي الوحيدة التي ستعرف إن كان التمثال قد صُنع منذ ألفيّ عام، أم صُنع هذا الأسبوع، هذه فائدة أن تكون زوجتك خبيرة آثار..

- هاجي ومعايا إيفيت، هي اللي هتفحص التمثال.

- تمام، بس لو حسيت بغدر مش هعملك حاجة، انت ساعتها هاتعرف مين اللي ورايا.

- طيب ولو أنا اللي حسيت بغدر؟

- هسيبك تدخل بسلاحك، لو عايز تدخل بجرينوف براحتك، أنا معروف في السوق يا حبيبي، المفروض أنا اللي أقلق منك مش انت.

بحثت بعيني سريعًا في حجرة المكتب كي أبعد نظره عني، قلت كأنني مهتم بالإجابة بعدما وجدت ضالتي: والخنجر اللي متعلق ده ياريّس، زينة ولّا هيطلع خنجر صلاح الدين الأيوبي؟

وجّه نظره ناحية الخنجر فالتقطت الجهاز في خِفة من أسفل المكتب، وأخفيته سريعًا في جيب الجاكيت الذي أرتديه، قال في فخر: لا كده ولا كده، ده تحفة بس حديث.

هذه الحيلة القديمة يقع بها أي شخص -مهما بلغ ذكاؤه- طالما اطمأن لجليسه..

استأذنت في الانصراف وقمت لأصافحه فظل واضعًا يده داخل الروب، وابتسم.. هذا الرجل لا يترك أي فرصة إلا ويدمر بها أعصاب من أمامه.

ماإن انطلقت بالسيارة عائدًا إلى البيت، حتى اتصلت بأمين الجزار،



بعد سلام فاتر تكلمنا في التفاصيل مباشرة..

- هتاخد الفلوس ازاي يا أمين؟

- هسيب مفتاح عربيتي تحتها في الباركنج، طقم الأمناء اللي بتشوفه معايا كل مرة هيكون موجود يومها برضو، عارفينك ودي ميزة هتساعدنا كتير، هاخد صاحبي وحبيبي رمّاح قدامهم ونمشي لحد العربية، أتطمن على فلوسي وتكون مراتك عدت، أهم حاجة طيارتك تطلع بالنهار والأحسن عز الضهر.

- وإيفيت هتعدي ازاي؟

شرح لي خطته فاندهشت، أعجبتني رغم بساطتها..

لم يتبقَ لي سوى الاتفاق مع جاك لوضع الخطوط النهائية لهذا الأمر، انتظرت حتى يوم الجمعة فجاءني صوته متحمسًا كالعادة، قال بشكل كوميدي:

- هل اخترت بيع أجدادك الفراعنة أم بيع الماس مثل جيرانك الأفارقة؟

- اخترت شراء تمثال بافوميت للأمريكان.

- بافوميت!!

- اسأل أصحابك المهتمين بالآثار عن هذا التمثال، قل لهم إنه قادم من (بيت لحم) نفسها، ولا تتأخر في الرد عليّ.

- سأتصل بك بعد ٤٨ ساعة.

- تمام، هل لديك خطة داخل مطار أوستن؟



- لا لكنني سأجد، لا تقلق.

الأمور كانت تسير بشكل صحيح، الأموال كانت ستنفد في مصر إن عاجلًا أو آجلا، إما بسبب الأيدي الطامحة، أو بأكل الفئران لها لو تم التحقيق معي مثل فيلم (حب في الزنزانة)، وأنا بالطبع لن أُبقي المال بجانبي في شقة بالزيتون وأركب المواصلات مثل قبل.. المال زينة الحياة الأولى والزينة هي ما يُعرض أمام الناس للتباهي، إذا اختفت اختفى المطلوب منها، لكن الأمان يا بافوميت لا يأتي مع الدنيا أبدًا، سمعت مرة شيخًا يتكلم عن نوم الفقير في راحة بال طول الوقت، ليس لديه مايخيفه أو يخسره، أمان طبيعي، بينما الغني يبحث طول الوقت عن الأمان، هل مطلوب منّي أن أعود فقيرًا كما كنت؟ اعتقد أن الأمان الذي يحتاجه الغني هو تكوين ثروته بالحلال، وأنا لا أعلم إن كان هذا المال حلالًا أم حرامًا، المال نجس لكن طريقة الحصول عليه طاهرة.. علي أي حال لقد كنت مصممًا علي إتمام طريقي للنهاية..

وصلت لمنزلي الجديد في الزمالك فوجدت إيفيت مرتدية إسدالًا وتصلي.. هل لازالت تحبني بفكرها الصوفي وهيئتها المختلفة عن ثقافتها هذه؟ بعد انتهائها قلت:

- سنسافر تكساس قريبًا يا إيفيت، سنسافر إلى الأرض التي تمنيتِ العيش بها لآخر عمرك وسنسعى سويًا في دروبها، ما رأيك؟

فرحت في البداية ثم قالت في شك: ألا ترى أن تكساس كلها لم تعد أمانًا، لماذا لا نسافر أوروبا؟ لماذا أمريكا؟ حاولت إقناعها أن أمريكا بها فرص أكثر، لكنها لم تقتنع، هناك سر في تكساس بالتأكيد، صحت في حدة كالطفل عندما ينكشف أمره:



- اختياري أوستن من الأساس كان بسببك أنت يا إيفيت، ثم ظهرت مشكلة تحويل المال، والاحتياج لجاك روبي مرة ثانية، كي يُغلق الحديث عن أي اختيار آخر غير أوستن.. إيفيت، أنا الآن أحتاج للحديث معك بشأن التمثال الذي اشتريته، تمثال بافوميت.

استعاذت بالله من الشيطان بالعربية، مثل أي امرأة مصرية تسكن في حارة وقالت بصوت قلِق:

- بافوميت هو الشيطان يا طارق.

- هذا تمثال وليس شيطانًا حقيقيًا.

- لكنك لا تعرف ما اللعنة التي وضعها به صانعه، لقد سمعت عنه الكثير، بالتأكيد لعنته ستودي بنا جميعا إلى الجحيم.

- ما أعرفه أن هذا الصانع أهداني عرضًا لا أستطيع رفضه، المال في أمريكا ينتظرني مقابل بافوميت، والرجل الوحيد الذي يملكه الآن قمت بالاتفاق معه، سأسافر يا إيفيت سواء وافقتِ أو رفضتِ.

- أنت حر، لكنني لا أرغب في مشاركتك هذا الطريق.

- ماذا تعنين بهذا الطريق؟ السفر أم شراء التمثال؟

- شراء التمثال بالطبع، أنت الروح التي أتمنى العيش معها لآخر العُمر يا طارق، لكن ابتعد عن هذا التمثال أرجوك.

- أرجوكِ أنتِ يا إيفيت، علاقتنا بالتمثال ستنتهي بمجرد وصولنا إلى أوستن، بعدها سيعود لنا المال كما كان، هذه فرصتنا الوحيدة، أرجوكِ.

بعد محايلات طويلة وافقت، وافقت من أجل لارا وليس من أجلي،



من أجل أن تكبر الطفلة بين أبويها، كانت تحبني ولكنها لم تعد تثق بي، ستساعدني فقط حتى نصل إلى أوستن، بعدها لنا نقاش آخر هناك.

❋ ❋ ❋

المشهد الثالث

قبل السفر مباشرة توجهت وبصحبتي إيفيت ولارا لزيارة والديّ لوداعهما، لم نخبرهما بنيّتنا في الإقامة الدائمة هناك، كان اللقاء مؤثرًا حتى البكاء، انفردت بأبي وطلبت منه اللجوء للعميد صالح عيسى دون تردد في حال ظهرت مشكلة أمامهما، أمي كانت تذهب بعيدًا وتغيب عن نظرنا ثم تظهر وتلقي نظرة على لارا في حزن، ذهبت خلفها للمطبخ وسألتها:

– مالك يا ست الكل، رايحة جاية زعلانة من إيه؟ ما أنا هاجيبكم تقعدوا معايا فترة في أمريكا.

– أنا مش جاية ياطارق، انت مختار طريق صعب يا ابني، إحنا مش قده.

– طريق إيه بس يا أمي؟ كام شهر بس لحد الدنيا ما تهدا.

– أنا مش هشوفك تاني ياطارق، إحساسي بيقولي كده، بس خليك فاكر إن بنتك هتعمل اللي انت بتعمله فينا دلوقتي، عايزاها تكون ست البنات لكن ربنا اسمه العدل، أنا ربيتك ومابخلتش عليك بأي حاجة كانت في إيدي، يمكن مكانش عندنا كل حاجة، بس دلوقت بعد مابقى معانا كل حاجة، تبعد؟!

– أمر الله بقى يا أمي، هاعمل إيه؟



- أمر الله عمره مايكون أبدًا في بُعد الابن عن أمه، ده أمر العبد واختياره، الاختيار قلب وعقل ياطارق، وانت اخترت بعقلك بس، عشان كده قلبي هنا هينساك، سامحني ياطارق، هنساك.

قالتها وبكت في حرقة، بكت كأنها لم تبكِ من قبل، لم أرد، سيكون ردي أقرب للطعن منه للمواساة، الألم الحقيقي لا يأتي من الوجع، الألم يأتي من عدم اتخاذ رد فعل لإيقاف هذا الوجع، وأنا لن أعود في قرار السفر مهما حدث، قضي الأمر وصار حتميًا، تركتها وناديت على إيفيت لتستعد للرحيل..

خرجت من المنزل وداخلي حسرة شديدة، لدي رغبة في البقاء تملأ قلبي وعقلي، لكن الغريب إنني ترجمت هذه الحسرة لأفعال مخالفة لما شعرت به..

في طريق العودة اتصل جاك، وقال في حماسٍ: اعتبر أنك وصلت تكساس في أمانٍ سيد رمّاح، يريدون بافوميت منك بأي سعر، لا تخبر أحدًا عنه بعد وصولك أمريكا، سيكون هناك غطاء لحمايتك في المطار وستجد نصف المبلغ الذي طلبته باسمك في أحد البنوك، خمسة عشر مليون دولار، بعد أن يصل التمثال ستتقاضى مثلهم، هل تريد شيئًا آخر؟

كدت أطير من الفرحة، قلت في جنون: أحبك يا جاك، أحبك وأنتظر رؤيتك بفارغ الصبر.

قال في جدية: العرب يتم تفتيشهم جيدًا في مطارات أمريكا يا رمّاح، إيفيت هي من ستحمل حقيبة بافوميت في أوستن.

- تمام..



في اليوم التالي أبلغت سليم الفرماوي بميعاد التنفيذ، السابعة مساءً، ضحك على غير عادته وأخبرني أنه ينتظرنا.. توجهت إلى الفيلا ومعي إيفيت ولارا، دخلنا ومعنا حقائب المال، مررنا بنفس إجراءات التفتيش السابقة، مع الإبقاء على السلاح بحوزتي تلك المرة، حتى الصغيرة لارا لم تسلم من التفتيش، لم يترك سليم مجالًا للخداع قط، سلّم علينا بحرارة، وواسى إيفيت في وفاة والدها، شعر بالاطمئنان لوجودها بدلًا من وجود شخص غريب كخبير آثار.. هناك أموال وسفر، لا توجد خدعة إذًا، بالتأكيد هذه الأفكار جالت في ذهن سليم بعد رؤيتة لإيفيت، أحضَر لنا مشروبين مثلجين مع ترحيب دافئ، لكننا لم نشرب، كنت موصياً إيفيت بعدم تناوُل أي طعام أو شراب هناك، نحن لا نأمن مكر هذا العجوز..

- طيارتك إمتى ياطارق؟

- الصبح إن شاء الله، أكيد انت عرفت ياباشا.

ضحك بشدة ثم وجّه حديثه ناحية إيفيت وقال بإنجليزية جيدة، اكتسبها بالطبع من كثرة التعامل مع الأجانب:

- أعرف طارق منذ زمن، كان مجتهدًا، صحيح أنه ظُلم في بداية حياته، لكن التعويض لم يتأخر كثيرًا.. ابتسمت إيفيت في عصبية ولم تعلق.

قلت لنفسي: البافوميت يا سليم، هناك طائرة وهناك ترتيبات قبل السفر..

كعادة اللواء سليم، كان يعرف ماتفكر به قبل أن تقوله، نادى على خادمه فوزي:

- اقفل الباب علينا من برة ياعم فوزي.



أغلق الخادم الباب في بساطة، لن اندهش إذا اتضح في النهاية أن عم فوزي هو زعيم التنظيم الدولي كالأفلام.. قام سليم للتأكد من غلق الباب بنفسه، ثم ضغط زرًا خفيًا في ساعة يده فخرج جزءٌ من الحائط على يمين المكتب - يصل إلى الثلث تقريبًا - فظهر أمامنا مصعد زجاجي، يشبه المكعب ناقص ضلع، لا يوجد به باب للدخول، كأنه مفتوح بشكل دائم، به لوحة أزرار مضيئة بأحد أركانه الداخلية تظهر من الزجاج الشفاف..

«تفضلوا»

نظرت إلى إيفيت فأشرت لها أن تدخل اولًا مع لارا، دخل سليم بعدها لأطمئن فدخلت.. ضغط سليم زرًّا في اللوحة فعاد الحائط لمكانه وبدأ المصعد العجيب في الصعود، لم أسأله عن وجهتنا، لم يكن هناك داعٍ لتلك الأسئلة، ثوانٍ ونعرف.. خمس ثوانٍ مرّت بطيئة، حرفيا مرّت كالدهر، خمس ثوانٍ هاجمتني فيها كل الهواجس التي تتخيلها في الأمور الإجرامية، أما إيفيت فأغمضت عينيها بسبب الكلوستروفوبيا، توقف المصعد أخيرًا.. لم نجد مغارة علي بابا بالطبع، مازلنا في الفيلا، تحديدًا في أقصى زاوية من حجرة نوم سليم، الحجرة كانت مذهلة بالطبع، كأنك داخل لوحة فنية، تختلط فيها زخارف الماضي برونقها ودفئها مع برودة ورفاهية الأجهزة الحديثة، أعتقد أن عم فوزي هو الشخص الوحيد الذي له حق دخول هذه الغرفة.. كنت ابحث بعيني عن البافوميت، لم أستطع توقع مكانه لكنني لم أكن لأتعجب لو هبط من السقف.. عاد سليم للمصعد مرة أخرى، اعتقدت في البداية أنه ينوي الهروب، لكني وجدته يثني ركبتيه على الأرضية، وضغط على إحدى زوايا المصعد ثلاث مرات وخرج منه مبتعدًا، بعد ثوانٍ انقسمت الأرضية إلى أربعة أجزاء متساوية،



وظهر أسفلها قاعدة رخامية مضيئة، يتوسطها تحفة فنية، أنت يا بافوميت، عرفتك بمجرد أن رأيتك، كأنني أعرفك منذ زمن، كأنك تنادي عليّ منذ قرون، رأيتك للمرة الأولى، هل تذكر؟ جميل ومخيف كما يجب أن يكون الإنسان القوي، جسد بشري نصفه مذكر والنصف الآخر مؤنث، ورأس ماعز ذو قرنين، اقتربت منك وأمسكتك للمرة الأولى ونظرت في عينيك، بحر تضيع بداخله ولا تشبع من هذا الضياع، وجدت كتابات غريبة منقوشة عليك من الخلف فسألت إيفيت عنها، أجابت:

- هذه وصايا الشيطان الثماني للبشر باللغة السريانية، لغة الأرواح وأهل القبور.

قالتها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، فضحك سليم وسألها:

- هل تخافين من تمثال؟

- التمثال لا يخيفني بالطبع، التعامل مع الآثار هو صميم عملي، مايخيفني هو رغبة البعض في تأمل هذا القبح.

- لكنه جميل.

- جميل الجمال المخيف، لقد خلق الله الجمال لكي نستمتع به ونعرف أن الخالق جميلٌ، أما هذا القبح فتشمئز منه النفوس السوية.

- ....

قلت لإيفيت مقاطعاً نقاشهما: دورك..

مشت إيفيت ببطء، من الواضح أن هناك ضيقًا هائلًا في صدرها، مشيتها جنائزية تشبه تلك التي درسناها في الكلية، أمسكت التمثال



وتفحصته جيدًا، بعد دقيقتين، نظرت لي ثم نظرت إلى سليم وقالت في استسلام: للأسف القطعة أصلية.

اقترب منها سليم ثم انحنى وقبّل يدها في امتنان وقال: سلمت يداك يا أميرة.

أمّا أنا فتنفست الصعداء.. حان وقت التحرك من هنا.

فتحت الحقيبة التي أحملها ووضعتك بداخلها يا بافوميت، إلى اللقاء يابافوميت، أراك قريبًا في أرض الأحلام، الولايات المتحدة الأمريكية.. أغلقت الحقيبة ثم وقفت داخل المصعد وبجواري إيفيت ولارا، باعثًا برسالة لسليم أن الزيارة انتهت، المال صار لديك وأنا لديّ بافوميت، نظر لي سليم نظرة غريبة، نظرة تجمع بين الرضا والسخط، بين الحنان والقسوة، نظرة من التي تحوي مشاعر حقيقية وتفكر بها ليالي طويلة، قال كأنه يرجوني:

– خلي بالك من نفسك يا طارق وخلي بالك من إيفيت ولارا.. لم أردّ بالطبع، هذا الرجل كان يتكلم كأنه ينصح ابنه الذاهب إلى المدرسة، الحديث ليس موجهًا لي بالتأكيد..

قال: عارف ياطارق الأسوأ من صراع الخير والشر إيه جوّة الإنسان، صراع الحاجة، انت حاسس بذاتك جدًا، لكن الظروف طول الوقت كانت بتقولك اخضع، اتكيف زي أي شخص ضعيف أو محتاج، معاك سُلطة وكبرياء، طارق باشا راح، طارق باشا جه، لكن دايمًا حاسس إن ناقصك أهم حاجة، الفلوس..

ضحك فجأة حتى دمعت عيناه ثم أكمل خطبته ساخرًا:



- مفيش حاجة في الدنيا أسوأ من إنك تكون ظابط وفي نفس الوقت خاضع، العزة والكبرياء والسُّلطة والدلع طريقهم بيوّدي لحاجة واحدة بس، الغرور، أسوأ صفة يا طارق، الغرور، أومال إيه اللي طلّع شيطانك من الجنة، طِلِع عشان انت تعيش الصراع ده مكانه.

التفت بجسمه للناحية الأخرى، ثم قال بصوت متهدج كأنه على وشك البكاء:

- أنا نفسي أرجع قوي، نفسي كمان أرجعلك واحنا في الأقصر، نفسي كنت أفهم زمان إن الخِلقة دي بتاعة ربنا وارضى بقضائه واسكت، لكن كنت شايف نفسيماينفعش يكون ناقصني حاجة، كنت رايح اقعد مكان شيطاني، كنت مغرور..

ضغطَ الزرّ فنزل المصعد، لم أطِق البقاء دقيقة أخرى مع هذا المخبول، موقفي كان مختلفًا تمامًا عنه، اختياري نتيجته حُسن تصرُّف منّي، أنا غيرك ياسليم.. كنت أتوقع خيانة منه لكن لم يحدث شيء، خرجت مع إيفيت ويافوميت ولارا من الفيلا، سألتني إيفيت والتي لم تفهم العامية جيدًا في تعجب قائلة:

- لماذا كان سليم يبكي بهذا الشكل؟

أجبت دون تردد: لأنه اقترب من الموت، ولو عاد إلى جبروته القديم مئة مرة لن يختلف الوضع كثيرًا، كل من اقترب من الموت يحب الفلسفة بشكل مفاجئ يا إيفيت.

* * *

المشهد الرابع

الساعات الأخيرة لنا في القاهرة.. بتنا ليلتها في فندق قريب من



المطار وفي الصباح توجهنا إلى هناك بسيارة أجرة، لم ينطق طارق بكلمة طول الطريق، كان متوترًا بشكل كبير، أما أنا فكدت أن أموت رعبًا رغم طمأنته لي كثيرًا، في حقيبتي تمثال عمره من عمر التقويم الميلادي ومطلوب منّي تهريبه خارج البلاد، صوت دقات قلبي كان يعلو على صوت أفكاري من الخوف، أجبرني طارق على خلع الحجاب والظهور بمظهر السائحة المكسيكية، لارا كانت نائمة طول الطريق، جميلة أنتِ يا لارا، جميلة لدرجة أنني لن أحكي لك شيئًا عمّا حدث، لتظلي جميلة هكذا طول العمر، وصلنا بحقائب السفر العادية وبينهم الحقيبة الأهم، خطة أمين الجزار كانت تعتمد على وضع بافوميت وسط مجموعة من التماثيل المقلّدة والقريبة منه في الحجم، اشتراها طارق بنفسه من منطقة خان الخليلي، ثم وضع داخل حقيبة الملابس بعض الأدوات الجنسية الغريبة وعضو ذكري صناعي (ديلدو)، اشتراهم من أحد مواقع النت وسبّب له ذلك حرجًا شديدًا وقت الاستلام.. تحركنا فطلب مني طارق الانتظار دقائق، أخرج مظروفًا أبيض اللون، كبير الحجم، من أحد حقيبة صغيرة وتوجه ناحية مكتب البريد داخل مبنى المطار، لمحت مكتوبًا على المظروف من الخارج «استقالة نقيب طارق رمّاح ـ تُسلّم للسيد العميد/ صالح عيسى»

استقالة!! لماذا؟ مافائدتها الآن؟ أنت تهرب من مصر يا طارق، ولن يفيد قبول استقالتك من عدمه، الأمر يحتاج لشرح بالتأكيد.. خرجت تلك التساؤلات على شفتيّ بعد رجوع طارق، فأجاب في لامبالاة:

- لا تشغلي عقلك بهذه الأمور الروتينية يا إيفيت، قد نعود يومًا ما ووقتها سيحق لي مقاضاة الوزارة والعودة للعمل..

قلت في تعجب: من أدراهم أنك أنت مرسل هذا المظروف من الأساس؟



صاح في انفعال شديد لدرجة أصابت لارا بالذعر: اهدئي قليلاً، اهدئي، ليس هذا الوقت المناسب لمناقشة استقالتي بالتأكيد.

للمرة المليون لم أردّ، نهار طويل وثقيل للغاية لكنه حتمًا سينتهي..

أجرى طارق مكالمة هاتفية لم تزد مدتها عن ثانيتين، قال فيهما باقتضاب: داخلين عليك، تقدّم بعدها ونحن من خلفه حتى وصلنا لمنطقة التفتيش، هناك وجدنا أمين الجزار يلوّح لطارق بكلتا يديه وينادي عليه مُرحّبًا بشكل ملفت للنظر، ثم أشار لأحد الأمناء باستكمال التفتيش، قائلًا بصوت جهور «سمير، أنا مع طارق بيه ثواني»

تقدّم الجزار ناحية طارق ثم خرجا سويًا لساحة انتظار السيارات حسب الإتفاق.. هنا جاء دوري، تلك الخطوات كنت أحفظها عن ظهر قلب، ورغم ذلك شعرت أن روحي ستقفز من حلقي بأي لحظة، دخلت على أمناء الشرطة في التفتيش، طابور الحقائب كان معظمه من الأمريكان، وضعت حقيبة ملابسي على السير ومن بعدها حقيبة الآثار المقلدة وبافوميت بينهم بالطبع، ارتديت نظارتي الشمسية كي لا يلحظ أحد توتري.. لمح أمناء الشرطة (الديلدو) أثناء تفتيش حقيبة الملابس فتغيّر الوضع تمامًا، مجموعة من الحيوانات اجتمعت حول فريسة وزوجي العزيز بالخارج مع أمين الجزار يسلّمه المال الملعون، أمسك كل فرد منهم أداة جنسية مبتسمًا لي في خبث، حالة من الإثارة اجتاحت نفوس الأمناء وأنا أبتسم في خجلٍ، الجزار كان يعلم مايفكر به أغلب رجاله بالفعل، تحمّلت تلك النظرات كي نصل ثلاثتنا إلى الطائرة في سلام، تم فحص حقيبة الهدايا والتماثيل المقلدة بعناية، كل شيء فيما عدا بافوميت، لا أحد كان يريد الاقتراب من هذا التمثال المخيف.. سألني أحد أمناء الشرطة بإنجليزية ركيكة وهو يشير ناحيته:



- ما هذا التمثال؟ لم ارَ مثله من قبل في خان الخليلي؟

- هذا تمثال الشيطان، إذا أردت جلب السعادة لأسرتك، يجب عليك تحطيمه أمام الدار، الأسطورة تقول هذا.

- سأشتري إنتاج المصنع بأكمله إذاً..

انتهى التفتيش أخيرًا.. مضيت أنا ولارا نحو مهبط الطائرة في هدوء بعد زوال الخطر، التفتّ فرأيت زوجي قادمًا من بعيد بصحبة الجزار، كانت الضحكة تملأ وجهه بعد مروري بسلام.. قبل ركوب الطائرة قام أمين الجزار بتوديعنا، من المثير للاشمئزاز أن وجهه كان آخر ما شاهدته في المحروسة، حمدت الله أنه لا يحفظ الخُطب الفلسفية، ولا يمتلك الكاريزما التي تؤهله لذلك، فلم يلقِ علينا خطبة مثل سليم الفرماوي، هذا الشاب كان مؤهّلًا فقط لتلقي الرشاوي ب(باركنج) السيارات..

طارت بنا الطائرة أخيرًا وبدأت ملامح القاهرة تختفي تدريجيًّا، شعرت بالحنين إلى مصر، البلد التي حوّلت مسار حياتي، ورأيت فيها مالم أره في باقي الدول التي زرتها، يكفي أن الرب تكلم بها وعنها ورقد الشيطان بأحد قصورها لشهورٍ، مصر دولة قاسية لكنّ روحك - ويالالعجب - تحنّ إليها دومًا.. تمنيت أن يكون للعقل زرٌّ لإيقافه عن التفكير، لينام جسدي حتى نصل بلاد الأصدقاء، بلاد اللهو والدراسة..

«تكساس، لكم أشتاق إليك كثيرًا»



الترنيمة السابعة

لا تبالِ بخطاياك فالشيطان هو درعك من هذه الخطايا ولن يحاسبك كائن عليها



المشهد الأول

نظر اللواء عاصم إلى العميد صالح في تساؤل بعد توقف الأخير عن الحديث وقال:

- إيه! كده انتهت القصة؟

- آه انتهت، رمّاح وأسرته سافروا لأوستن، أعتقد إنه باع بافوميت، معرفش ناوي يعمل ايه بعد كدّه، بس ممكن بالفلوس يفتح مشروع هناك او حتي يصرف منها وخلاص.

- كده بكل بساطة؟!

- الحظ كان معاهم أوي في موضوع المطار ده.

- والاستقالة بعتها لمين؟ مفيش حاجة وصلتنا عن استقالة ظباط قريب!

- دي مش استقالة أصلًا، دي ورقة فيها تفاصيل مكان فيلا الفرماوي والحراسة فيها ومكان الفلوس، ومعاها جهاز التصنت، بعتلي الكلام ده كله في ظرف كبير وكتب من برة استقالة عشان محدش من الوزارة أو المكتب عندي يفحصها، رمّاح كان حريص جدًا.

- اه علشان كده انت اللي بلّغت عن سليم الفرماوي ومكان الفيلا ومكان الآثار اللي عنده.

- بالظبط، طارق عارف إن القضية مش هتدخّل سليم السجن، بس كان حابب التشهير بيه.

- حكاية غريبة قوي يا صالح.



- ولا غريبة ولا حاجة، الظابط ده اتظلم على فكرة، على المستوى الشخصي أنا كنت مستجدعه جدًا هو وإيفيت، زارونا مرتين في البيت بعد ما طمنته في موضوع وزارة الخارجية.

سكت عاصم برهة وقال:

- عارف سيادة الوزير كان فاكر إيه، إن رجالتك في أمن الدولة شغالين لحسابك، ماهو بيني وبينك ماينفعش تبقى انت اتنقلت التفتيش والرقابة ولسه مسيطر على أمن الدولة.

- هو يعني نقلي من أمن الدولة هو اللي ينفع ياعاصم؟! ماعلينا..

لم يرد اللواء عاصم بالطبع، مثله لا يُقحم نفسه بهذه الترهات أو يتكلم عن قياداته، العميد صالح غاضب من الوزارة لتجاهلها عمله بأمن الدولة طيلة السنوات الماضية، ونقله إلى قطاع التفتيش والرقابة، هذه مشكلة صالح وليست مشكلته..

استأذن من الضيف، ودخل غرفة صغيرة ملحقة بالمكتب، مكالمة السيد الوزير كانت أهم إجراء الآن، هذه أمور يسهل استنتاجها بالطبع، عاد بعد خمس دقائق بالتمام وقال بابتسامة:

- السيد الوزير بيشكرك ياصالح، كلام بيني وبينك أنا حاسس إن في أمل ترجع أمن الدولة تاني، مش بعيدة والله، الحركة قربــ... مالك يا صالح؟ المفروض تكون مبسوط.

- أنا هقدّم استقالتي ياعاصم.

- استقالة ليه، هو الموضوع مضايقك للدرجة دي؟



- لا لا خالص، مواضيع تانية كتير، لخبطة في البيت وشوية مشاكل عند بناتي، محتاج أرتاح وارتب أمور كتير.

- عمومًا خُد وقتك خالص وساعتها نتكلم.

المقابلة انتهت على الأرجح، نظر صالح نظرة عتاب طويلة إلى عاصم، عتاب لوزارة الداخلية المتجسدة في صورة اللواء عاصم، نظرة تحمل في طياتها سنوات طويلة من المعرفة الجيدة، نظرة ظل سببها عالقًا في ذهن صالح وهو يغادر المكتب ثم ديوان الوزارة بأكمله، ألقى على المبنى نظرة أخيرة، كان يعلم أنها الأخيرة، وركب سيارته في هدوءٍ.. هتف للسائق:

- اطلع على البيت يابني.

تأنيب الضمير كان يعصف به.. ركن رأسه على مسند المقعد الخلفي وبدأ في تذكّر المكالمة الأخيرة بينه وبين طارق رمّاح، اتصل به قبل السفر بفترة قصيرة:

- آلو.. ازيك ياصالح بك.

- الحمد لله يا بطل.. أخبارك؟

- أنا خلاص مسافر قريب يا باشا، حبيت أسلّم علي سعادتك وليا طلبين عند سعادتك، أبويا وامي مالهمش حد في القاهرة بعد ربنا غيرك، هقولهم يكلموك لو واجهتهم مشكلة، ده بعد إذنك طبعًا يا باشا.

- ياد عيب، أي حاجة يكلموني فورًا، بس انت ناوي تطوّل ولا إيه؟

- بتعرض لضغوط صعبة أوي بعد ما إيفيت ورثت، الكل طمعان في الفلوس يا باشا.

- قصدك أمن الدولة والكسب غير المشروع؟

- ....

- مابتردش ليه؟

- هوانت اللي عملت كل ده ياصالح بيه؟ معقوله! طيب ليه يا باشا ده أنا ابنك.

- بُص ياطارق، أنا لما اتنقلت من أمن الدولة للتفتيش، بقيت مش طايق نفسي، مش قادر أتعايش، فين السلطة والقوة، فين كن فيكون؟! دلوقتي أنا أخري أفتش أو أحقق مع ظباط مزوغة من الشغل.

- تقوم تعمل كل ده، طب ليه، علشان الفلوس؟ فرَقْت إيه انت بقى عن سليم الفرماوي؟

- أنا ماعملتش حاجة، الوزارة هي اللي عملت، صالح عيسى بعد ما خدم في أمن الدولة ٢٠ سنة يمشي منها وهو عميد؟ جايين بعد ما قربت آخد خيرها يمشّوني، ده اسمه إيه؟

- يا خسارة يا باشا، بسانت كنت تقدر تطلب الليانت عايزه من غير حوارات كتير.

- حبيت أضغط عليك عشان تضطر تسافر، وكمان تكلمني من غير ضغط عليّ، دلوقتي انت بتكلمني وأنا مطمّن إن مفيش قلق منك، مفيش تسجيلات، مفيش جواك نيّة وسخة، كنت عايز الأمان يا طارق، الأمان..

- ولو كنت سافرت وماكلمتكش؟



- انت لسه هتقابل سليم وتحجز طيارتك وتظبط ناس في المطار، مقابلتك مع السفير المكسيكي كلها متصورة عندي، أنا مراقبك من فترة يا طارق.

- يااه ياصالح بيه، انت آخر واحد في الدنيا دي توقعت إنه يبتزني.

- ده مش ابتزاز يا رمّاح، أنا عارف اني بغلط، بس انت مش عارف يعني إيه مستوى عيشة ضعيف بحد المعاش.

- طلباتك؟

- ٥ مليون دولار.

- نعم!! ودا ليك انت لوحدك ولّا الرجالة اللي ساعدوك في خطتك؟

- مفيش رجالة ولا حاجة، ده مجرد تغيير أصوات في التليفون، أنا اللي كنت بتكلم في كل المكالمات، أنا ما اديش سري لأي حد مهما كان، بس لو حابب أدّي السر ده للوزارة قبل السفر، سهلة.

- مفيش غير ٣ مليون دولار، سليم طالب كتير وده الطلب التاني اللي كنت بكلمك عشانه، بس خلاص طلبي كده ملوش معنى دلوقتي.

- عايز تنتقم من سليم بعد سفرك، صح؟

- صح، مش مهم يتسجن، المهم تكون الفضيحة.

- الـ٣ هيبقوا ٤ مليون وسيب الموضوع ده عليّ.

- ازاي؟

- هتبعتلي ظرف مكتوب عليه من بره استقالتك، جواه تفاصيل العملية بس لازم يكون فيه تسجيل وخلّي بالك سليم مش سهل،



أكيد هيفتشك تفتيش ذاتي والباقي سيبه عليا أنا.

– طيب ما آجيلك أسلمك الفلوس والتسجيل؟

– ههههه، يا ابني انت لا هتكلمني في التليفون ولا هتجيلي المكتب بعد كده.

– أنا مفيش عندي أي نية غدر بيك ياصالح بيه، انت كنت مثل أعلى بالنسبة لي.

– عارف ياطارق وانا كمان بحبك، بس بعد المكالمة دي هنكره بعض، صدقني.

– وانت هتكرهني ليه؟! طيب أنا ليا أسبابي

– علشان هكره نفسي بعد اللي بيتعمل ده.

– لو أخدت الأربعة مليون، تسيبني أعيش في مصر؟

– ماعادش ينفع ياطارق، أنا وانت بقت حاجات كتير بتمنعنا نكون في مكان واحد، أولها كسوفي منك، وقلقك مني، الله أعلم أنا هضعف تاني ولا لأ.

– أربعة مليون.. وتضعف تاني!

– أربعة مليون ملوثين زي أربعين ألف نضاف، مستني الفلوس على حساب صديق ليا اسمه عبدالمقصود في البنك العربي الإفريقي خد رقمه عندك ٦٥٩٨٨١٢

– ده انت جاهز، طيب مافكرتش في الفضيحة؟

– إحنا اتفقنا اتفاق تاني من غير ما تتكلم يا رمّاح،



موضوع الفلوس اللي هتحولهالي ميتفتحش قُدام حد، حتى نفسك، عشان تفضل متطمن علي أبوك وامك هنا في مصر، ده غير قصة سليم وملف المكسيك، صدقني يا طارق، أنا أكتر واحد في مصر دلوقتي مش عايزك موجود فيها.

سرح العميد صالح في تلك المكالمة في الطريق، معترفًا - لنفسه - بما عليه فيها، خلع الجاكيت ثم فك ربطة العنق وألقاها بجانبه، الذكرى كانت تهاجمه بشراسة، والتساؤلات تخنقه، كيف يعيش الفرد حياته كلها منضبطًا ثم يظهر ضعفه الحقيقي في النهاية؟ الاختبار حين يأتيك في سنواتك الأخيرة بالحياة لا يكون اختبارًا بل مصيرًا، أموال طارق رماح كانت هي المصير، أربعة ملايين دولار، الاختبارات انتهى وقتها، تحديد المصير هو الأهم في سن المعاش.. وصل إلى شقته في المعادي فوجد زوجته في انتظاره، سيدة مجتمع من الدرجة الأولى، لها أنشطة ضخمة في النوادي الاجتماعية والحفلات الخيرية وقريبًا في مجلس الشعب.. الحق يُقال، لا يوجد غبار على سلوكها، وإن كان مظهرها لا يوحي بذلك، سيدة أعمال، لا وقت لديها لهذه الغرائز الحيوانية.. زوجها لواء شرطة عن قريب، ورصيده في البنك يتكاثر في نشاط، فليكن مايكون بعد ذلك.. قابلته في لهفة وقالت في ترحاب كأنه ضيف «حمد الله على سلامتك يابابا» كانت من النوع الذي ينادي زوجها بـ«بابا»، هذا السلوك له احتمالان، الاحتمال الأول: التعلق الشديد ومعاملة الزوج كمثل أعلى، أما الاحتمال الثاني: أن الزوجة (بتاخده على قد عقله)، نحن هنا في استثناء لهذه القاعدة: العميد صالح يعرف نوايا زوجته وطلباتها القادمة، لكنه يطيعها في النهاية مقابل راحة البال.

ذلك اليوم لم يكن لديه أي طاقة للنقاش، أما هي فباغتته بطلب من



طلباتها الخرافية..

«مش مدام بتول زميلتي في الجمعية خلاص اشترت محل كبير في عباس العقاد وناوية... إلخ»

لا طاقة لديه لجدال آخر، يكفيه جداله الأخير مع نفسه واحتقاره لها.. سألها كأنه لم يسمع حديثها:

- كلمتي البنات النهارده؟

- آه يا بابا، تمام زي الفل، ربنا يخليك ليهم، انت مكنتش سامعني ولّا إيه؟

- هاتي بس التليفون أكلمهم.

استجابت لطلبه على الفور، أمسك الهاتف واتصل بهما في شوق، سأل عن أحفاده وحال صحتهم، استفسر عن أي ضغوط تواجه ابنتيه في الحياة، لا يوجد، البنتان سعيدتان في منزلها وكلتاهما مشغولتان بالترتيب لأحداث سعيدة قادمة؛ عيد زواج الكبرى وحفل ابن الثانية برياض الأطفال، لا خطر على عائلته سوى مكر الزمن، أو بمعنى آخر مكر الله، اتخذ قراره الأخير وهو يردد لنفسه: لا أحد يأمن مكره إلا بالعمل الصالح.. يا صالح.

«هجهزلك الحمّام، تطلع تلاقي الأكل جاهز، انت اللي جاي متأخر النهارده»

هذه فرصة ممتازة لينهي المسألة بشكل سريع، هناك أوقات تمر علينا بسبب انشغال العقل بمسألة ما، لا نشعر فيها بالزمن ونفقد الشهية للطعام ويصبح النوم رفاهية لا نملكها، نشعر بتفاهة كل شيء



باستثناء حل المسألة وتبعاتها، صالح كان يمرّ بهذه الحالة في تلك اللحظة.

دخل غرفته، وسحب المال من أسفل السرير للتأكد من وجودهم، أربع حقائب سوداء تلمع حتى في الظلام الدامس، أربع حقائب يرقد ضميرة بداخلهم في سكون تام.. أعاد الحقائب مرة أخرى لمكانها ثم توجه لدورة المياه ممسكًا شنطة صغيرة في حجم كف اليد.. أغلق الباب دون مفتاح ثم أخرج ورقة وقلمًا وشريطًا لمنشط جنسي شهير، ابتلع منه ست حبات كاملة، الرصاص والسمّ وقطع الشرايين سيجلب العار لأسرته مدى الحياة، اختار صالح الانتحار الهادئ، الانتحار الذي لن يترك سمعة سيئة لزوجته وابنتيه من بعده، ترك رسالة قصيرة لزوجته أمام المرآة، بعد كتابتها بخط منمق كعادته في كتابة محاضر أمن الدولة في الماضي..

«زوجتي العزيزة..

أرجو من كل قلبي أن تسامحيني، انتحرت لأسباب خاصة بي أخجل من مصارحتك بها، لا تخبري البنتين شيئًا عن لحظات ضعفي الأخيرة، فلأبقَ قويًا في نظرهما بعد وفاتي مثلما كنت في حياتي، وصيتي لك أن تبحثي عن إيفيت ديلابينا، زوجة طارق رمّاح، أنتِ تعرفينها، هناك أربعة ملايين دولار موجودة بحجرة نومنا، عليك تسليمهم لها.. اتصلي بالدكتور عبد المقصود، سيساعدك في إنهاء الكثير من الإجراءات، وسيحفظ السر مثلك تمامًا.. حبيبتي، لكم تمنيت لقاءك في الجنة، لكني لم أعد واثقًا من هذا، فادعي لي كثيرًا في صلاتك»

* * *



المشهد الثاني

مدينة أوستن، تكساس

أوستن من جديد..

هذه المرة كانت باستيراتيجية وفكر مختلف وقوة أكبر، كنت سعيدًا بالمدينة لأقصى حد يا بافوميت رغم حنيني إلى القاهرة من آنٍ لآخر، شعرت وقتها بتضحية إيفيت الكبيرة عندما اختارت البقاء في مصر وقت الزواج..

أوستن من جديد لكن هذه المرة بلا عودة..

بعد مرور إيفيت بسلام من المطار، وقيام الأمريكان بتفتيش كل شيء يخصني، حتى الجوارب - هذه من أعراض ١١ سبتمبر كما تعرف ياعزيزي - قمنا بتأجير شقة بسيطة لحين الحصول على ثمن بيع بافوميت كاملًا، كنت متحمسًا لمقابلة جاك روبي لإتمام الصفقة، فحدد لي موعدًا بعد أسبوعين من وصولنا، قضينا أغلب أيامهما في التنزه، شاهدت كل ذكريات إيفيت أمامي، الجامعة، أماكن اللهو، الأصدقاء، كل شيء..

لارا كانت سعيدة بأصدقاء الدراسة الجُدد، وصديقات إيفيت اللاتي داعبناها كثيرًا، صحيح أنهنّ تَعجّبن من التغيير الذي طرأ على إيفيت لكنها لم تتضايق من ذلك..

كن يسألن في دهشة حقيقية: إيفيت لا تشرب الخمر ولا تسهر ليلًا بالمراقص، كيف هذا؟!!

كانت تجيب في ثبات:



- ما النفع الذي يعود على الإنسان بعد السُكر؟ ما الجميل في الترنح بالشوارع والقيء على الجدران؟ مافائدة أن تعيش بين الناس وعقلك غائبًا؟ لا أفهم الآن هذه التصرفات الغريبة، هناك إلهٌ في قلبي، أناجيه وقتما شئت لأستريح، إلهٌ يملأ قلبي بالجمال ويُسكرني بالخير.

فيقُلن في خبث: الشيء الوحيد القادر على تغيير الإنسان للأفضل هو الحب، إنه الحب إذًا يا إيفيت.

أجدها تردد في خجل: بالفعل، إنه حب الخالق..ثم تنظر ناحيتي وتكمل: والحبيب.

بعد أسبوعين، ذهبت لملاقاة جاك عند متنزه رائع هنا يُسمى (ليدي بيرد)، وجدته واقفًا هناك بجوار أحد التماثيل، ما إن رآني قادمًا حتى هتف في مرحٍ:

- أوووه الضابط الذي يملك الكثير في جعبته، أنت ساحر أيها الفرعون، كيف لم يدرك المصريون قيمتك وأنت بينهم؟

قلت في تفاخر: لا أحد يعرف قدراتي أيها المحارب.

- أين بافوميت؟

- بعد حصولي على المبلغ المتبقي سأحضره إليك.

- سيصبح رصيدك غدًا ثلاثين مليون دولار كما اتفقنا.

- من الذي يريد بافوميت ياجاك؟

- ليس شخصًا بمفرده، الوحيد الذي أعرفه منهم هو كاهن في كنيسة بنيويورك، هذا كل ما أعرفه، اتصل بي بعد عرض اسم بافوميت على



الدارك ويب مباشرة، صمم في البداية على إيقاف الإعلان، صراحة بافوميت هذا لا أدفع فيه هذا المبلغ، لكن هذا الكاهن وافق على الثلاثين مليون فوراً.. أعتقد أن بعض ضباط المطار تابعين لتلك الكنيسة، أو الديانة أو أيًا كان، لا أعرف تحديدًا، لكن ما أعرفه جيدًا هو أنك لا تستطيع خداع هؤلاء مهما ظننت ذلك، وأن عمولتي منهم هي الأعلى في حياتي.

- وماذا تنوي العمل بها؟

- لا شيء سوى العمل المخالف للقانون، سأمارس عملًا نظيفًا أمام الجميع لكنك تعلم وأنا أعلم أن الباطن سيحوي شيء آخر، مارأيك أن تعمل معي؟، شركة أمن، استيراد وتصدير، ملاحة، شركة ضخمة تضمن لنا البقاء في أمريكا بشكل محترم

- سأعيش بشكل محترم بعد إتمام الاتفاق.

- لا أحد يبقى هكذا بلا عمل مهما تضخمت ثروته، وإلا كان بيل جيتس وكوزمان ديلابينا جالسين مع أصدقائهما أمام البحر يلعبان الورق، ستحتاجني وسأنتظرك.

- دعنا ننتهي من قصة بافوميت ثم نتكلم بعدها عن العمل.

- اتفقنا.

عدت للطريق الذي جئت منه ثم تذكرت شيئًا هامًا، ناديت عليه وسألته في اهتمام: صحيح ماهو اسمك الحقيقي ياجاك؟ أعتقد أن من الواجب أن أعرف اسم شريكي.. ابتسم وتركني مبتعدًا.



الترنيمة الأخيرة

عليك بالحكمة القذرة ولا وقت لديك لتفكر براحة الآخرين وكن أنانيًا



المشهد الأول

مدينة أوستن، تكساس

إحدى ليالي ديسمبر ٢٠٠٨

ها أنا أمامك ياباڤوميت فأجبني، هل الاختيار الصحيح يتعلق بالهوى أم بإرادة مخالفة الهوى؟ أحيانًا نقول إن مخالفة الهوى هي الصواب لكن ماذا بعد؟ الاختيار الثاني سيصبح هوى، والثالث، ثم تضيع الحقيقة بين اختيارات كثيرة.. حكيت لك قصتي كاملة قبل أن تأتي إيفيت وتتركني معها بلا قرار.. أصارحك القول إنني لا أحب إيفيت، لا أحب أحدًا على الإطلاق، أحب نفسي؟! لا أظن، من يحب نفسه سيشعر يومًا ما بالحب لغيره.. أنا أريد المجد للبطل في النهاية، أنا بطل الفيلم وفي نفس الوقت أحد عشاقه، إذا مانجحت وصرت بطلًا، سأعيش، أما إذا خسرت، فهذه مشكلة البطل، وسأبحث أنا عن فيلمٍ جديد، الموضوع معقد، أليس كذلك؟

اختر لي الصواب ياصديقي، هل أستمر في طريقي مع جاك أم أكتفي بما حققته؟ أجبني بسرعة، أرجوك، أرى إيفيت قادمة ناحية المنزل، أراها تسير وبجوارها لارا في سعادة، الابتسامة الصافية مع لمعة العين، هذه إيفيت عندما تكون سعيدة، تفرح فتفرح كل الأشياء من حولها، إلا أنا، عندما أراها هذه الأيام يغمرني شعورٌ سيءٌ لا أعلم سرّه، لم أعد أطيق الاقتراب منها كأنها الخطر.. دائمًا الخطر هو ما يردعني يا باڤوميت وليس المنطق، حينما شعرت بخطر السجائر قديمًا توقفت عن شربها، حينما شعرت بخطر الاستجواب هربت دون ترك دليل يدينني، حينما



شعرت بخطر النساء زهدت فيهن، أنا الآن لا أشعر بأي خطر معك يا بافوميت، هناك عشرات الأخطاء كنت على وشك الوقوع فيها، الوزارة، سليم، جاك، سلطات المطار في القاهرة وأمريكا، لكنني لم أقع، نجوت كي تكون نهاية الفيلم سعيدة، نهاية بلا ضعف أو خوف من الغد، وبلا إيفيت، لكنها معك انت.. سأقبلك قُبلة الوداع قبل أن تذهب لمرقدك الأخير في كنيسة الشيطان، وسأترك إيفيت تقرر مصيرها معي حينما تحين اللحظة المناسبة، أما الآن فلنحتفل بوصول المال كاملًا لحسابي في البنك، شكرًا يا بافوميت على إنصاتك لي في الساعات الماضية، وهدايتك، لكم أنت رائع ومخلص..

* * *

المشهد الثاني

«هيًا ياشباب لنبتعد عن قطتي المكسيكية حتى تهمس للفرعون بسرّها دون إزعاج»

بعد أن نطق كوزمان جملته هذه أمام ابنته وطارق ساد الصمت المكان..

كان طارق أول من تكلم وقال في يأس: أي سر؟ هل هناك أسرار أسوأ من أبيكِ، إنه أشبه بالشيطان.

- السر يخص والدتي هذه المرة.

- والدتك؟! لقد قلتِ من قبل إنها توفت وأنتِ في الثالثة عشرة من عمرك، أرجوكِ يا إيفيت لا تقولي إن هذا السفاح هو من قتلها.



أجهشت إيفيت بالبكاء مرة واحدة، حتى إنها عصرت قلب طارق ببكائها وقالت:

- هذا السفاح قتل أمي، قتلها بعد أن ضاقت روحها بما يفعله، كانت تحبه، لكن جنونه جعلها راغبة في الهروب منه بأي شكلٍ، أحبّت واحدًا من رجال أبي، يُدعى ميشيل، لم يستطع مقاومتها، فقررا الهرب من القصر، حينما عرف والدي سرّهما قتلها بطريقة بشعة، دون أدنى إحساس بالذنب.

- ولماذا يريد أن تخبريني بهذا السرّ؟

- كنت سأخبرك سواء طلب أو لم يطلب، قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها يارمّاح، والدي مجنون ويريدك أن تعرف درجة جنونه.

- أنتم عائلة قذرة.

- بلى، نحن عائلة قذرة، لكنني هربت من الماضي الذي لم أكن سببًا في قذارته، صنعت عالمًا خاصًا بي في الولايات المتحدة، وحاولت التجنس بالجنسية الأمريكية من أجل إزالة الأوساخ من حولي، لكنني فشلت، أنا آسفة.

* * *

المشهد الثالث

أريد أن أتكلم عن معاناتي ياباقوميت، ليس لدي وقت طويل معك مثل رمّاح، كنيسة نيويورك في انتظاري الآن.. لماذا يحكي لك الكل



ياباڤوميت ولا أحد يعرف قصتك الحقيقية، ام أن قصتك معروفة والكل يتعمد تجاهلها؟ غريب هذا، هل الشيطان عدوٌّ للإنسان أم صديقٌ أم مثلٌ أعلى؟ إيفيت تعتبرك عدوًّا، أنا ورماح وغيرنا نعتبرك صديقًا مقربًا ووسيلة للسعادة، الراهب ومن دفعوا ثمنك، يريدون إقامة الطقوس وممارسة شعائرهم أمامك، يعتبرونك مثلاً أعلي بل غاية الكون كله، فلتفرح اذاً، أنت ذاهب إليهم الآن.. هل ستحقق لنا السعادة أيها التمثال، أم ستخنق أرواحنا داخل اجسادنا الهزيلة الملأى بالشهوات؟ أنت ماكر جدًّا يا باڤوميت، قد يصدق فيك قول بولس الرسول «لأن الشيطان نفسه يغيّر شكله إلى شبه ملاك النور»، تدخل في أعماقنا وتقول: أما الشيطان فاكرهوه، أريدكم أن تُحبوا أنفسكم ثم نكتشف بعدها أننا كرهناك بالفعل، لكننا أحببنا أنفسنا لدرجة العبادة، أنت ماكر جدًّا وهذه مآساتنا..

هذه فرصتي للحديث معك بصدق يا باڤوميت، أجدادي العرب كانوا يحبون الصدق ويكرهون الزيف، أنا مثلهم رغم كوني لست عربيًّا بدرجة نقية، والدتي ابنة أحد المهاجرين اللبنانين للمكسيك ووالدي مكسيكي، بدأت علاقتهما بأقصى درجات العشق والتضحية حتى الزواج، ثم بدأت في الخفوت تدريجيًّا حتى وصلت لدرجة الكُره، أنت تعرف هذا النوع من العلاقات جيدًا، ذلك النوع الذي يفني ولا يبقى منه شيئًا، أمي العربية لم تستطع التكيف مع الحياة المكسيكية، وخطر الفقر المدقع مع زوجها، أما والدي فاكتشف أن والدتي صارت عيناها وشفتاها ذابلتين، ونهودها وأردافها أقل جاذبية بعد الحمل والولادة، يسمونه في علم النفس الحب الأحمر القائم على الشهوات، ينتهي دومًا بنهاية الظرف وانطفاء لهيب الشهوة..



عملت فترة مع والدي السكّير في ورشته، كان حدّادًا بالمناسبة، القاعدتان الوحيدتان اللتان تعلمتهما من هذا الرجل، ألّا أتعاطي أية مخدرات مهما كانت المغريات، والثانية أن البنيان القوي يفتح لك أغلب الأبواب المغلقة، القاعدتان كما ترى جعلا مني قاتلًا مأجورًا متبعًا بشكل دائم، هذه ميزة أن يكون والدك ذو فكر تربوي.. بدأت حياتي عمليًا حينما عرفت كوزمان ديلابينا، عالم مختلف تمامًا عن حرب الشوارع والعصابات الصغيرة، فرق شاسع بين الديلر (موزّع المخدرات) والقاتل، الفرق في المال الذي يجعلك تتحمل كل ما بالحياة، حينما يزيد المال، يزيد معه كل شيء، المتعة والرفاهية بالأخص.. كان كوزمان أكاديمية شر تمشي على قدمين، تعلمت منه قسوة المنتصر وانتقام الخاسر وصبر المُنفّذ، كوزمان كان ساحرًا لا أُنكر ذلك، لكنه سحرٌ مختلفٌ، السحر الذي تتعجب أنت شخصيًا من وجوده، عرفته عندما كنت شابًا في الثلاثين، لم يكن قد دخل بعد الى عالم السياسة وتقلّد المناصب الهامة، رأيته في إحدى صفقات تهريب المخدرات على الحدود الأمريكية، كان واقفًا أمام كشافات السيارة كأنه بطل من الأساطير، نحيلًا يشع الذكاء حتى من ظِلّه.. بعد فترة ذاع صيتي كقاتل محترف، بعد أن نجحت في تصفية جماعة منشقّة عن أحد خصومه، تلك الواقعة التي كان لها صيت هائل في عالم الجريمة بالمكسيك.. طلب كوزمان مقابلتي بعدها عن طريق المحامي الخاص به، قابلته وتكلمت معه فصرت مفتونًا به أكثر، لمحت في عينيه إعجابًا خفيًا بقدراتي، أنهيت له الكثير من المشاكل بتصفية المتسببين فيها وخصومه، كنت أحبّ تلك النظرة التي كان يرمقني بها بعد كل عملية، نظرة الرضا، نظرة لم تتغير سوى مرة واحدة، وهذا قصة..

لم أتزوج بالطبع يا بافوميت، مثلي لا يتزوج أبدًا مهما يكن، أولًا



بسبب طبيعة الحياة، فالقتل يمنعك من الاستقرار واتخاذ رفيق بالطبع، رفيقي كان كوزمان، حكيت له الكثير عن طولتي ووالدي وتفاهاتي، كان ينصت لي جيدًا، لم يمل يومًا، صحيح أنني لم أكن ذراعه اليمنى، لكنه كان يعتمد عليّ كثيرًا.. كوزمان لم يمنح سرّه لأحد يومًا فيما عدا صديق طفولته وطبيبه النفسي في نفس الوقت، أحيانًا كنت أشعر بالغيرة من قوة صداقتهم، هل تتخيل ذلك؟ الأمر الثاني كان انجليكا.. الأمور كانت مستقرة حتى جاء اليوم الذي تكلمت فيه صدفة معها، أنجليكا، زوجة كوزمان الجميلة التي تكبرني بعدة سنوات، كانت سكّيرة، تتجول طول اليوم في القصر بلا هدف، تحب كوزمان لكنه حب من طرف واحد.. ذلك اليوم، صرت عشيقًا لأنجيليكا، كانت ليلة من التي تتغير معها القناعات والرؤى، سافر كوزمان لإحدي شركاته بمدينة فيكتوريا، فظلت هي تشرب الخمر وتتجول مترنحة بحديقة القصر حتى وجدتني أمامها بالجراج أنظّف سلاحي، بَكت دون النظر لعينيّ فاقتربت منها في صمت وقبّلتها قبلة طويلة، أعتقد أنها أطول قُبلة في حياتي، كانت أنجيليكا تحتاج الاهتمام، لكنني في البداية كنت مهتماً بزوجة مثلي الأعلى فقط، تدريجيًا شعرت بحبي لأنجليكا بعد أن أصبحت أهم أسرارها، صارت علاقتي بسيدة القصر أعنف رغم أنها تفتقر إلى التواصل اليومي، نتلاقى ونمارس الحب بشكل جنوني حين تتاح لنا الظروف، كي لا نثير الشبهة، لا تليفونات لا رسائل، الرغبة وحدها هي التي تقودنا، طلبت مني الهروب معها كي نبتعد عن كوزمان، ونبدأ حياة جديدة في الولايات المتحدة، خططت لكل شيء: الهروب عبر خليج المكسيك، إقامتنا في أميركا، حتى مصدر دخلي هناك، ثم أدركت الفخ الشنيع الذي وقعنا فيه؛ لقد عرف كوزمان بتلك العلاقة الآثمة،



تكلمت إيفيت بنيّة سليمة عن مقابلاتنا داخل جراح القصر ليلًا، المراهِقة ذات الثلاثة عشر ربيعًا والتي عبثت الهرمونات بعواطفها بشكل فظ، أوقعتنا حكاياتها لأبيها عن تفاصيل القصر في غيابه لكنها لم تمر على كوزمان هكذا، أضمر لنا الشر في نفسه وخطط له جيدًا.. بعد ذلك، هربت أنجيليكا بإحدى السيارات من قصر المسيح، كنت في انتظارها بأحد الموتيلات على طريق فيكتوريا، هاجمني رجال كوزمان في ذاك الموتيل وأجبروني على الخروج لأنجيليكا في الخارج، هنا بدأت الطلقات السريعة على السيارة، تعمّد أحدهم إصابة أنجيليكا في كتفها، وقام بإيصالها للمستشفى في بلدة نويفو لاريدو، أما أنا ففقدت الوعي ولم يطلق أحد منهم النار عليّ، أفقت ووجدت نفسي وجهًا لوجه مع مثلي الأعلى، كوزمان ديلابينا..

- كيف حالك يا ميشيل؟

- ....

- حان موعد مهمتك الأخيرة يا عزيزي، اقتل أنجيليكا، هي موجودة الآن بمستشفى البلدة، ومعها إيفيت تحت نظري، أنجيليكا تنتظرك هناك كي تنقذها، أرجو منك قتلها قبل الصباح.. مكافأتي الأخيرة لك هي أن تذهب في أمان.. آسف جدًا لا أستطيع البقاء معك وقتًا أطول، فلدي جنازة زوجتي العزيزة، سأحضرها عصر اليوم، أرجو أن تتفهّم موقفي، هل تريد شيئًا؟

- اقتلني ياكوزمان، أرجوك.

- لو خرجت من فمي لن أعود فيها.



طأطأت رأسي لأسفل وفكرت فيما حدث من زاوية كوزمان، الوغد لم يكن يريد قتلي، يريد أن تعيش إيفيت معه في سلام، أما أنجيليكا الخائنة فلتذهب للجحيم، لن يقتلها في قصره بالطبع، من ناحية كان يرغب في حفر ذكرى سيئة لا تخرج من ذاكرتي قط، ومن ناحية أخرى هو رجل له سمعة ضخمة في عالم السياسة قبل المخدرات، سيجعل من قتل أنجيليكا نقطة تحسب لصالحه ضد خصومة السياسين، وإظهارهم بمظهر الخصم غير الشريف الذي يستخدم أساليب قذره لإيقاف تقدمه السياسي.

- وايفيت؟!

- لا تشغل بالك بها، سيحضرها رجال الشرطة.

- كوزمان، أنا أحتا....

- انتهى الوقت ياميشيل، الأمر محسوم، هذه فرصة العمر بالنسبة لك، أنا لا أحاول إقناعك بشيء الآن.. أناآمرك.

- لماذا لا يقتل أحد رجالك أنجيليكا وينتهي الأمر؟

- أين الانتقام؟ أين روح المغامرة؟ هل وجدت في أنجيليكا مايغريك لمضاجعتها زيادة عن حسناوات القصر؟ لا تنكر أن السبب الأساسي في تلك الرغبة السافلة هو المغامرة، أنت تضاجع زوجة كوزمان ديلابينا، المغامرة هي ما تُحركك، هل فهمت قصدي؟ ستقتل عشيقتك بأمر من زوجها ليتركك تذهب في سلام، نهاية سعيدة بعد حسابات كثيرة خاطئة منذ البداية.

- أوافق..

كلامه كان منطقيًا لأقصى درجة، ويمنحني فرصة ثانية للبقاء حيًا،



كم أنت حقير ياكوزمان، قلتها في نفسي، لم أستطع الجهر بها أمامه بالطبع..

«فكوا وثاقه وأوصلوه إلى المستشفى في سرعة وتأكدوا أنه قام بمهمته»

قالها لأحد رجاله، ثم اقترب بوجهه منّي حتى شعرت بأنفاسه تخترقني وقال:

- لا تنسَ أن ترسل تحياتي لأنجيليكا يا ميشيل.

***

المشهد الرابع

الإثنين ٢٩/ ٣/ ١٩٩٣

مستشفى بلدة نويفو لاريدو الحدودية

الثامنة صباحًا

كانت أسوأ ليلة في حياتي يابافوميت، بل أسوأ ساعة مرت عليّ، قتلت الكثير من المكسيكيين، لكنني لم أقتل أحدًا عزيزًا على قلبي، أو حتى شخصًا تعاملت معه لفترة قصيرة، ثم إنني لم أقتل أحدًا من قبل وأنا أعزل، القتل يكون برصاصة سريعة في الرأس غالبًا، الحقير كان يريد قتلها بيديّ العاريتين كي أتعذب مدى الحياة، وقد نجح في ذلك بالفعل..

وصلت إلى المستشفى تحت نظر رجاله، قام أحدهم بدور مريض، حتى وصلنا لغرفة أنجيليكا، انتظر الرجل أمام الباب.. وجدتها نائمة



وقد تم توصيل الكثير من الأنابيب والسلوك إلى جسدها، فكرت في وضع وسادة على وجهها كي لا تراني، لكنني لم أجد سوى واحدة أسفل رأسها، إزالة قناع الأكسجين كذلك لن يكون مجدياً، هذه الأغراض لتحسين صحتها وليس لإبقائها حية.. فجأة استيقظت، يا إلهي، سيدة في منتصف الثلاثينيات لكنني أشعر أنها طفلة كبيرة أمامي، العينان الواسعتان والشفاه الرفيعة والأنف الدقيق، شعرها كان منسدلًا جوارها كالملائكة.. نطقت باسمي ما إن رأتني وقالت في وهن: ميشيل.. أين كنت، ماذا حدث؟ لقد رأيتك تفقد الوعي، ولا أذكر ما الذي حدث بعدها، إيفيت هي من أخبرت كوزمان عن علاقتنا دون قصد يا ميشيل، حمدًا للرب أنك مازلت حيًا، اعتقدت أنني سأموت دون أن أراك ثانية.

-.....................

- ميشيل.. ماذا بك؟ أرجوك لا تكن جبانًا وتلغي فكرة الهروب، كوزمان يخاف منا مثلما نخاف منه، لن يضع نفسه موضع اتهام أمام الإعلام، اعتقد أنه بعث برجاله لتهديدنا فقط.

-.....................

- لماذا أنت صامت هكذا؟ أرجوك لا تخيفني ياحبيبي..

الخيانة يابافومت ليست مخيفة، نحن نخون بعضنا البعض طوال الوقت، الخيانة المخيفة هي التي يكون التبلّد أساسها، الضمير الميت، سأخونك أمامك، سأخون عِشرتنا وآمالنا ووعودنا وأنت بجواري غير مصدقًا لما يحدث، ثم أنظر إليك في حنان كأنّ لم يحدث شيءٌ..

قلت دون النظر إليها: كوزمان ليس السبب في إخافتنا يا أنجيليكا،



الحياة هي التي قست على كلينا دون رفق أو تمييز، ولا أعلم لماذا، غالبًا ستعرفين أنتِ قبلي.. ستكون إيفيت بخير، وأنا سأهرب خارج البلاد لأكمل حياتي في عذاب مدى الحياة، أما أنتِ فلن أنساكِ يومًا، لن أحب غيرك، ولن أضع نفسي في هذا الموقف ثانية..

بدأت هي في البكاء وأنا أبكي أمامها كالأطفال، تذكرت كل الوجوه التي قتلتها، تذكرت أمي الجميلة التي أحبت المكسيكي السكّير، وفكرت في حياة ثانية في عالم آخر، بالتأكيد هناك عالم آخر، عالم لا يوجد به آثام أو خيانة، عالم مليء بالحب..

قطع حوارنا طرق الباب، فتحت الباب، فوجدت رجل شرطة ممسكًا بيد الصغيرة إيفيت، أشار لي بيده أن أنهي المطلوب سريعا وقال في حدة: لن أستطيع حمايتك هنا طويلًا.

ظهر كذلك رجال كوزمان من خلف الشرطي، يراقبون الموقف دون تدخل.. انتفضت عندما سمعت صوتها تقول في شرود: هل تريد قتلي ياميشيل؟

وضعت يدي على أنفها وفمها في قوة وأشحت بوجهي بعيدًا، ودموعي تقفز من عينيّ.. الغريب أنني لم أشعر بأي مقاومة منها، اكتفت بنظرة لم أرها، لكنها اخترقت روحي، وتركت ندوباً أعرف أنها ستبقى إلى يوم الدين، ستحضر يومها وتنظر لي نفس النظرة ثم تتركني في عذابٍ مختلفٍ عمّا قاسيته في حياتي، عذاب الجحيم.. لم أنسَ يومًا ما فعلته بنا إيفيت، لم أنسَ أنها كانت سببًا مباشرًا في أبشع جرائمي، كلما قابلت أنثى جميلة تذكرت قذارتي، كلما مررت بجوار مستشفى، كلما اقتربت من السعادة وراحة البال يأتي طيف أنجليكا ليعلن أن النوم ممنوع، أنتِ



ملعونة يا إيفيت، لقد تسببتِ في قتل والدتك وانتِ صغيرة، ثم والدك وأنتِ شابة، يا لك من نحس..

خرجت من المستشفى لا أعلم ماحدث بعد ذلك، أعادني رجال كوزمان إليه فوجدته جالسًا يدخن غليونه وقال لي:

- لن أقتلك، لقد وعدتك وكوزمان يفي بوعوده دائمًا، لكنني لا أريدك هنا في المكسيك، الولايات المتحدة مليئة بأمثالك.

أخرج من جيب معطفة رزمة من الدولارات وأكمل في سخرية:

- إياك والضعف ياميشيل، لا تكن جبانًا وتجعل من تأنيب الضمير سببًا في سقوطك المدوي، أنت لم تفعل شيئا يستحق الخجل، لقد كنت نِعم العبد، الذي ينفذ الأمر بكل حِرفية، حتى مهمتك الأخيرة نفذتها بصلابة، رغم قسوتها..

ألقى الرزمة وختم جملته بآية في الإنجيل قائلًا:

«فقال له سيده نعما أيها العبد الصالح والأمين، كنت أمينًا في القليل فأُقيمك على الكثير، ادخل إلى فرح سيدك»

عاد بكرسيه الهزّاز إلى الوراء ثم أغمض عينيه، فأخذت المال وانصرفت.. هربت بعدها إلى أقصى الشرق، الصين تحديدًا، استأجرت غرفة صغيرة هناك في بكين، وبدأت في الإنفاق من مدخراتي وأجر عمليتي الأخيرة، لم أستطع ارتكاب أي جريمة لمدة شهور.. في النهاية قررت الانتحار، وقتها كنت راغبًا في إنهاء حياتي لمجرد أن يتوقف طيف أنجيليكا عن الظهور، ثم فكرت، ما الذي سيحدث لي في العالم الآخر يا بافوميت، هل سيستمر تعذيبي بتلك النظرة كثيرًا، تراجعت عن ذلك القرار،



ربما كانت رغبة الانتحار ليست نابعة من تلابيب عقلي، مازال هناك عِرقٌ عربيٌّ بداخلي يرى الانتحار إهانة كبيرة لصاحبه.. بعد فترة تعرفت على قوّاد، خُدعت إحدى فتياته من ثلاثة رجال، فأحضرت إليه المال منهم بعد معركة بسيطة بالنسبة لي، ذاع صيتي في الوسط الإجرامي بشوارع بكين، النساء لا يصمتن أبدًا في مثل هذه المواقف، اقتربت أكثر من عالم العاهرات بعد تلك الواقعة، وكنت خير من يدافع عن حقوقهن..

بعد صداقة نشأت بيني وبين شاب صيني شهم يُدعى ماو لي، عدت لعالمي القديم مرة أخرى، عالم المخدرات، عملنا معًا في بكين بشكل ضخم نوعًا ما وكوّنا ثنائيًا رائعًا.. بعد شهور اشتقت للتجارة ولايات وفقرر ماو السفر للعمل معي بعد تكوين ثروة معقولة، عُدنا إلى أقرب الولايات الأمريكية من المكسيك وكوزمان، تكساس.. كان كُرهي لكوزمان يزداد يومًا بعد يوم، كره شديد لا تتخيله، ورغم ذلك ظلّ كيانًا ضخمًا بالنسبة لي، لا أستطيع الانتقام أو حتى الاقتراب منه، تحسست أخباره، فعرفت أنه صار وزيراً للصناعة والتجارة، لقد وصل لقمة هرم العمل السياسي، هناك من فجر مخزن للأسلحة تابع له، فانتقم من الخصوم بشكل دموي، لقد وصل لقمة هرم العمل الإجرامي كذلك، لم يتزوج بعد أنجيليكا، أما إيفيت فتركت له البلاد وصارت في حالة نفسية سيئة، عرفت أنها هنا في أوستن تدرس الآثار، فكرت في الانتقام منه عن طريقها، لكن طيف أنجيليكا كان يمنعني، إيفيت ابنتها ولم يكن لها ذنب فيما حدث، هناك ألف طريقة للانتقام من كوزمان، لكن قتل إيفيت سيحرق روح أنجيليكا وليس كوزمان، إهانة كوزمان هي ما تحرق قلبه، توسعت في تجارة المخدرات والقتل وإدارتها من الشبكة العنكبوتية، وصار لي فريق عمل في أي وقت مطلوب لتنفيذ مهمة ما، نجني منه



الكثير من المال، على رأس الفريق ماو لي وذو الضفيرة..

حاولت الاتفاق على قتل كوزمان مع خصومه في السياسة أو المخدرات، لكن كان هناك دومًا من يحميه، ملياردير ذو سلطة، يتكاثر معه المال بجنون، يجب أن يكون العائد من موته أكبر من بقائه حيًّا، وإلا ستتحول المكسيك لمنطقة صراعات.. ثم شاء القدر بنهاية سعيدة، ونتائجها مضمونة، زوج إيفيت يطالبني بتحريرها من قبضة كوزمان، هنا بدأت في وضع خطة شيطانية مع خصوم كوزمان السياسيين، بعد قتل كوزمان يتم اتهام إيفيت وزوجها بالتدبير لقتله، فيتم منعهما من دخول المكسيك.. كنت أريد ثقة طارق فطلبت منه المال، لكنه ليس رقما مبالغا فيه، وأن يكون الدفع بعد إتمام العملية كي يطمئن، قضيت عليه للأبد، قضيت على الأسطورة وأخرجت كل الغل القديم وأنا أقتله في تلذذ، ألقيت بجثته من الطائرة بتشفٍّ رغم خسارتي الفادحة بمصرع ماو لي، كانت خطتي تسير بنجاح ساحق ولم تتعرف عليّ إيفيت ولم ترني حتى الآن، بل إنني أول من لاح بخاطر زوجها المغرور هذا حين أراد تهريبك يابافوميت إلى هنا.

أعتقد أن طارق لم يعرف بقتلي أنجيليكا بعد، أرى شيطانًا صغيرًا داخل عقل هذا الشاب المصري، صراحة أنا معجب به لدرجة كبيرة.. الوغد يسألني عن اسمي الحقيقي، وهل يهم الاسم؟ جاك روبي هو لقبي في الدارك ويب، لكنني أفضل (صائد القتلة H.A) الدارج بين رجالي، أما ميشيل فهو اسمي الحقيقي لكنه يذكّرني بفترة عصيبة من حياتي.. لا يهم الاسم يا بافوميت، المهم هو الفعل وأنت تعلم هذا، الفعل فقط..

أعتقد أن اسم الشركة التي سننشئها مع رمّاح ستحمل اسمًا بعيدًا عن



اسمينا، مارأيك في اسم بافوميت مثلًا؟

***

المشهد الخامس

بعد مرور عام

«أحبك ياطارق، أحبك بجنون، أحب شجاعتك وذكاءك وإخلاصك لي، في كل مرة تثبت لي أن رأيك هو الصواب، الآن أراك من المميزين في المدينة، وواحدًا من رجالها الأقوياء، لا أستبعد أن تصل شهرتك لآفاق ولاية تكساس كلها قريبًا»

نطقت إيفيت هذه الكلمات الإيجابية لزوجها، أثناء استعدادهما لحضور حفل افتتاح شركته الجديدة، والتي تحمل اسم (العين الحارسة)، في البداية اتفق رمّاح مع شريكه جاك على اسم بافوميت، لكن تم تغييره في اللحظات الأخيرة بعد اعتراض الجهة الممولة لجاك، الشركة تحتل أربعة طوابق من ناطحة سحاب بموقع متميز، يطل على مبنى (الكابيتول) الشهير، يتبعها مصنع ضخم لصناعه لعب الأطفال - وهو النشاط الرئيسي - والتصدير للخارج، التأسيس تم برأس مال ضخم وصل لخمسين مليون دولار، خلق حالة من الحماس بين أهالي المدينة، لدرجة جعلته حديث إذاعة تكساس، البعض اعتبره سلاحًا نظيفًا في وجه التنين الآسيوي، بالإضافة لكون مالك هذا الصرح شابًا مسلمًا، مما أثار الجدل حول الإسلاموفوبيا..



ارتدت إيفيت فستان سهرة أسود اللون مع كامل زينتها، أما طارق فارتدى بدلة بيضاء ذات ياقة بنية اللون من القطيفة وحذاءً بنفس لون الياقة، كان صامتًا طول الوقت، حاولت إيفيت التخفيف من حدة توتره فقالت مبتسمة:

- أنت تذكرني بكوزمان اليوم ربما بسبب هذه البدلة.. قالتها اقتربت منه وقبّلته على خده ثم أكملت: لا تقلق يا عزيزي، سيكون أسعد أيام حياتنا.

لم يبتسم، لكن عند وصولهما كانا يضحكان، ضحكًا صافيًا نابعًا من قلب إيفيت، وضحك عصبي مرسوم على شفتي طارق، كان ذهنه مشغولًا باللحظة التي ستحسم إيفيت قرارها، بعد أن صارحه ميشيل بحقيقة أمره، فإما البقاء معه أو تبتعد عنه للأبد..

مظاهر الاحتفال كانت تملأ الشركة، الأصدقاء مجتمعون والكل يهنئ ويجامل ويرسل تحيات و ورود من كل مكان، ثم ظهر ميشيل، كانت المرة الأولى التي تراه إيفيت بعد جريمته في المستشفي، ظلت تنظر إليه مدة طويلة كي تتأكد أنه هو، اقترب منها وقال بالإسبانية:

- مدام رماح، تبدين جميلة اليوم، سعيد أنني أراك للمرة الأولى هنا في الولايات المتحدة.. قالها وهو يحاول إمساك يدها لتقبيلها، هتفت إيفيت في نفورٍ شديدٍ وهي تسحب يدها بسرعة:

- لا تلمسني مجددًا أيها الخنزير.

هتف في برود: لماذا؟

- أنت تعلم ما فعلت جيدًا.



- الأمور اختلفت كثيرا الآن عن ذاك الزمن الغابر سيدتي، كوزمان انتهى بكل قذارته وإمبراطوريته الزائفة.

- الإمبراطورية الزائفة تلك، هي التي تعيش من خيرها الآن.

- صَدقتِ، لكن هذا هو حال الدنيا.

- كف عن الحديث بالإسبانية أيها العربي، الجميع يعرف أصولك الوضيعة.

- ولماذا تزوجتِ عربيًا إذًا أيتها القديسة؟

- زوجي سيعرف الآن حقيقتك وسُينهي هذه الشراكة العفنة بينكما.

قاطعها بضحكة مجلجلة قائلًا في سخرية:

- زوجك الآن شريكي، لكنه أستاذي قبل هذا، تعلمت منه الكثير لكن أهم شيء تعلمته منه هو الأنانية ياصغيرتي، حب النفس وليس حب نفس أخرى، خسارة القلب وليس العقل، هل فهمت؟

بصقت مرة في وجهه وتركته واقفاً لا يتحرك، نظرت لطارق من بعيدٍ فوجدته مشغولًا بالحديث مع العمدة، ذهبت إليه في غضبٍ وطلبت الانفراد به لدقائق، اتجهت ناحية أحد مكاتب الشركة وهو من خلفها، ينظر ناحية ميشيل..

أغلقت باب الحجرة، لكن الغريب أن الأمر لم يطل ثوانٍ معدودة. لم تتكلم كثيرًا، حتى هو لم يسألها عن سبب ثورتها، ففهمت أنه يعرف كل شيء، أدركت إيفيت الأمر بمجرد النظر في عيني رماح، وأدركت أنه لا طائل من العتاب. تركت الحفل بعد أن أمسكت لارا في يدها ثم أوقفت



«تاكسيًا» واتجهت نحو البيت.. بعد أيام -لم يتخذ فيها طارق أي خطوة إيجابية- اتخذت قرارها الأخير، ستهجر زوجها للأبد.

* * *

المشهد السادس

محطة قطارات أوستن

السادسة صباحًا

بعد أن خرجت إيفيت من بيت زوجها ومعها لارا، اتجهت إلى محطة القطار للسفر لمدينة ديتون حيث تقيم إحدى صديقاتها، كما وضَّحنا في السابق.. أمسكت الهاتف واتصلت برقم يحمل الكود الدولي لمصر.. كانت مصممة على عدم العودة لطارق إلا في حالة واحدة؛ نجاح العميد صالح في إثنائه عن هذا الطريق..

جاءها صوت أنثوي من الطرف الآخر يقول في هدوء: مين معايا؟

قالت إيفيت بالإنجليزية: أنا إيفيت ديلابينا، هل أنتِ مدام عيسى؟

ردت السيدة في لهفة بإنجليزية متقنة ذات لكنة عربية: بلى بلى، أنا زوجة صالح يا إيفيت، حمدًا لله أنك اتصلتِ

قالت إيفيت بصوت متحشرج: هل يمكنني التحدث مع زوجك لدقائق أيتها السيدة الفاضلة؟

قالت في حزن: لقد توفى زوجي منذ عام تقريبًا يا إيفيت، بعد سفركما للولايات المتحدة مباشرة.



- مات !! إنا لله وإنا إليه راجعون.. قالتها إيفيت بعربية ركيكة.

- لديّ هنا أمانة تخصك، أربعة ملايين دولار، يجب أن تأتي بنفسك لتأخذيها، لن أستطيع إرسالها لك بالطرق التقليدية بسبب ضخامة المبلغ.

قالت إيفيت في عدم فهم: أربعة ملايين دولار، مالذي أتى بكل هذا المال لدى العميد صالح - رحمه الله -؟

قالت الأرملة في رجاء: أرجوكِ يا ايفيت، طلبي الوحيد منك هو عدم سؤالي عن المال، تستطيعين أن تأتي للقاهرة في أي وقت لتأخذيه حسب وصية صالح، أرجو منك تنفيذها حتى يكون مرتاحًا في قبره، لي شهور طويلة ممسكة بهاتف زوجي طول الوقت اترقب اتصالك.. ما اخبار زوجك؟

-..............................

- إيفيت هل مازلت معي، ايفيت، إيفيت!!

أنهت إيفيت المكالمة، وجلست على حافة الرصيف واضعة حقيبتها بجوارها لتجلس لارا، فكرت كثيرًا في حجم المعاناة التي عاشتها، كم الخذلان من الأفراد المحيطين بها، فكرت كثيرًا في زحمة الحياة المتمثلة أمامها في محطة القطار، ملايين بل مليارات الحكايات، تعيشها البشرية يوميًا دون إدراك مغزاها، تمنت أن تقابل الرب بعد وفاتها لتسأله سؤالًا واحدًا: لماذا يحيي ميشيل وكوزمان وسليم وحتى زوجها طارق، لماذا يحيا الشر حتى ينمو ويتحالف ويغزو النفوس و.. وينتصر؟

تذكرت الآية التي قرأتها وقت تحريرها من قصر المسيح، تلك الآية المعلّقة على جدار ضخم في بهو القصر، لطالما قرأتها لكنها لم تفهم معناها



سوى الآن.. تلك الآية التي تفتح لك باب الأمل دائمًا..

(إذا قلت للشرير موتًا، تموت، إن رجع عن خطيّته وعمل بالعدل والحق، فإنه حياة يحيا، لا يموت)

تمت



ترانيم أوستن

AUSTIN'S HYMNS

لماذا يحكي لك الكل "بابافوميت" ولا أحد يعرف قصتك الحقيقية، أم أن قصتك معروفة والكل يتعمد تجاهلها؟ غريب هذا، هل الشيطان عدو للإنسان أم صديق أم مثل أعلى؟ "إيغيت" تعتبرك عدوًا، أنا وطارق وغيرنا نعتبرك صديقًا مقربًا ووسيلة للسعادة، الراهب ومن دفعوا ثمنك يريدون إقامة الطقوس وممارسة شعائرهم أمامك، يعتبرونك مثلًا أعلى بل غاية الكون كله، فلتفرح إذًا، أنت ذاهب إليهم الآن.. هل ستحقق لنا السعادة أيها التمثال، أم ستخنق أرواحنا داخل أجسادنا الهزيلة الملأى بالشهوات؟ أنت ماكر جدًا يا "بافوميت"، قد يصدق فيك قول بولس الرسول "لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك النور"، تدخل في أعماقنا وتقول: أما الشيطان فأكرهوه، أريدكم أن تحبوا أنفسكم ثم نكتشف بعدها أننا كرهناك بالفعل.

تصميم الغلاف: كريم آدم



